



رحلة من حلب إلى القدس

تأليف: هنري موندرل

ترجمة: صفوح الذهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

روّاد المشرق العربي

رحلة من حلب إلى القدس في عيد الفصح من عام 1697 م

للرحالة البريطاني
هنري موندل

ترجمة
صفوح الذهبي

تحرير وتعليق
د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS106 .M4512 2012

Maundrell, Henry, 1665-1701.

[Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697]

رحلة من حلب إلى القدس : في عيد الفصح من عام 1697 م / للرحالة البريطاني: هنري موندل ؛ ترجمة: صفوح الذهبي، تحرير وتعليق: أحمد إيش. ط. 1- . أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012. ص. ؛ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697

تدمك : 7-1-0617-9948-978

1. فلسطين -- وصف ورحلات .. أ. ذهبي، صفوح. ب. إيش، أحمد. ج. العنوان. د. السلسلة.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

«المجمع الثقافي»

© National Library

Abu Dhabi Tourism &

Culture Authority

"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1433 هـ - 2012 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة
من حلب إلى القدس

سلسلة رواد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «رواد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثيّة عريقة ثمينه واسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعْر، التّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفّي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزيّنوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرومان (كرحلة إيلوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط الساحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

هنري موندل (1665-1701 م) أكاديمي بجامعة أوكسفورد، أضحى من رجال الإكليروس في كنيسة إنكلترا. ولد عام 1665 في بلدة كومتون باسيت Compton Bassett بمقاطعة ويلتشاير. درس في كلية إكستر بأوكسفورد وفي عام 1691 رُسم كاهناً. ثم في عام 1695 وبإيعاز من خاله مدير بنك إنكلترا سير وليم هيدجز Sir William Hedges، عُيّن كاهناً في معمل تابع لشركة «المشرق» The Levant Company التجارية في حلب بشمال سوريا. كان موندل في الثلاثين من عمره عندما انطلق إلى حلب عام 1695، وكان قد أمضى القسم الأكبر من حياته اليافعة إلى تلك المرحلة في بيئة أكاديمية أو دينية.

كانت الجالية في حلب مجموعة صغيرة فقط مؤلفة من أربعين شاباً أعزب لديهم اتصال قليل بالعالم الخارجي، وكانوا يعيشون تقريباً في عزلة، كتب إلى زميله في جامعة أكسفورد: «كانت سعادتنا تكمن في أنفسنا، وبوجود أربعين منا هنا، لم تنقصنا أبداً المحادثات الودية واللطيفة. إن طريقتنا في الحياة تشبه نوعاً ما الحياة الأكاديمية، فنحن نعيش في ساحة منفصلة تُغلق كل ليلة كما في الكليات. نبدأ اليوم دائماً بالصلوات، كما تفعل أنت، ونجهز أوقاتنا لأعمال التجارة ووجبات الطعام والاستجمام. في الشتاء نصطاد في معظم حملاتنا المبهجة مرتين في الأسبوع، وفي الصيف نذهب في كثير من الأحيان لنسلي أنفسنا في خيامنا بلعبة البولنغ وغيرها من التمارين».

كان القنصل مسؤولاً عن المصنع، وبصرف النظر عن القسيس لم يكن هناك

سوى مسؤولين اثنين آخرين: المستشار الذي يحتفظ بسجلات الأعمال التجارية، والخازن الذي كان مسؤولاً عن مجموعة مستحقات الشركة والنفقات المشتركة للمصنع.

* * *

في مطلع عام 1697، قرّر موندل ومجموعة من رفاقه تبلغ 15 شخصاً (من أصل 40 يعملون في المعمل) القيام برحلة حجّ إلى القدس. وفي تمام السّاعة الثالثة بعد الظّهر من يوم الجمعة 26 فبراير 1697، انطلقوا باتجاه اللاذقية على السّاحل السوري، وتابعوا طريقهم على طول ساحل لبنان من شماله إلى جنوبه حتى بلغوا عكّا في ساحل فلسطين، ومنها اتجهوا براً إلى القدس الشريف فبلغوها في 25 مارس، حيث حضروا قدّاس عيد الفصح المقام وفق الطّقس اللاتيني. زار الفريق وادي الأردن والبحر الميت وبيت لحم، عائدتين إلى القدس في الثاني من أبريل لحضور الاحتفالات بعيد الفصح في الكنائس الشّرقية، ومن ثمّ شقّوا طريقهم للعودة عبر دمشق وبعليّك إلى طرابلس، وتابعوا طريقاً خارجيّاً ووصلوا عائدتين إلى حلب فوصلوها في 18 مايو.

دوّن موندل وقائع الرحلة في كتاب أطلق عليه: «رحلة من حلب إلى القدس»، لم يُنشر إلا عام 1703 بأوكسفورد، بعد وفاته في حلب عام 1701.

Journey From Aleppo to Jerusalem at Easter A.D. 1697

* * *

قضى الرجال الخمسة عشر الجزء الأكبر من هذه الأشهر الثلاثة في السّفر، وشاهدوا العديد من بلدان ومدن المشرق. كانت الرّحلة بحدّ ذاتها رحلة مألوفة للعاملين في حلب تقام في هذا الفصل، لكنّ الذي ميّزها عام 1697 كان صحيفة ترحال كتبها موندل، مليئة بملاحظات مفصلة عن الأماكن التي زاروها، وهي تُعدّ واحدة من أولى الروايات الدقيقة عن العصور القديمة لسوريا ولبنان وفلسطين تُكتب باللغة الإنكليزيّة. وبتشجيع من خاله مستر تشارلز هيدجز، أرسلها موندل إلى

إنكلترا للتداول بين أصدقائه والقسيسين البارزين، فاستُقبلت هناك بحماس كبير فقام بمراجعتها وإعدادها للنشر.

* * *

أما رواية الكتاب فشائقة ممتعة وحافلة بالأحداث والملاحظات، تذكّرنا بأسلوب الرّجالين الفرنسيين جان دي تيفنو ولوران دارفيو اللذين زارا أقطار المشرق في أواسط القرن السابع عشر، وذلك من حيث الرواية الشخصية والتفاعل الحي مع الأحداث، أما من حيث مسرح الأحداث والوقائع فالرحلة تمتاز بذكرها لمواقع في غربي حلب وفي الساحل السوري، لم ترد لدى باقي الرّحّالين، وذلك كله بقلب جزل من الوصف والملاحظات النقدية المفيدة، مع دقة في الرواية وتبيان واضح لظروف السفر بالكامل. وبوجه الإجمال، يُعدّ هذا الكتاب واحداً من أهم كتب الرّحلات الأوروبية في المشرق العربي بالقرن السابع عشر، ونعد القارئ الكريم بأن نردفه بكتابي تيفنو ودارفيو المذكورين أعلاه في أقرب وقت ممكن.

أول طبعة صدرت للكتاب كما قلنا كانت في أوكسفورد 1703، بعد وفاة موندلر بعامين، حيث توفي بحلب عام 1701. ومنذ ذلك الحين صدرت لها عدّة طبعات، منها ترجمة فرنسية عام 1706، والطبعة الإنكليزية الثانية عام 1707، كما نُشر الكتاب في دبلن بطبعته السادسة عام 1749.

وفي عام 1963 صدرت في بيروت عن مكتبة خيَاط طبعة حديثة استندت إلى طبعة لندن عام 1810 مع مقدّمة وافية وتعليقات ختامية قام بها دايفيد هويل David Howell.

* * *

عندما نقلنا هذا الكتاب إلى العربية استندنا إلى طبعة ريفنغتون الصادرة بلندن عام 1823، وراجعتها على طبعة لندن 1832، وطبعة بوسطن 1836 وطبعة بيروت 1963. وتبيّن لي أن طبعة ريفنغتون اللندنية مختصرة بعض الشيء، لكنها تفي بفحوى النصّ

الآن، وقد تكون لنا عودة أخرى إلى الكتاب بنصّ أوسع ورسوم أكثر في المستقبل.
أمّا التسميات العويصة الكثيرة المتناثرة في صفحات الكتاب، فأحسب بعد الجهد
الكبير الذي بذلته أنني قد وقّفت في تبيانها واسترداد تسمياتها الأصلية من التصحيف
والتحريف الفادحين اللذين نالا منها على لسان موندل.
والحمد لله على ما وقّق وأعان.

جبيل، 3 يناير 2012

د. أحمد إيش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركية العثمانية القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسية، أمّا في الاسماء الإيطالية والإسبانية فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزية ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانية كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطالية حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركية حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الاسماء الإنكليزية: چستر، چقرون، بحرف (چ) فثمة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبيج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعتبر عنها في التركية العثمانية والفارسية والأوردية بحرف: ژ، ويمثله في الفرنسية والبرتغالية ز والإنكليزية zh والروسية ж والبولونية ż.

3- أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم

Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السَّعوديّة: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدُول، رامات چان (علماً أن ڤا هي ذاتها جَنَّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تميّزاً له عن (الجيم الشّجرية) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أن أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عزّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نسمّيه بثلاث نقاط: (غ) تميّزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أن الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غيتوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطالية فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كيبهو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجرية كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجدية اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف

g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرْچَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (غِجَلار)، Avcı (أَوْجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غيفير)، وإن أرادوا رسم الاسماء الأجنبية لقوا في ذلك التباين، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربية: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معينة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراغون.

* * *

أمّا التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) فيمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريّا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البُرغل مثلاً: بُرْجل؟ (وهي كلمة معربة عن التركية bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

A
JOURNEY
FROM
ALEPPO TO JERUSALEM,
AT EASTER, A.D. 1697.

BY
HENRY MAUNDRELL, M.A.

A NEW EDITION.

LONDON:

PRINTED FOR C. & J. RIVINGTON,
Booksellers to the Society for Promoting Christian Knowledge,
62, ST. PAUL'S CHURCH-YARD,
AND 3, WATERLOO-PLACE, Pall-Mall.

1823.

عنوان طبعة ريفنتون، لندن 1823

A
J O U R N E Y
FROM
ALEPPO TO JERUSALEM,
AT EASTER, A. D. 1697.
TO WHICH IS ADDED
AN ACCOUNT OF THE AUTHOR'S JOURNEY
TO THE
BANKS OF THE EUPHRATES AT BEEB,
AND TO THE
COUNTRY OF MESOPOTAMIA.
By **HENRY MAUNDRELL, M. A.**
FELLOW OF REYER COLLEGE AND CHAPLAIN TO THE FACTORY
AT ALEPPO.
FIRST AMERICAN EDITION.

BOSTON:
SAMUEL G. SIMPKINS.
1836.

عنوان طبعة أميركية صادرة في بوسطن 1836

ter'd into a narrow cleft between two rocky mountains, passing thro' which, we arriv'd in four hours at Demass, gently descending all the way. At Demass a small caphar* is demanded; which being dispatch'd, we put forward again, but had not gone above an hour and a half, when it grew dark, and we were forc'd to stop at a very inhospitable place, but the best we could find; affording no grass for our horses, nor any water, but just enough to breed frogs, by which we were serenaded all night.

Tuesday, April 27.—Early the next morning we deserted this uncomfortable lodging, and in about an hour arriv'd at the river Barrady; our road still descending. This is the river that waters Damascus, and enriches it with all its plenty and pleasure. It is not so much as twenty yards over; but comes pouring down from the mountains with great rapidity, and with so vast a body of water, that it abundantly supplies all the thirsty gardens, and the city of Damascus.

We crossed Barrady at a new bridge over it, called Dummar. On the other side our road ascended, and in half an hour brought us to the brink of a high precipice, at the bottom of which the river runs; the mountain being here cleft asunder to give it admission into the plain below.

At the highest part of the precipice is erected a small structure, like a shek's sepulcher, con-

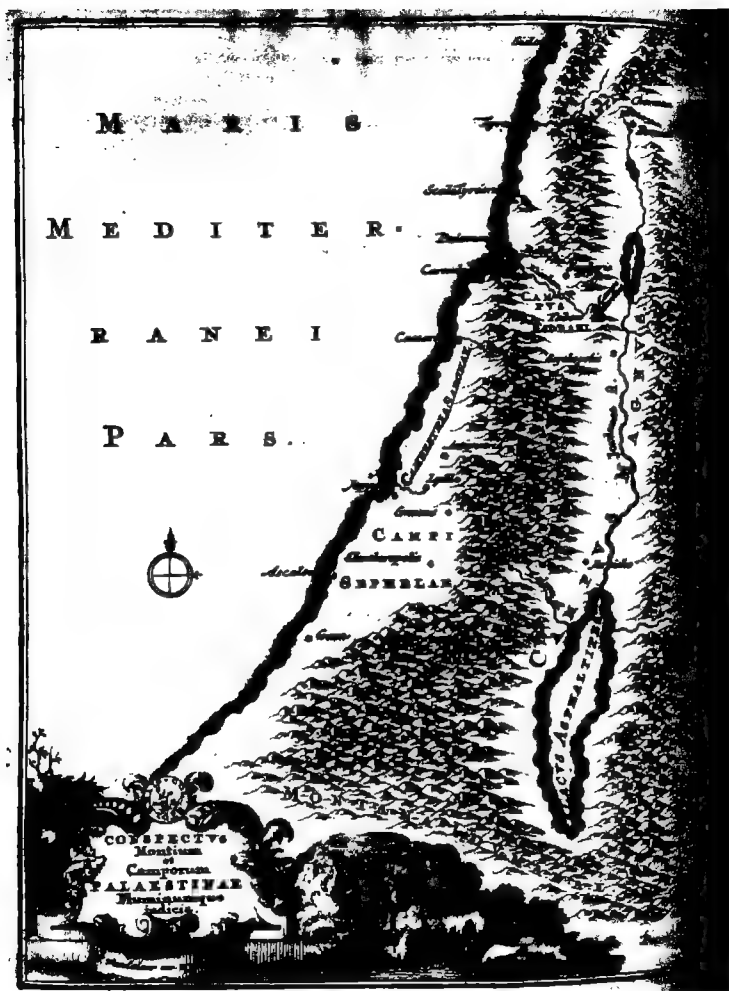
Quarter per head.

M 2

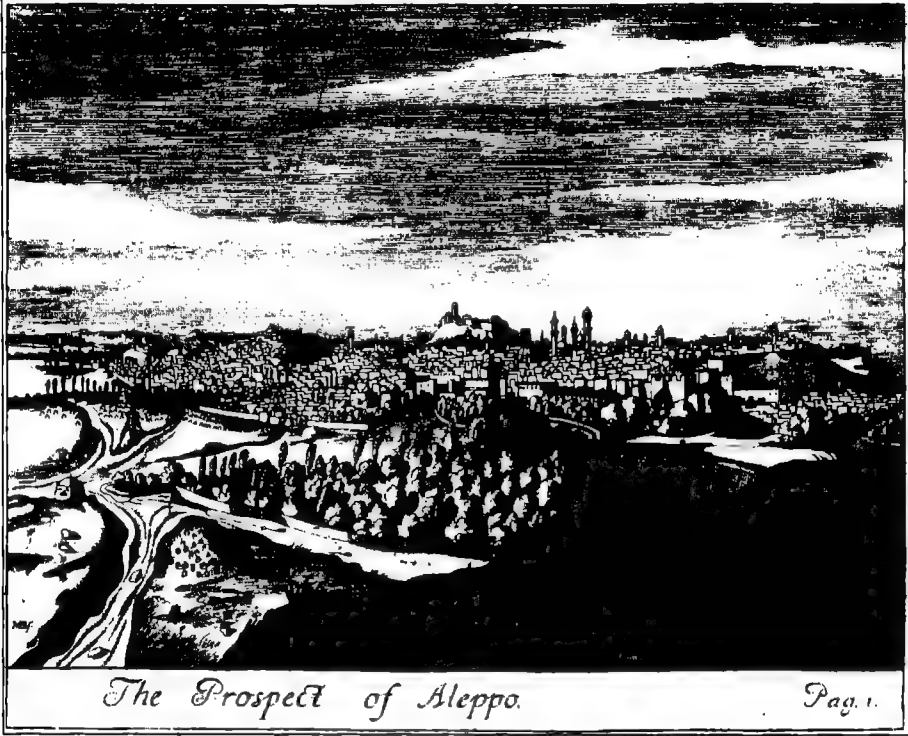


نُقِيشَةُ عَنوَانِ الطَّبْعَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَامَ 1706

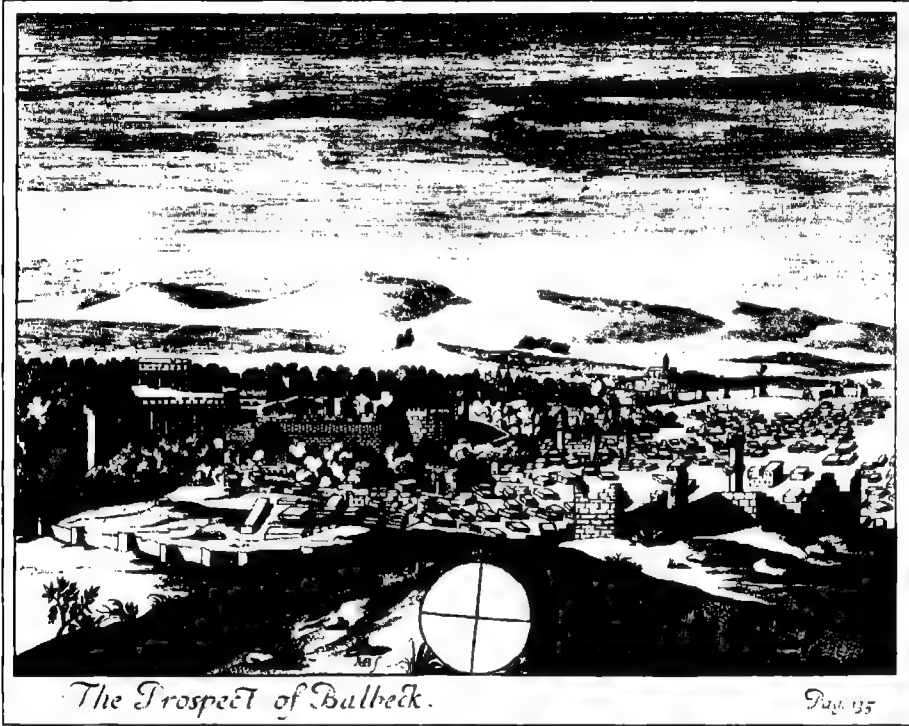
Voyage d'Alep à Jérusalem



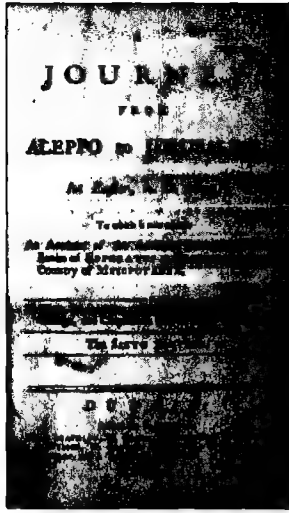
خارطة قديمة لفلسطين من عصر المؤلف



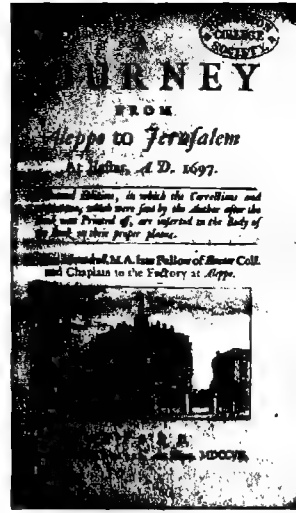
نقشة نادرة تمثل مدينة حلب عام 1703 م
من الطبعة الأولى لكتاب موندول



نقشة نادرة تمثل مدينة بعلبك عام 1703 م
من الطبعة الأولى لكتاب موندول



الطبعة السادسة، دبلن عام 1749



الطبعة الثانية للكتاب عام 1707



خارطة أوروبية تمثل السلطنة العثمانية تعود إلى عام 1643 م

لاحظ عبارة: Sinus Arabicus (الخليج العربي)

مقدمة المؤلف

بما أن عدداً من رجال أمتنا، وكان عددهم أربعة عشر، صمّموا القيام بزيارة إلى الأرض المقدّسة في عيد الفصح القادم، فقد قرّرت مؤخراً المجيء إلى حلب، للقيام برحلة على المنوال ذاته، آخذاً بعين الاعتبار أنّ نيّتي كانت القيام بهذه الحجّة في وقت ما قبل عودتي إلى إنكلترا وإلا فلن أستطيع القيام بذلك مطلقاً، إما بتعامل أقلّ لخدمة كنيسة أو بسرور أكبر لنفسي في هذه الرحلة؛ ولدي قسم كبير بنفس الوقت من جماعتي في الخارج وبرفقتي.

تبعاً لهذا القرار، انطلقنا من حلب يوم الجمعة 26 فبراير 1696⁽¹⁾ وذلك في الساعة الثالثة بعد الظهر، قاصدين بأن نقوم فقط بخطوة قصيرة في ذلك المساء لنبرهن على مدى حسن امتلاكنا لضروريات رحلتنا. وكانت إقامتنا في ليلتنا الأولى هذه في خان العسل، وهو مكان لإقامة عابرة يبعد حوالي ساعة ونصف غرب حلب.

ينبغي أن نلاحظ هنا بأنه لدى السّفر في هذا البلد، لا يلقي المسافر مدينة ذات سوق أو نُزلٍ في كل ليلة كما هو الحال في إنكلترا. وأفضل استقبال يمكنك أن تجده هنا، هو إما تحت خيمتك، فيما إذا سمح الطّقس؛ أو في مساكن شعبية أسست كمبرة لإيواء المسافرين. ويسمّيها الأتراك بالخانات؛ وهي موجودة أحياناً في المدن والقرى؛ وأحياناً في مسافات مناسبة على الطّريق العام. وهي مبنية على طراز الدّير وتحتوي على فناء مساحته حوالي ثلاثين أو أربعين يارداً مربعاً حسب إمكانية المؤسس. وجميع الوافدين إلى هذه الأمكنة أحرار بأن يلتجئوا إليها؛ ويدفعون أجره صغيرة

(1) كذا يرد في الأصل، رغم أنّ المعروف أنّ الرحلة كانت في ربيع عام 1697.

لصاحب الخان وغالباً لا يدفعون شيئاً. وبصورة عامة لا يتوقعون هنا سوى جدران خالية؛ وبالنسبة للمؤن الأخرى كاللحم والشّراب والفراش والنار والعلف فينبغي لكل فرد أن يؤمّنهما بنفسه.

السبت 27 فبراير: غادرنا خان الحرير باكراً جداً في الصّباح التالي؛ وانطلقنا غرباً كالיום السابق ووصلنا إلى أورم⁽¹⁾؛ وهي قرية قديمة ليس فيها شيء جدير بالانتباه سوى أنقاض كنيسة صغيرة. ووصلنا خلال نصف ساعة من أورم إلى كفر⁽²⁾؛ وبعد ثلاثة أرباع الساعة إلى أسيون. حيث دخلنا في هذا المكان الأخير إلى سهول كفتين⁽³⁾ Kefteen، التي تابعنا سيرنا فيها ووصلنا بعد ساعة أخرى إلى قرية تسمى الجينة، وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى حزانو وبعد ساعة كاملة وصلنا إلى كفتين. استغرق مشوارنا في هذا اليوم حوالي خمس ساعات كاملة، قليلاً جنوباً نحو الغرب.

وسهول كفتين ذات محيط واسع؛ تمتد نحو الجنوب أبعد مما تبلغه العين وهي في معظم أركانها مثمرة جداً ومزروعة بصورة جيدة. وعند نزولنا الأول إلى هذه السّهول في أسيون عددنا أربعاً وعشرين قرية أو أماكن عن بُعد تشبه القرى عندما ألقينا نظرة من إحدى المحطات. والتربة هنا ذات لون أحمر وهي رخوة جداً ومثقبة؛ ومن الصّعب أن ترى فيها حجراً. وتمتدّ على جانبها الغربي لمسافة أميال عديدة سلسلة آكام عالية من التلال بحيث تكشف عن صخور عالية دون أية إشارة للتربة، أو أي منتج نافع يعطي مظهراً للطبيعة ذي فائدة للمزارع. وقد ظهر كامل السّهل من هذه الأحجار وكوّنها جميعها سوياً في ذلك الجبل الوحيد. أمّا كفتين نفسها فهي قرية كبيرة وافرة على الجانب الغربي للسّهل. والحقول المتاخمة الممتلئة بالذرة تعطي السّكان مزيجاً كبيراً

(1) هناك قريتان بهذا الاسم: أورم الكبرى، وإلى جنوبها أورم الصّغرى.

(2) تسمّى في عصرنا: كفر حلب، وهي تقع إلى الجنوب من أورم الصّغرى.

(3) يرى دايفيد هويل محرّر طبعة 1963 من كتاب موندل أنّ الرخالة يقصد بهذا الاسم: كفر نخاريم. لكن ثمة قرية فعلاً تسمّى كفتين تتبع محافظة إدلب على بعد 20 كم شمالي مركز المحافظة، وهي قرية من الحدود التركية، وتحدها من الشرق قرية حزانو التي يذكرها موندل هنا.

لتربية الحمام، بحيث أنك تجد هنا أن أبراج الحمام أكثر من البيوت الأخرى.

الأحد 28 فبراير: بما أنه كانت لدينا مسافة طويلة للسفر هذا اليوم، فقد غادرنا كفتين باكراً جداً. وتابعنا في نفس السهل المثمر الزّاحر بالذّرة والزّيتون والعنب، ووصلنا خلال ثلاثة أرباع الساعة إلى أرمناز Harbanoose؛ وهي قرية صغيرة واقعة في منتهى السهل. حيث بعد اختراق مرتفع بسيط وصلنا إلى وادٍ غني جداً يسمّى الرّوج. وهو يمتدّ إلى الجنوب أبعد من أن يستطيع المرء أن يرى، ولكن بالنسبة لعرضه من الشرق إلى الغرب فهو يمتدّ لا أكثر من ساعة ركوب؛ وهو محاط على الجانبين بجدار من الجبال الصّخرية العالية.

بعد السّفر في هذا الوادي لمدة حوالي أربع ساعات وصلنا إلى مجمّع مائي كبير يسمّى بحيرة الرّوج (أو بالأحرى البحر حسب الأسلوب الشرقي). وكنا مجبرين أن نمرّ عبر جانب هذه البحيرة؛ ووجدنا في ذلك إزعاجاً ليس بالقليل في أن نمرّر خيولنا وبغالنا المحمّلة عبر الماء والوحل. ولكن لدى عودتنا وجدنا أن البحيرة قد جفّت كلياً والطّريق قد جرى إصلاحه بشكل مُتقن حيث لم نستطع أن نميّز كثيراً أين كان المكان الذي سبّب لنا إزعاجاً أكثر من سواء. وبعد ساعة من هذه البحيرة وصلنا إلى تنيري⁽¹⁾ Te-ne-ree وهو المكان الذي دفعنا فيه رسمنا الأول.

هذه الرّسوم هي ضرائب ينبغي للمسافرين دفعها عند عدّة ممّرات على الطّريق لموظفين يداومون في مراكزهم المعينة لاستلام هذه الرّسوم. وقد فرضها أولاً المسيحيون لتقدّم تعويضاً للبلاد لصيانة الطّرق وإبقائها بحالة جيدة، وتنظيفها من الغزاة واللصوص. ولا يزال الأتراك رابحين من تطبيق ذلك ويتظاهرون بنفس الأسباب لجنيها. ولكن تحت هذا الادّعاء يغتتمون الفرصة ليفرضوا على المسافرين، وخاصة الأوروبيين، مبالغ جائرة وغير معقولة؛ وبهذا فعوضاً عن أن يكونوا حُماة يثبتون بأنهم

(1) هذه التسمية تنيري غير معروفة اليوم، وقد تكون محرّفة غالباً. وينبغي أن يكون موقعها حسب الوصف في جنوبي سهل الرّوج. ويرى هويل أن الموقع ينطبق على مكان يسميه: Tell-el-Kareh.

أنفسهم أكبر المحتالين واللصوص.

بعد ساعة طويلة من مركز الرسم هذا، قادنا طريقنا فوق الجبال إلى الجانب الغربي من وادي الزوج. حيث استغرق اختراقه حوالي الساعة، وبعدها انحدروا إلى وادٍ آخر يمتد موازياً للوادي السابق حيث غادرناه عن طريق سلسلة التلال الأخيرة. ولدى النزول الأول إلى هذا الوادي توجد قرية تدعى ماعز Bell Maez ومنها وصلنا بعد ساعتين إلى الشغور Shoogle. كان طريقنا لمعظم هذا النهار غرباً - جنوباً - غرباً. واستغرقت رحلتنا كلياً عشر ساعات.

والشغور⁽¹⁾ Shoogle مدينة كبيرة لا بأس بها ولكنها وسخة للغاية وواقعة على نهر العاصي، الذي تمر فوقه عبر جسر ذي ثلاثة عشر قوساً لتصل إلى المدينة. والنهر في هذا المكان ذو عرض جيد؛ ولكنه سريع جداً حيث يدير دواليب (نواعير) كبيرة صنعت لرفع المياه وذلك بسرعتها الطبيعية دون إضافة أية قوة. إن مياهه عكرة وغير صالحة مطلقاً وأسمائها أسوأ؛ حيث وجدنا بالخبرة بأنه ما من شخص من جماعتنا كلها قد أكل من هذه الأسماك خلال الليل، إلا وجد نفسه متوَعك الصّحة في الصّباح التالي.

أقمنا هنا في خان كبير جداً وحسن ويختلف كلياً عن ما يرى عادةً في مثل هذا النوع من الأبنية. أنشأه الكوبريلي⁽²⁾ Cuperli الثاني وخصّص له دخل كاف لتزويد كل مسافر يقطن فيه بحصة كافية من الخبز والمرق واللحم، حصّة جاهزة لكل من يطلبها، وقليلون جداً من الأشخاص لا يطلبونها. وملحق بالخان في جانبه الغربي ساحة مربعة أخرى تحتوي على غرف لعدد معين من المحسنين؛ وتلك الهبة الخيرية أوقفها الكوبريلي ذاته. وكان الخان الذي وجدناه لدى وصولنا ممتلئاً بعدد كبير من

(1) تعرف في يومنا باسم: جسر الشغور. علماً أنّ هناك بلدة تسمى الشغور كما يلفظها موندلر تقريباً، لكن كلامه بأنها مدينة كبيرة يدلّ على أنه يعني جسر الشغور.

(2) تولّى من أسرة الكوبريلي Köprülü خمسة صدور عظام أداروا الإمبراطورية العثمانية بين 1656-1710 م، وكان الثاني منهم (الذي يعنيه موندلر) فاضل أحمد باشا الصدر الأعظم بين 1661-1676 م، الذي اشتهر بكونه رجل سياسة وحرب في آن واحد.

الحجاج الأتراك المتجهين إلى مكة. ولكن مع ذلك فقد قوبلنا باستقبال سلمي فيما بينهم بالرغم من أن وجوهنا كانت متجهة لمكان مختلف.

الاثنين 1 مارس: قادنا طريقنا من الشغور Shoogle أولاً غرباً وذلك لعبورنا الجبل من ذلك الجانب من الوادي. وصلنا إلى أسفل المرتفع خلال نصف ساعة، ولكن واجهتنا طرق وعرة جداً في الجبال لم نتخلص منها إلا بعد ساعتين. ونزلنا بعدها إلى واد ثالث يشابه الواديين الآخرين اللذين مررنا بهما سابقاً. ويوجد عند مدخله الأول قرية تدعى بداما⁽¹⁾ وهذا الاسم ذاته أيضاً يطلق على الوادي.

بعد سفرنا لمدة حوالي ساعتين في هذا الوادي دخلنا إلى ريف جبلي مشجر حيث تنتهي حدود حلب وتبدأ حدود طرابلس⁽²⁾. وكان طريقنا هنا صخرياً جداً وغير مستو؛ ولكن التغيير فيه عدل شيئاً من إزعاجه. فقادنا أحياناً إلى تحت ظل بارد لأشجار كثيفة، وأحياناً عبر وديان ضيقة تسقيها شلالات عذبة ذات خريز؛ ومن ثم لمدة طويلة على طرف شفير. وقد قدّم لنا في جميع الأماكن منظر نباتات وأزهار ذات أنواع أخرى متعدّدة كالأس والدفلى وبخور مريم، وشقائق النعمان، والخزامى، ونباتات القطيفة، وعدة أنواع أخرى من الأعشاب العطرية.

بعد قضاء حوالي ساعتين على هذه الحالة نزلنا وادياً منخفضاً؛ في أسفل شقّ في الأرض ذو عمق كبير؛ زد على ذلك أنه ضيق جداً حيث لا تبصره العين حتى تصل فوقه تماماً بينما ترصده الأذن من مسافة كبيرة بسبب صوت ساقية تجري إليه من التلال. وقدّرنا بأن عمقه لا يقل عن ثلاثين يارداً. ولكنه ضيق بشكل بأن قوساً لا يبلغ أربعة ياردات يوصلك إلى جانبه الآخر. ويسمونه بامرأة الشيخ، وهو اسم غلب عليه من امرأة لها تلك الصفة سقطت فيه ولا حاجة لي بأن أضيف بأنها هلكت. إن عمق القنال وضجيج الماء غريبان بشكل لا يستطيع المرء أن يمرّ فوقهما بغير شيء من

(1) من قرى جسر الشغور، تقع إلى الغرب منها.

(2) طبعاً هذا بمصطلح ذلك العصر، وهو يعني حدود اللادقية، لأنها كانت تتبع آنذاك في القرن السابع عشر لولاية طرابلس.

الهلع. وجوانب هذا الشق تتألف من صخر قاسٍ عموديٍّ وناعم، يبدو بأنه يمتدّ بشكل متموج حتى الأسفل كما لو كان يتقيد بحركة الماء. قادتنا هذه الملاحظة إلى التخمين بأن ذلك الجدول بسبب جريانه الطويل والمستمر قد حفر قنواته إلى ذلك العمق غير العادي؛ ولهذا التأثير فإن الماء قد جرى تقييده بممرّ ضيق لهذا الحد، وبجرفه حجارة بسبب سرعته لم يكن ذلك قليلاً بمساهمته.

تابعنا مسيرنا من هنا عبر طريق يشبه ذلك الذي سبق وصفه ووصلنا خلال ساعة إلى قطعة مستوية من الأرض تسمى حجر السلطان، وأقمنا في هذه الليلة تحت الخيام. واتجه طريقنا في هذا اليوم بمعظمه باتجاه الجنوب الغربي، وكانت مسيرتنا حوالي سبع ساعات ونصف.

الثلاثاء 2 مارس: كنا مسرورين بأن نغادر باكراً جداً هذا الصباح من إقامتنا في العراق. وكان الطقس لا يزال رطباً وبارداً جداً على الانطلاق. وبعد متابعة رحلتنا عبر أحراج وجبال، كما في اليوم السابق، وصلنا في حوالي ساعة واحدة إلى كفر كروسة⁽¹⁾ Crusia حيث يوجد قرب خان بذلك الاسم، يسمونه خاناً ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من خربة باردة وغير مريحة على رأس تلة على جانب الطريق.

وصلنا من هنا وفي حوالي ساعة أخرى إلى أسفل جبل يدعى العقبة⁽²⁾ Occaby، وهو كما تشير التسمية، صعب، وفعلاً وجدنا صعوده متجاوباً كلياً مع اسمه. وإن الرطوبة وانزلاق الطريق في هذا الوقت أضافا إلى انحداره وهذا زاد كثيراً في مشقة صعوده علينا؛ بحيث استغرق وصولنا إلى قمة التلة ساعة كاملة. ولم نجد هنا أحراجاً أو تلالاً، ولكن وجدنا ريفاً ظريفاً مفلوحاً جيداً ومزروعاً بحدائق الحرير. عبر ذلك يوجد على اليد اليمنى قرية تدعى ستّ غالة⁽³⁾ Citte Galle يقطنها الموارنة كلياً، وبعد

(1) المرجح أنه يقصد: خان القرشية.

(2) أظن هذا الموقع ينطبق في أيامنا على البهلوية.

(3) يقصد: ست غالية، من قرى اللاذقية تتبع قرية الزوبار.

ساعة وصلنا إلى بلولكة⁽¹⁾ Bellulca.

ومن هنا توجهنا إلى مكان هو خان القرية وفي نفس الوقت كان بيت الآغا، وقررنا بسبب الأمطار التي سقطت بسخاء من أن نجعل هذا محل إقامتنا. وذهبنا لزيارة الآغا مع هدية صغيرة بأيدينا لكي نحصل على استقبال لائق. ولكننا قبولنا بمكافأة قليلة الامتنان من التركي، وذلك بعد كل ما أبديناه له من احترام. وبعد إلحاح شديد ظفرنا باستعمال ناحية جافة من المنزل؛ حيث أن المكان الذي قطعنا فيه أولاً كان مفتوحاً للرياح وزخ المطر. كل مشوارنا في هذا اليوم لم يتجاوز أربع ساعات، وكان اتجاهنا تقريباً إلى الجنوب الغربي.

وبما أنه جرى إعلامنا بوجود عدّة سكان مسيحيين في هذا المكان، فقد ذهبنا لزيارة كنيستهم التي وجدناها فقيرة جداً وتستحق الشفقة. والمسيحية هنا بدت وكأنها بلغت أقصى حالتها المتواضعة ووضع المسيح ثانية في معلف. وكانت هذه الكنيسة عبارة عن مجرّد غرفة تبلغ حوالي أربع أو خمس ياردات مربعة، جدرانها وسخة وأرضها غير مستوية؛ وسقفها مغطى بشجيرات لمنع العوامل الجوية. وفي جانبها الشرقي كان المذبح الذي بني بنفس مواد الجدار؛ غير أنه كان مبلطاً في الأعلى بقطع خزفية وألواح حجرية لإعطائه وجه المنضدة.

وفي جانبها الجنوبي لوح ثخين مدعوم بعمود، وقد فهمنا بأنه كان منبر القراءة، وكان بجانبه ثقب صغير قد حُفر بشكل ملائم عبر الجدار ليعطي نوراً للقارئ. مسكن فقير جداً لربّ السماء، ومع ذلك فقد تمّ اتخاذه باحترام ووقار كبيرين من قبل الفقراء؛ الذين يأتون هنا بأنفسهم بكل خشوع ويعطون كل شيء قيم بالنسبة لهم ليحصلوا به على مباركتهم.

الأربعاء 3 مارس: وافانا الصّباح التالي بالأمل بنهار لطيف بعد الأمطار الغزيرة التي هطلت لمدة ثمانية ساعات متواصلة. لذلك غامرنا بأن نغادر بلولكة Bellulca

(1) لعلّ هذا الموقع ينطبق في أيامنا على نواحي قرية جَبْرِيُون، من قرى حوض النهر الكبير الشمالي، تتبع ناحية البهلوية.

مع قليل من امتناننا لها لإضافتنا. ولكننا لم نبتعد كثيراً حتى بدأنا نتمنى لو احتفظنا بمكان إقامتنا السابق بالرغم من سوءه كما كان؛ لأن الأمطار بدأت بالهطول من جديد بغضب أكبر من السابق، ولم نكن مرتاحين تحت أقدامنا، حيث كان الطريق عميقاً جداً ومملوءاً بالوحل. قرّرنا على كل حال بأن نمشي قدماً أملين بوقت أحسن، وبعد أربع ساعات طويلة جداً في أحوال غير مريحة وصلنا إلى الشلفاطية⁽¹⁾، وهي قرية فقيرة واقعة على نهر صغير⁽²⁾ اضطررنا لاجتيازها. ولكن بسبب الأمطار الأخيرة ارتفعت مياه النهر إلى حدّ عالٍ جداً بحيث لا يمكن اجتيازها؛ بالرغم من أنه في أوقات أخرى كان عبارة عن جدول صغير، وفي الصيف يصبح جافاً كلياً.

وهنا عوضاً من أن نصلح وضعنا كما توقعنا، بدأنا نشرب بعمق أكثر من وعاء الحجاج المر. وبوصولنا إلى مثل هذه الصعوبة لم نعرف إلى أية جهة نوجه أنفسنا. لأنه كما قلت لم يكن بالإمكان خوض النهر، ولذلك لم يكن بالإمكان التقدّم إلى الأمام؛ والعودة إلى المكان الذي أتينا منه كان شيئاً كريهاً بالنسبة لنا جداً؛ لمعرفتنا جيداً بخبرة ذلك الصّباح رداءة الطريق؛ ولدينا أيضاً سبب للتوقع ترحيباً بارداً في نهاية رحلتنا. وبالنسبة للإقامة في القرية كان شيئاً لا يمكن تحمّله، لأن البيوت كانت جميعها ممتلئة بالأوساخ والقذر، ويسكنها القرويون مع أبقارهم دون تفريق. ولم نستطع الاستلقاء في العراء بسبب الأمطار الغزيرة التي كانت قد تسبّب لنا ولخيولنا خطراً واضحاً.

ولكن بينما كنا في هذه الحيرة وعلى غير هدى لأي اتجاه نتبع، خفّ المطر؛ فقرّرنا النزول إلى الحقل المفتوح بالرغم من أنه كان مبتلاً بالكامل، حيث اعتبرنا هذا التصرف على كل حال الأقل شراً. وبناءً على ذلك لجأنا إلى مرتفع صغير بجانب الماء، قاصدين هناك تحت خيمتنا انتظار جريان الساقية.

لم نهناً طويلاً بتوقف المطر، حيث بدأ ينصبّ مجدّداً مع برق ورعد مخيفين. وهنا

(1) الشلفاطية من قرى اللاذقية. وفي عصرنا عام 2000 تحولت إلى مركز بلدية تضم قرى الشلفاطية، دبا، ستّ خيرس، مزرعة اليغصنة.

(2) يعرف باسم: نهر القش، وهو فرع من نهر الكبير الشمالي.

تجدد اهتمامنا ولم نعلم جيداً بأي شيء يجب أن نكون مهتمين أكثر؛ هل هو أنفسنا، حيث تمتعنا بالراحة البائسة تحت خيمة تتساقط فوقنا، أم خدمنا وحيولنا الذين لم يكن لهم شيء سوى ملابسهم الخاصة لتحميهم.

وأخيراً كان هناك مزار شيخ صغير، أو ضريح، حيث مئنا أنفسنا بالأمل بأننا قد نتخذ ملجأ فيه. وكانت الصعوبة الوحيدة حول كيفية حصول الدخول إلى مثل هذا المكان الجليل؛ حيث أنّ الأتراك⁽¹⁾ بصورة عامة لديهم تعصب أكثر مما لديهم من الرحمة. أرسلنا لبحث هذا الموضوع إلى القرية تركيا كنا قد أخذناه معنا من أجل ظروف كهذه، حيث أمرناه بأن يحاول أولاً بأن يؤمن الدخول باللين، وإذا فشل ذلك بأن يهدد بأننا سندخل بالقوة. ولكن معتقدات هذا المكان كانت من النوع الذي يصد الإنسانية عوضاً من أن يدعمها. منعنا القوم كلياً من الإحسان القليل الذي طلبناه؛ وقالوا لنا إنهم ليموتوا بسيوفنا دون تدنيس عقيدتهم. وأضافوا أيضاً بأن عقيدتهم كانت لمحمد⁽²⁾ وعلي، بخلاف عمر وأبي بكر؛ وقرروا بأنهم يتمسكون بهذا المبدأ. وأعلمناهم بأننا لدينا فكرة عن عمر وأبي بكر كما يذكرون، وأنّ كل رغبتنا كانت بملجأ صغير يحميننا من المطر الحالية ولم يكن لدينا أي قصد بأن ندنس عقيدتهم.

وهكذا ببعض الكلمات الطيبة جعلناهم يوافقون بأن نؤمن أمتعتنا في مزار الشيخ؛ أما بالنسبة لأنفسنا وأسلحتنا فكان حكمنا الذي لا رجوع عنه بأن نكون خارج الجدران المقدسة. كنا مسرورين على كل حال بأن تكون لنا الأبواب غير الرحيمة مفتوحة تحت أية شروط. وبغير شك كان يجب علينا أن نغتنم فرصتنا فيما بعد حسب رغبتنا، وفعلاً اغتبنّاها؛ إذ عندما خيم الظلام وذهب القريون للنوم ذهبنا جميعاً إلى المأوى وقضينا هناك ليلة كثيفة بين القبور، حيث نجونا على كل حال من الشر الكبير للأمطار التي هطلت طوال الليل بسخاء كبير.

(1) كان الرحالون الأوروبيون آنذاك يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السلطنة العثمانية من المسلمين إجمالاً. لكنه هنا يتحدث عن العلويين.

(2) رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بما أننا زحفنا الآن إلى داخل مزار الشيخ فينبغي لي ألا أغفل، محاباةً لمنزلنا، إدراج بعض الوصف لطبيعة هذه الأبنية. إنها أبنية حجرية تبلغ عادة ست أو ثمانية ياردات مربعة تقريباً ومسقوفة بقبة مبنية فوق قبور قديسيهم.

يوجد كثير من هذه الأبنية موزعة في أرجاء الريف، حيث ستجد بين الأتراك قديسين موتى أكثر من الذين على قيد الحياة. وهم متمركزون بصورة عامة وليس دائماً، على المرتفعات البارزة والواضحة. يتجه الناس إلى هذه المصليات بندورهم وصلواتهم في كوارثهم العديدة، وذلك وفق الطريقة التي كان يتبعها الرومان في مقامات قديسيهم. وفي هذا المجال فقط فإن تصرّف الأتراك يبدو متشددًا أكثر، وذلك بالرغم من أنهم يجعلون مقام قديسيهم بيتاً للصلاة، فإنهم دائماً يتجهون لله فقط، وليس القديس، بمخاطباتهم.

الخميس 4 مارس: لإنعاشنا بعد ثقل الليلة الماضية جرت مواساتنا بأنه جرى إعلامنا هذا الصباح بأن النهر كان يمكن اجتيازه بعد مسافة قليلة؛ وبالنسبة لخبرتنا وجدنا ذلك حقيقة كما قيل لنا. مسرورين بهذا الاكتشاف، قمنا بأحسن انطلاق لتخلّص من هذا المكان غير المضياف؛ وحسب رغباتنا وصلنا بعد وقت قليل مع جميع أمتعتنا إلى الجانب الآخر من النهر.

صعدنا من هنا بلطف لمدة حوالي نصف ساعة، فوصلنا إلى أسفل تلة منحدرية جداً، وعندما وصلنا إلى قمّتها قدمت لنا أول منظر للبحر. كما رأينا على حوالي مسافة ساعتين باتجاه الغرب مدينة اللاذقية واقعة على أرض منبسطة مثمرة قرب البحر؛ وهي مدينة بناها أولاً سلوقس نيكاتور وسماها على شرف أمّه «لاوديقيّا» Laodicea، وهو الاسم الذي تحتفظ به مع شيء قليل من التحريف حتى هذا اليوم. وكانت منذ القدم مكاناً ذا فخامة كبيرة؛ ولكن بسبب النكبة العامة التي حلّت بهذا البلد فقد انحطت إلى وضعيّة وضعيّة جداً وبقيت هكذا لمدة طويلة؛ ولكنها في السنوات الأخيرة قد شُجعت لترفع رأسها ثانية وجرى إعادة بنائها وأصبحت من أكثر الأماكن المزدهرة على الساحل؛ وقد أحيا ذكراها ووضعها على طريق التجارة قبلان آغا، وهو رجل ذو

ثروة كبيرة وسلطة في هذه الأماكن ومولع بالتجارة.

نزلنا قليلاً من التلة التي صعدناها مؤخراً إلى سهل فسيح حيث سافرنا خلاله نحو الجنوب وكان البحر على جانبنا الأيمن وسلسلة من الجبال على الجانب الأيسر. وبعد سيرنا حوالي ساعة ونصف في هذا السهل رأينا على الجانب الأيسر وغير بعيد عن الطريق ضريحين. كانا عبارة عن ناووسين من الحجر كل منهما بطول ياردين ونصف. وكان كل من تجويفهما مغطى بقطعة حجرية قد تمت إزاحتها جانباً ربما بأمل وجود كنز. وقد كان منحوتاً من الخارج على الناووسين رؤوس ثيران وأكاليل معلقة بينها وفق تزيين المذابح الوثنية. وكان عليها سابقاً كتابات محفورة ولكنها كانت متآكلة بشكل لا يستطيع المرء أن يكتشف شكل الحروف.

وكان يوجد هنا أيضاً أساسات لأبنية عدة، ولكنني لا أستطيع أن أقرر فيما إذا كان يوجد أي مكان جدير بالملاحظة متمركزاً في هذه النواحي.

بعد ساعة من هذه الأضرحة وصلنا إلى جدول آخر أوقف مسيرتنا ثانية. هذه الأنهار الجبلية هي بصورة طبيعية غير كبيرة؛ ولكنها عرضة لأن تزداد عند هطول أمطار مفاجئة وتسبب بهلاك كثير من المسافرين الذين سيكونون جريئين إن هم خاطروا دون نصح فوق هذه الأنهار. ولقد توخينا حذراً مفيداً أكثر في هذا المكان؛ ولدى مشينا حوالي ساعة أعلى بجانب الجدول وجدنا مكاناً حيث أضحت المياه بتوسعها ضحلة أكثر، وهناك ظفرنا بممر آمن إلى الجانب الآخر. ومن هنالك ملنا بطريقنا لنستعيد طريقنا السابق ثانية؛ ولكننا لم نمض بعيداً حتى بدأت عاصفة برد عنيفة جداً تبعها مطر عنيف أجبرنا على أن نستفيد من طريقنا إلى جيلة تاركين أمتعنا لتلحق بنا على راحتها.

كان كامل مشوارنا هذا اليوم لمدة ست ساعات، حيث اتجهنا غرباً خلال الساعة الأولى واتجهنا جنوباً بالنسبة للمدة الباقية، حيث كان البحر على يدا اليمنى وسلسلة من الجبال على بعد حوالي ساعتين على اليسار. واستمر طريقنا على هذه الحالة لمدة عدة أيام فيما بعد دون أي اختلاف، عدا عن أن الجبال في بعض الأماكن كانت تقترب أكثر من البحر؛ وفي أماكن أخرى تبتعد عنه أكثر. وكانت هذه الجبال تمتد تحت أسماء

مختلفة في أماكن عدة على طول الساحل ويقطنها أناس أجلاف ذوو طوائف متعددة.
الجمعة 5 مارس: أمضينا كامل هذا اليوم في جَبلة لنجهز أنفسنا بعد متاعبنا الأخيرة؛
حيث كنا نتمتع براحة خان جديد بني عند المدخل الشّمالي للمدينة، بناه أوستان⁽¹⁾
Ostan باشا حاكم طرابلس الحالي.

تقع جبلة بجانب البحر، ولها سهل واسع مثمر يمتدّ حولها وفي جوانبها الأخرى.
وهي ذات مظهر زرّي في الوقت الحاضر؛ بالرّغم من أنها لا تزال تحتفظ بشهرة
المدينة، ولا تزال تكشف عن آثار أقدام واضحة لأحوال أفضل في الأيام السّابقة. إن
اسمها القديم الذي يشتقّ منه أيضاً اسمها الحالي كان جبالا Gabala؛ ومثل هذا الاسم
حدث لسترابو ولجغرافيين قدماء آخرين. وفي زمن الأباطرة اليونان قد جرى تكريمها
بمركز رئاسة الأسقف؛ حيث جلس فيها أحياناً سيفيريان Severian الخصم الكبير
المتآمر ضد القديس يوحنا فم الذهب Chrysostom.

إن الأشياء الجديرة بالملاحظة والتي تظهر هنا في اليوم الحاضر هي مسجد وبجانبه
بيت صدقات أو إحسان، وكلاهما جرى بناؤهما من قبل السلطان إبراهيم. حيث
كان مدفوناً في البناء الأول وسُمح لنا بالدخول لنرى ضريحه بالرّغم من أن الأتراك
احتفظوا به بوقار كبير. فوجدناه عبارة عن صندوق خشبي كبير مرّكب فوق قبره ومغطى
بسجادة من الخام المدهون تمتدّ وتتدلّى إلى الأرض في جميع الجوانب. وهو مبهرج
أيضاً بمسابح خشبية كثيرة وطويلة تتدلّى عليه، وهو يشبه إلى حدّ ما محتوى دكان
بائع الأزرار. وهذه هي الطّريقة المعتادة للأتراك لتزيين أضرحة رجالهم القديسين كما
سبق ورأيت في عدة مجالات أخرى. إن المسابح الطويلة في هذا البلد هي إشارات
لخشوع ووقار كبيرين. ورأينا في هذا المسجد عدّة مباخر كبيرة وشمعدانات للمنابر
وفرش كنائس آخر، كانت غنائم من كنائس مسيحية لدى احتلال قبرص.

ويوجد حَمَام جميل جداً قرب المسجد، كما توجد بَيّارة صغيرة من أشجار

(1) الصّواب في الاسم كما سنفضّل أدناه: أرسلان باشا المَطَرَه جي، والي طرابلس بين عام
1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

البرتقال؛ حيث تعودّ المسافرون بأن ينصبوا خيامهم تحت ظلالها في وقت الصيف .

قام الأتراك الذين كانوا أدلاءنا في الجامع بتسليتنا بقصة طويلة عن السلطان إبراهيم هذا الذي كان مدفوناً هناك؛ وتعرضوا خاصة لموته وزهده في الدنيا. وذكروا بما أنه جرّد نفسه من أملاكه الملكية تقاعد إلى هنا وعاش عشرين عاماً في كهف على الساحل مكرساً نفسه كلياً للفقر والعبادة، ولكي يثبتوا صدق مقالتهم تظاهروا بأن يأخذونا إلى نفس الكهف الذي سكن فيه. وبمجيئنا إلى المكان وجدنا هناك كثرة من القبور المنحوتة في الصّخور على الساحل، وذلك وفق الطّريقة القديمة للدفن في هذا البلد. ومن بين هذه القبور أظهرنا لنا قبراً أكدوا بأنه نفس المكان الذي مارس فيه السلطان المتعبد سنواته العشرين من الترويض.

ولإضافة احتمال صغير إلى القصة، أرونا على مسافة قريبة كهفاً آخر أكبر من أمثاله بمرتين ومفتوح في الأعلى، وكان له ثلاثة محاريب أو كوى للصلاة محفورة في جانبه الجنوبي. وهذا كان مصلّى السلطان إبراهيم⁽¹⁾، حيث كانت هذه دائماً طريقة الأتراك بأن يصنعوا مثل هذه المحاريب في جوامعهم وفي أماكن أخرى للعبادة لبيان الجهة الجنوبية من العالم، حيث أن المسلمين بهذه الطّريقة ملزمون بأن يوجهوا وجوههم عندما يصلّون إلى الجهة الجنوبية احتراماً لضريح نبيهم. هذه المحاريب يجري إحداثها دائماً بشكل يشبه تلك التي كانت تصنع للتماثيل عادة في كل من قياسها ومادتها وحالتها.

كنتُ في بعض الأحيان أنفكر لأيّ سبب ينبغي للأتراك أن يحدّدوا مثل هذه العلامات ليوجهوا وجوههم في الصلاة. وإذا جاز لي أن أتكهّن فإنني لأعتقد بأنهم قد فعلوا ذلك مبدئياً لبيّنتوا كرههم للصّور، ولعتبروا عن كل من حقيقة الوجود الإلهي هناك وفي نفس الوقت أيضاً عن عدم رؤيته. إن رواية هذه القصة عن السلطان إبراهيم كانوا بغير شك مقتنعين كلياً بحقيقتها. ولكننا لم نستطع الجزم بأية مصداقية لها، حيث أننا لم نلتق أبداً بأية قصة عن سلطان كهذا، فقط من هذه القصص المتوارثة البدائية.

(1) هذه الرواية برمتها عن السلطان إبراهيم من بنات خيال أهل المنطقة.

من هذه المعابد الإسلامية تظاهر دليلنا بأن يأخذنا إلى كنيسة مسيحية تبعد حوالي 400 متر خارج المدينة على الجانب الجنوبي. ولما وصلنا إليها وجدناها لا أكثر من كهف في الصخر على ساحل البحر مفتوح على الجانب نحو البحر، وفيه كومة من الأحجار الخشنة مبنية فيه لتكون مذبحاً. ولدى رجوعنا من هذا المعبد الفقير اجتمعنا بالشخص الذي كان كاهنه، فأخبرنا بأنه هو نفسه وبعض المسيحيين الآخرين من المجتمع اليوناني كانوا معتادين بأن يجتمعوا في هذه الخلية المتواضعة للصلاة الإلهية، حيث أنهم غير مسموح لهم بأن يكون لهم مكان للعبادة ضمن المدينة.

تبدو جيلة بأنها كان لها منذ القدم وضع ملائم للملاحة. ولا تزال تُرى سلسلة آكام مؤلفة من أحجار ضخمة مربعة تمتد قليلاً إلى البحر، وتبدو بأنها كانت سابقاً تمتد أكثر وقد عملت رصيفاً، وبالقرب من هذا المكان رأينا أعمدة كبيرة كثيرة من الغرانيت، كان بعضها بجانب الماء وبعضها الآخر قد غطس في الماء. وكانت أعمدة أخرى في حديقة قريبة مع تيجان أعمدة من الرّخام الأبيض منحوتة بدقة؛ تشهد إلى حدّ ما على البهاء القديم لهذه المدينة.

ولكن أهمّ أثر قديم في جيلة وأكبر تذكّار لسموّها السابق هي بقايا مسرح جليل عند البوابة الشماليّة للمدينة، يعتبره الأتراك قلعة قديمة.

وما تبقى من هذا البناء البابلي الضخم لا يتجاوز ارتفاعه عشرين قدماً. وجانبه المنبسط قد جرى نسفه بالبارود من قبل الأتراك. ومن هنا، كما قيل، قد أخذت كمّيات كبيرة من الرّخام التي رأيناها مستعملة في تزيين حمّامهم ومسجدهم المذكور سابقاً. وكل ما هو الآن قائم منه هو نصف دائرة تمتد من الزاوية إلى الزاوية حوالي مئة يارد. وفي هذا الجزء نصف الدائري يوجد صف لسبع عشرة نافذة مستديرة فوق الأرض مباشرة، وقد رُفعت في جميع الاتجاهات على قواعد عالية أعمدة كبيرة ضخمة قائمة كدعامات مقابل الجدار وذلك من أجل قوة البناء وتزيينه، ولكن معظم هذه الدعامات الآن محطمة.

وفي الدّاخل توجد ساحة كبيرة لم يكن بالإمكان أخذ قياسها المضبوط، وذلك

بسبب البيوت التي كوّمها الأتراك فيها. وعلى الجانب الغربي لا تزال مقاعد المتفرجين كاملة، كما هو الوضع بالنسبة للسرديد التي تمتدّ تحت المقاعد حول المسرح. وتبلغ سماكة الجدار الخارجي ثلاثة ياردات وثلاثة أرباع اليارد، وهو مبني بأحجار كبيرة جداً وقوية، وهذه القوة الكبيرة قد حفظته لهذه المدة الطويلة من عوادي الزمن، ومن ذلك الخراب العام الذي يجلبه الأتراك معهم إلى معظم الأمكنة التي يأتون إليها.

السبت 6 مارس: انتهينا من جولة وانطلقنا ثانية باكراً في الصباح التالي مع أملنا بطقس أفضل بكثير مما واجهنا في تحرّكاتنا السابقة. تابعنا طريقنا على ساحل البحر، وفي حوالي ساعتين وصلنا إلى نهر عميق لطيف يسمّيه الأتراك نهر الملك Naher-il-Melech. فرأينا هنا بعض الأكوام من الآثار على جانبي النهر مع عدّة أعمدة من الغرانيت، وعلامات أخرى لمبانٍ كثيرة. وبعد حوالي نصف ساعة مررنا على نهر آخر يسمّى جوبر ويظهر بقايا جسر حجري فوقه كان يوماً مبنياً بناءً حسناً، ولكن الآن محطم. وعلى الجانب الآخر من النهر وفي حقل محروث كبير كان يوجد برج عظيم مربع وحوله قمامة كثيرة من الأبنية الأخرى.

لاحظنا أيضاً عبر رحلة هذا اليوم آثاراً كثيرة لقلاع وبيوت تشهد بأن هذا البلد، بالرغم من إهماله في الوقت الحاضر، كان مرةً بأيدي شعب عرف كيف يقيّمه وفكر بأنه جدير بالدفاع عنه. ومن ثمّ مررنا إلى بانياس. وهذا المكان يقع على بعد أربع ساعات كاملة بعد جبلة. وهي تقع على منحدر صغير يبعد حوالي 200 متر من البحر وفيها جدول ظريف ونقي يجري بسرعة على الجانب الجنوبي، وهي في الوقت الحاضر غير مأهولة، لكن وضعها يدلّ على أنها كانت قديماً مكان سكن متفوق. وفي هذا المكان كان من المطلوب إتاوة (خفارة) caphar أخرى.

غادرنا بانياس وتابعنا مسيرتنا على ساحل البحر، وخلال حوالي ربع ساعة مررنا بقلعة قديمة على رأس جبل عالٍ جداً. وهي مبنية على شكل مثلث متساوي الأضلاع تشير إحدى زواياه نحو البحر. والأتراك يسمونها المرقب؛ وهي ذات قيمة كبيرة جداً لدى الحضارات التي شهدت في الأزمنة السالفة، ولكن مهما كانت القوة التي تملكها

قديمًا، فهي في الوقت الحاضر مجرد مسكن للزُفّيين الفقراء. هذه ربما نفس القلعة التي ذكرها أدريكو ميوس وآخرون تحت اسم مرغاث Margath؛ التي أُجبر أساقفة بلانيا Balanea على أن يحولوا مراكزهم إليها بسبب تعديّات المسلمين.

وبعد مسافة حوالي ساعة ونصف من بانياس، وصلنا إلى جدول صافٍ صغير أغرانا بأن نقيم بقربه. ضربنا خيامنا في الحقول المفتوحة التي كانت تقع على ارتفاع حوالي 400 إلى 600 متر فوق سطح البحر؛ وكان في مرمى نظرنا على الجبال فوقنا قرية تدعى ضَهر صَفرا⁽¹⁾ Sophia، يسكنها موارنة فقط؛ وكانت على بُعد قليل بَرّاق⁽²⁾ Besack وهي قرية يملكها الأتراك وحدهم؛ وعلى مسافة قليلة منها كانت مَرّية⁽³⁾ Merakia التي كان سكانها خليطاً من المسيحيين والأتراك سوية. وكامل مشوارنا في هذا اليوم كان حوالي ست ساعات.

الأحد 7 مارس: تحرّكنا من هذه المنطقة باكراً في الصّباح التالي. وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى نهر عميق لا بأس به يدعى نهر حسين Nahor Hussine؛ وكان فوقه جسر مؤلف من قوس واحد فقط ولكنه كان كبيراً جداً ومشيداً بصورة حسنة للغاية. وتابعنا سفرنا على شاطئ البحر لمدة ساعة ونصف فوصلنا إلى طرطوس.

إن الاسم القديم لهذا المكان كان أورثوزيا Orthosia، وكان مركز الأسقف في محافظة صور. وكُتّاب الحروب المقدّسة يذكرونها مراراً بأنها مكان ذو حصانة كبيرة، ويمكن للمرء أن يغامر ويصدّقهم من خلال ما تبدو عليه اليوم.

يقع موقعها على ساحل البحر؛ ولها سهل واسع يمتد حولها من جوانبها الأخرى. وما تبقى منها هي القلعة التي هي كبيرة جداً ولا تزال مسكونة. ويغسلها البحر على

(1) يسمّيها موندل: صوفيا، وهو غلط بالطبع.

(2) تقع قرية بَرّاق إلى الجنوب من ضَهر صفرا في محافظة طرطوس، ولكره أهلها لاسمها بدّلوه في عصرنا إلى: الرّوضة، لجمال طبيعتها. ومعنى اسمها القديم بَرّاق: بيت الخمر.

(3) ظن دايفيد هويل أنّ موندل يقصد بالتسمية اللاتينية قرية المقيرية، لكن الصواب هو مَرّية التي تقع بين طرطوس وبانياس إلى الجنوب من بَرّاق (الرّوضة).

جانب منها؛ وهي من الجانب الآخر محصنة بجدار مزدوج من الرّخام الخشن مبني على الطريقة الرّيفية. ويوجد بين الجدارين خندق؛ كما يوجد خندق آخر يحيط بالجدار الخارجي. يمكنك أن تدخل هذه القلعة من الجانب الشمالي وذلك فوق جسر قابل للسّحب يوصلك إلى غرفة واسعة القسم الأكبر منها الآن غير مغطى، ولكن كانت قديماً مغطاة بأقواس بصورة حسنة، حيث كانت الكنيسة الخاصة بالقلعة. إنها تشبه الكنيسة على أحد الجوانب وكشهادة على أنها كانت كنيسة فهي تُظهر في هذا اليوم رموزاً مقدّسة متعدّدة محفورة على جدرانها كحمامة نازلة فوق المكان الذي كان فيه المذبح، وفي مكان آخر يوجد رمز للحمل المقدّس. ولكن على الجانب الذي يواجه الخارج يوجد وجه قلعة ذات ثقب للمدفعية عوضاً عن النوافذ.

وحول القلعة على الجانب الجنوبي والشرقي تتوضع المدينة القديمة - التي كان لها جدار جيّد وخندق يحيط به ولا يزال منهما باقياً قسمٌ كبير. ولكن بالنسبة للأبنية أخرى فلا يوجد الآن أي شيء باق فيها، عدا كنيسة تقع على بُعد حوالي مئتي متر شرقاً من القلعة، طولها مئة وثلاثون قدماً وعرضها ثلاثة وتسعون قدماً وارتفاعها واحد وستون قدماً. وجدرانها وأقواسها وأعمدتها كانت من الرّخام غير الطّبيعي وجميعها لا تزال كاملة، بحيث أن نفقة صغيرة ستكون كافية لإرجاعها ثانية إلى وضعيّة كنيسة جميلة. ولكن لحزن أي شخص يعتنق المسيحية فإنهم جعلوها الآن مربطاً للأبقار، وعندما ذهبنا لنراها أصبحنا تقريباً إلى ركبنا في الأوساخ والوحل.



ومن طرطوس أرسلنا أمتعنا قبلنا مع الأوامر بالتقدّم عدة أميال أكثر نحو طرابلس، بقصد أننا يمكن أن نقصر رحلتنا إلى ذلك المكان في اليوم التالي. تابعنا سيرنا وبعد وقت قليل حوالي ربع ساعة وصلنا إلى نهر أوبال أخرى مجرى نهر لأنه كان الآن تقريباً جافاً. ومما لا يدعو للسؤال هنا أنه كان قديماً جدولاً غير كبير؛ وذلك بما يمكن أن نستنتجه من كلّ من حجم القناة وبقايا جسر حجري وضع سابقاً فوقه.

وبعد حوالي نصف ساعة أتينا إلى مواجه جزيرة صغيرة تبعد عن الساحل حوالي

ثلاثة أميال ويدعوها الأتراك أرواد. ومن المعتقد أنها هي أرفاد أو أرباد القديمة التي لها عدّة أسماء. ويبدو طولها للعين بأنها ليست أكثر من أربعمئة أو ستمئة متر، وكانت مكتظة كلياً بأبنية عالية تشبه القلاع. وكان السّكان القدامى لهذه الجزيرة مشهورون بالملاحة، وكانت لهم القيادة على البرّ حتى جبلة.

وبعد حوالي ربع ساعة وصلنا مع بغالنا؛ الذين كانوا قد ضربوا خيامنا قبل أن يذهبوا إلى حيث قصدنا. ولكنهم عوّضوا عن سوء الحمل هذا بطبيعة المكان حيث توقفوا، لأنه قدّم لنا تسلية برؤية عدة آثار قديمة جديرة بالملاحظة، والتي كان من الممكن أن نمرّ بها دون أن نلاحظها. وكان ذلك في بقعة أرض خضراء مستوية تقع على بعد ساعة من طرطوس وياتجاه الجنوب من أرا دوس (أرواد)، وحوالي ربع ميل من البحر. وكان فيها ينبوع جيد بالرغم من اسمه السيء، إذ كان يدعى عين الحية The Serpent Fountain.

وكان أول أثر قديم لاحظناه خندقاً كبيراً بعرض ثلاثين يارداً من الأعلى محفور في الصّخر الصّلب. وانحدرت جوانبه بدرجات من الصّخر الطّبيعي، وهو ينزل تدريجياً من الأعلى إلى الأسفل. وقد امتدّ هذا الخندق بخط مستقيم شرقاً وغرباً لأكثر من مئتي متر، ولا يزال يحمل نفس عدد الدّرجات الممتدة بخطوط مستقيمة على طول جميع جوانبه. وانقطع أخيراً في أرض مسطحة مستنقعية، تمتدّ حوالي أربعمئة متر بينها وبين البحر. ومن الصّعب أن نتصوّر أن الماء قد جرى بزمانه إلى هذا الارتفاع؛ ومن الأصعب أن نقرّر لأيّ سبب بُذل هذا الجهد كله لحفر الصّخر بهذه الطّريقة. كان هذا الخندق على الجانب الشّمالي لعين الحية؛ وتامماً على الجانب الآخر منه رأينا عن بُعد أثراً قديماً آخر أثار ملاحظتنا.

كانت توجد باحة مساحتها حوالي خمسة وخمسين يارداً مربعاً، قُدّت في الصّخر الطّبيعي، وكانت جوانب الصّخر المحيطة بها بارتفاع ثلاثة ياردات. وهي محاطة على جوانبها الثلاثة، ولكنها كانت مفتوحة من الجانب الشّمالي في وسط هذه المنطقة، كانت لا تزال قطعة من الصّخر موجودة بارتفاع ثلاثة ياردات وخمسة ياردات ونصف

مربعة. وكانت هذه كقاعدة لعرش رُكِب عليها. وكان العرش مؤلفاً من أربعة أحجار كبيرة: اثنين على الجانبين وواحد في الخلف وحجر آخر في الأعلى بشكل مظلة. وكان ارتفاع التركيبة كلها حوالي عشرين قدماً متجهة نحو ذلك الجانب حيث كانت الساحة مفتوحة. وكان الحجر الذي صنعت منه المظلة خمسة ياردات وثلاثة أرباع اليارد مربعة، وكان محفوراً بإفريز أنيق.

ولم نستطع أن نتصور لماذا جرى تصميم كل هذا البناء؛ إلا ربما أن الساحة كانت معبداً وثنياءً، وكانت الكومة في الوسط لعرش الصنم؛ حيث هذا يبدو الأكثر احتمالاً، وبخصوص أن هرقل، أي الشمس، البغيض الأكبر للفينيقيين، كان معتاداً بأن يُعبد في معبد مكشوف. وفي الزوايا الداخلية للساحة وكذلك على الجانب المكشوف كانت توجد أعمدة من الصخر الطبيعي؛ ثلاثة في كل زاوية من الزوايا السابقة واثنان في الزوايا اللاحقة.

وعلى بُعد حوالي نصف ميل إلى جنوب الآثار القديمة السابق ذكرها، كان يوجد على مرمى النظر بُرجان، ولكن بحلول الظلام أجبرنا بأن نؤجل فحصنا لهما حتى الصباح التالي. وكامل مشوارنا في هذا اليوم لم يتجاوز ست ساعات.

الاثنين 8 مارس: بما أننا قضينا ليلة غير مريحة في أرض مستنقعية وغير صحية، فقد استيقظنا باكراً لنأخذ منظرأً أقرب للبرجين المذكورين سابقاً. فوجدناهما تذكارين قبريين منصوبين فوق تربتين. وكانا يبعدان بعضهما عن الآخر حوالي عشرة ياردات.

وكان ارتفاع البرج حوالي ثلاثة وثلاثين قدماً، وأطول حجر فيه كان بارتفاع عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً مربعاً؛ وكان البناء العلوي الذي كان فوقه أولاً حجر طویل بشكل أسطوانة، ومن ثم حجر آخر مقطوع على شكل هرم.

وكان ارتفاع البرج الآخر ثلاثين قدماً وإنشين. وكان ارتفاع قاعدة هذا البرج ستة أقدام ومساحته ستة عشر قدماً وستة إنشات مربعة. وكان مدعوماً بأربع أسود الواحد منها محفور في كل زاوية من القاعدة. وكان الحفر خشناً جداً ولكنه أصبح مع الزمن

أسوأ بكثير. وكان القسم الأعلى الموضوع في خلف القاعدة حجراً واحداً.

وكان تحت كل من هذه المداخل إليها على الجانب الجنوبي. وكلفنا الدّخول إليه بعض الوقت والجهد؛ وقد عرقلت الطّرقات أعشاب وأوساخ، وعلى كل حال أزلنا هذه العوائق مشجعين أنفسنا بالأمال أو بالحريّ جعلنا أنفسنا فرحين بكنز مخبأ. ولكن حالما دخلنا إلى السّراديب وجدنا بأن تصوراتنا الذهنية قد انتهت كما تنتهي جميع الآمال والمشاريع الدّنيوية أخيراً بالغبار والعناء. ولكن على كل حال لا يمكن لذلك أن ينتهي بغير تعويض لأتعبنا، فحصلنا على مسح مضبوط بقدر ما استطعنا لغرف الظلام هذه.

بالنزول سبع أو ثمان درجات، تصل إلى فتحة القبر؛ ثم بالزحف إلى داخله تبلغ غرفة عرضها تسعة أقدام وإنشان وطولها أحد عشر قدماً. بالذهاب إلى اليمين وبالدخول عبر ممّر ضيق، تصل إلى غرفة عرضها ثمانية أقدام وطولها عشرة أقدام. ويوجد في هذه الغرفة سبعة معازب للجثث، أي اثنتان فوق ومقابل المدخل، وأربعة على جهة اليسار وواحدة غير منتهية إلى اليمين. ونُحتت هذه الزّنانات مباشرة في الصّخر الصّلب. قمنا بقياس عدة منها فوجدناها ثمانية أقدام ونصف طولاً وثلاثة أقدام وثلاثة إنشات مساحة مربعة. وإنني لا أستتج من ذلك بأن الجثث المدفونة هنا كانت ذات قياس ضخّم بحيث تملأ توابيت كهذه. بالرّغم من ذلك وفي الوقت ذاته، لماذا ينبغي لأي رجال بأن يكونوا مسرفين إلى هذا الحدّ بعملهم، فينحتون هذه الكهوف في صخر صلب كهذا، أكثر بكثير ممّا تتطلبه الضرورة؟

وفي الجانب الآخر من الغرفة ثمة ممّر ضيق بطول سبعة أقدام يؤدّي إلى الغرفة التي كانت أبعادها تسعة أقدام عرضاً واثني عشر قدماً طولاً. وكان فيها إحدى عشرة زنّانة ذات قياس أقل من السّابقات وتوزع على مسافات متساوية حولها.

وبالخروج من غرفة في الأمام تجد مدخلين ضيقين كل منهما بطول سبعة أقدام يقود إلى غرفة. وكانت هذه الشّقة تسعة أقدام مربعة؛ ولم يكن فيها معازب كالأخريات ولا أيّ شيء آخر جدير بالانتباه؛ ولم يكن سوى مقعد منحوت على طول جانبها على

الجهة اليسرى. ومن وصف هذا الضريح من السهل أن نتصور ترتيب الآخر. وكان ارتفاع الغرف في كليهما حوالي ستة أقدام؛ وكانت الأبراج مبنية كل منها فوق أقصى داخل غرفة الأضرحة الخاصة بها.

وعلى بعد حوالي سبعة أقدام من هذا المكان أبصرنا برجاً آخر يشبه هذا الذي وصفناه مؤخراً، وكان مبنياً بصورة مشابهة فوق ضريح، وكان من الملاحظ هذه الغرابة في هذا الضريح الأخير؛ حيث كانت معزبة محفورة في الصخر بطول ثمانية عشر قدماً، وذلك ربما بقصد أن تدفن في كل منها جثمان أو ثلاث جثث. ولكن بما أنه كان لدينا مشوار طويل هذا اليوم إلى طرابلس، فقد فكرنا بأنه ليس من الموافق أن نمضي أي وقت آخر في هذا المكان الذي كان من الممكن أن يقدم لنا عدة معالم أثرية أخرى.

ولكن بالرغم من سرعتنا كلها لم نبتعد بأكثر من ميل حتى استوقفت فضولنا ثانية ملاحظة برج آخر، ظهر في أكمة ليست بعيدة من جانب الطريق. كان ارتفاعه ثلاثة وثلاثين قدماً ونصف، ومساحته واحداً وثلاثين قدماً مربعاً. وكان مؤلفاً من أحجار مربعة ضخمة ومزخرفة بإفريز أنيق حول الأعلى كله. كان يحوي على غرفتين فقط واحدة فوق الأخرى. وكان يوجد لكل منهما مدخل على الجانب الشمالي عبر حفرتين مربعتين في الجدار. إن الفصل بين كل من الغرفتين، وأيضاً الغطاء في الأعلى، لم يكن مصنوعاً بمداميك مقوسنة، بل بأحجار واسعة منبسطة سمكها أربعة أقدام وواسعة بشكل كبير بحيث كان اثنان منهما فقط في كل مكان كافيين لتغطية كامل البناء. وهذا البناء قديم جداً وربما كان موضع ضريح.

ينبغي لي ألا أنسى بأنه حوالي عين الحية The Serpent Fountain، وأيضاً على بعد هذا البرج الأخير رأينا كثيراً من القبور والبنائيع القديمة، وآثارات أخرى يمكن أن نستنتج منها بكل تأكيد بأنه كانت هنا منطقة سكن في الأزمنة الغابرة.

لدى مغادرتنا هذه الآثار دخلنا إلى سهل فسيح يمتد بعرض واسع بين البحر والجبال، وطوله يصل تقريباً إلى طرابلس. وسكان البلد يدعونه جونية Junia أي السهل؛ وهم يطلقون عليه هذا الاسم بسبب اتساعه وامتداده الواسع. استغرقتنا سبع

ساعات كاملة في اجتيازها، ووجدناه على طولها كله مثمراً بشكل وفير للغاية، وذلك بسبب أنهاره الكثيرة والماء الغزير الذي يتمتع به. والنهر الأول من هذه الأنهار يقع على بُعد حوالي ست ساعات قبل أن تصل إلى طرابلس. وله فوقه جسرٌ ذو ثلاثة أقواس كبيرة، وهو أكبر نهر في كل السهل ولهذا السبب يسمّى بالنهر الكبير⁽¹⁾.

وبعد حوالي نصف ساعة تصل إلى نهر آخر يسمّى نهر الأبرش⁽²⁾ (ومعناه: الأبرص⁽³⁾) Nahor Abrosh، وبعد ثلاثة أرباع الساعة تصل إلى نهر ثالث يسمّى نهر عكار Nahor Acchar، وله جسر حجري أنيق ذو قوس كبير مشيد عليه. وبعد ساعتين كاملتين تصل إلى نهر رابع يسمّى نهر البارد Nahor el Bered ذي جسر له ثلاثة أقواس فوقه. ومن هنا وبعد ساعتين كاملتين تصل إلى طرابلس.

الثلاثاء 9 مارس: باتجاهنا نحو طرابلس كان بغالونا خائفين من أن يتقدموا خشية أن يتم إجبار حيواناتهم على السخرة العامة. حيث حصل لهم ذلك فيما بعد بالرغم من كل حذرهم، مما أثار غيظنا الكبير. وهكذا تركناهم في سهل جونية Junia وتابعا مسيرتنا نحو طرابلس، التي وصلناها حوالي غروب الشمس. وكان كامل مشوارنا في هذا اليوم لمدة عشر ساعات.

استرحنا في طرابلس أسبوعاً كاملاً، حيث جرى الاحتفاء بنا بكرم كثير من قبل القنصل مستر فرانسيس هيستينغز Francis Hastings والتاجر مستر جون فيشر John Fisher اللذين كان داراهما البيتين الإنكليزيين الوحيديين في طرابلس.

تقع طرابلس على بُعد حوالي نصف ساعة من البحر. ويقع القسم الأكبر من المدينة

(1) أي النهر الكبير الشمالي.

(2) نهر الأبرش نهر ساحلي يجري في محافظة طرطوس، طولها حوالي 45 كم، ويتشكل من اجتماع عدّة ينابيع سيلية في المنطقة الجنوبية لجبال اللاذقية، أهمها: العديدة، الشيخ حسن، البحاص، النهر الصغير. وترفده في مجراه الأوسط عدّة ينابيع أهمها: عين سركيس، عين مريزة، عيون الغار، وادي القرناصة، وادي الكروم.

(3) هذا ليس بصحيح، فالأبرش لا يعني الأبرص في العربية.

بين تلتين؛ إحداهما في الشرق عليها قلعة تتحكّم بالمكان؛ والأخرى في الغرب بين المدينة والبحر. ويقال إن هذه التلة الأخيرة قد نُصبت أولاً ولا تزال تزداد بالصعود اليومي للزّمل الذي يسفو إليها من الشّاطىء، وثمة تنبؤ بأن كامل المدينة مع الزّمن ستطمرها هذه التلة الرّملية. ولكن يبدو بأن الأتراك ليسوا سريعي الفهم لهذا التكهّن؛ لأنهم بدلاً من أن يمنعوا نموّ التلة فقد تركوها تأخذ مجراها وجعلوها مرتعاً للترّفة والانشراح ولم يكن لديهم رغبة فعلية للقيام بذلك، ولم يدركوا أنها ستكون يوماً ما قبراً لهم.

الأربعاء 10 مارس: احتفى بنا جميعاً في هذا اليوم مستر فيشر في الهواء الطلق. وكان المكان حيث تناولنا العشاء عبارة عن وادٍ ضيق بهيج بجانب نهر يبعد عن المدينة حوالي ميل شرقاً. وتمتد عبر الوادي من تلة إلى تلة قناة عالية أنيقة تحمل فيها كمية كبيرة من الماء بحيث تكفي كل المدينة. وكانت تدعى جسر الأمير، ومن المفترض بأنها كان بناها غودفروا دى بويون.

الخميس 11 مارس: تعشنا جميعاً في هذا اليوم في دار القنصل هيستينغز، وبعد العشاء ذهبنا لزيارة أوستان⁽¹⁾ Ostan، باشا طرابلس؛ حيث كنا قد أرسلنا هديتنا سابقاً، وهذه هي العادة بين الأتراك للحصول على استقبال لائق.

ومن المعتبر في هذا البلد بأنه من غير اللائق أن تقوم بزيارة دون تقديم هدية، ويتوقع جميع الرّجال العظماء الهدية كنوع من التقدمة بالنظر لشخصيتهم وسلطتهم؛ وعندما لا تتم هذه المجاملة ينظرون إلى أنفسهم بأنهم أهينوا وحُطّ من قدرهم حقاً. حتى في الزيارات المألوفة بين الأشخاص العاديين، نادراً ما تراهم يأتون دون أن يجلبوا معهم وردة أو برتقالة أو أية إشارة أخرى تدل على احترامهم للشخص المزار. إن الأتراك

(1) هكذا يكتب موندل الاسم، والصواب أنه أرسلان باشا المَطَرَه جي، الذي ولي طرابلس في عام 1693، ثم في عام 1697 نُقل من إيالة طرابلس إلى إمارة الحج، وعُيّن مكانه أخوه قِبلان باشا. ثم في عام 1698 عاد أرسلان باشا مرة ثانية على ولاية طرابلس، ونُقل أخوه قِبلان باشا إلى صيدا. وبقي أرسلان باشا في منصبه حتى 1704 على الأقل.

بالنسبة لهذه النقطة يحافظون على العادة الشرقية القديمة.

الجمعة 12 مارس: ذهبنا بعد الظهر لزيارة البلمند Bell-mount وهو دير لليونان يبعد حوالي ساعتين جنوبي طرابلس. كان قد أسسه أحد كونتات طرابلس، وهو يقع فوق جبل صخري عالٍ جداً ويطلّ على البحر، وهو مكان يصعب الصعود إليه جداً بالرغم من أنه قد تم تسهيل الصعود إليه بعمل الخوارة الفقراء. ومن حسن حظنا أن وصلنا إلى هناك تماماً عندما كانوا ذاهبين إلى صلاتهم المسائية. إن معبدهم كبير ولكنه مظلم؛ والمذبح محاط بمكان الكهنة بحيث لا يمكن الاقتراب منه لأيّ امرئ سوى الكاهن، وذلك وفق طريقة الكنائس اليونانية. ويدعون إلى تجمعهم سوية بإحداث صوت بالضرب بمطرقتين على قطعة متدلية من لوح ثخين على باب الكنيسة؛ حيث أن الأتراك يعضون الأجراس.

وتتألف عبادتهم من تيممة صلوات معينة سريعة لا تتصف بأيّ وقار، وأناشيد لمخلصنا المبارك وللعدراء المباركة وبعض الطقوس المظلمة.

وكان كهنة هذا الدير، على ما أنذكر، أربعين، ووجدناهم على ما يبدو ذوي طبيعة جيدة جداً وجديين، لكنهم كانوا بالتأكيد جهلة لحدّ بعيد.

وهذا الجهل لا يدعو للعجب كثيراً؛ لأن فترات الوقت بين ساعات عباداتهم فإنهم مجبرون ألا يقضوها في الدراسة ولكن بالعناية بأسرهم وزراعة أراضيهم وتقليم كروم عنبهم والعمليات الزراعية أخرى التي ينجزونها بأيديهم. فهم مجبرون بأن يقوموا بهذه المشقة ليس فقط ليؤمنوا الوسائل معيشتهم، ولكن أيضاً لكي يكونوا قادرين على أن يفوا بالضرائب غير المعقولة التي يمكن أن يفرضها الأتراك الجشعون والتي يتدعونها تحت أية حجة. ولكن يمكن أن يكون من الأحسن أن نحذر من أي نوع من الرجال يكون هؤلاء الكهنة، وسأضيف هذه الإشارة الإضافية، أي: أن نفس الشخص الذي رأيناه يقوم بالصلاة عند المذبح بثوبه الكهنوتي المطرّز جلب لنا على ظهره في اليوم التالي جدياً وقربة جلد عنزة من الخمر، وذلك كهدية من الدير.

السبت 13 مارس: ذهبنا هذا الصّباح ثانية لزيارة أوستان⁽¹⁾ باشا بناء على موعد معه؛ وجرت ضيافتنا كما في المرة السّابقة بلطف كبير؛ لأنّه ينبغي أن نعلم بأن الأتراك لا يجهلون المدنية وفنون اللبّاقة، بل يمكنهم القيام بها بكثير من الدّقة كأية أمة أخرى عندما يودّون أن يُظهروا كرمهم. ولفهم أحسن لذلك فإنّه لا يمكن أن يكون وصف احتفالات بزيارة تركية غير مناسب أو ممتع، بما أنّهم أصبحوا تحت ملاحظتي، إما بهذه المناسبة أو بمناسبات أخرى.

عندما تقوم هنا بزيارة لشخص هام، فينبغي أن ترسل شخصاً مسبقاً معه هدية ليطلب سابقاً دخولك، ولكي تعلم في أية ساعة يمكن لمحيّتك أن يكون أكثر ملاءمة. وعندما تأتي إلى البيت يستقبلك الخدّام عند البوّابة الخارجية ويقودونك نحو شقة سيدهم؛ ويجتمع بك على الطّريق خدّام آخرون، أعتقد بأنهم ذوو مرتبة أعلى، في مراكزهم المتعدّدة كلما اقتربت أكثر من الشّخص الذي تزوره. وعندما تدخل غرفته تجده مستعد لاستقبالك إما واقفاً إلى جانب الدّيوان أو مستلقياً على إحدى زواياه وذلك وفق ما يظنّه مناسباً للحفاظ على تمييز أكثر أو أقل. وهذه الدّواوين هي عبارة عن نوع من الدّكات المنخفضة موضوعة في أطرف قسم من الغرفة وارتفاعها حوالي ستة عشر أو ثمانية عشر إنشاً أو أكثر فوق الأرض. ممدود عليها سجاد ومفروشة من جميع الجهات بمخدّات طويلة للاتكاء عليها. إن الأتراك على هذه الدّواوين يأكلون وينامون ويدخنون ويستقبلون الزّوار ويقروّون صلواتهم؛ وكل بهجتهم هي بالتراخي عليهم وبفرشها بشكل باذخ، وهو غاية ترفهم.

وعندما تصل إلى جانب الدّيوان تخلع حذاءك وترتفع لتأخذ مكانك؛ على ركبتك وواضعاً يديك بصورة رسمية أمامك. ويجب أن تبقى هكذا حتى يدعوك الرّجل ذو الشّأن بأن تقترب وتضع نفسك في وضع أكثر راحة باستنادك إلى المخدّة. وبوضعك هذا فهو يتحدّث إليك حسب ما تقتضيه المناسبة. ويقف الخدم حولكما كل الوقت

(1) ذكرنا أعلاه أن الصّواب في الاسم: أرسلان باشا المطرّه جي، والي طرابلس بين عام 1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

بعدد كبير، مع أشد الاحترام والسكوت والنظام الممكن تصوره. وعندما تكون قد تحدثت حول عملك أو المجاملات أو أي موضوع آخر، يقوم بإعطاء إشارة لتقديم أشياء الضيافة التي هي بصورة عامة قليل من الحلوى وكأس شراب وآخر للقهوة، يجري إدخالها جميعاً مباشرة من قبل الخدم وتقدم لجميع الضيوف بانتظام مع أكبر العناية والمهابة التي يمكن تصورها. وعندهم سبب لأن يهتموا بها، لأنه إذا ارتكب أي خادم أقل هفوة أو غلطة إما بتقديم أو استلام طبقه فمن الممكن أن يكلفه ذلك خمسين وربما مئة ضربة بالعصا على قدميه العاريتين ليكفر عن جريمته.

وأخيراً يأتي القسم النهائي لضيافتك ألا وهو تعطير لحي المجموعة؛ وهذا عُرف يعني تلميحاً لبقاً للزوار بالانصراف؛ مشيرين لهم بأن سيد الدار لديه عمل أو شغل للقيام به حيث يُسمح لهم بأن ينصرفوا حالما يريدون والأسرع بعد هذا الاحتفاء هو الأحسن.



بعد إنهاء زيارتنا لأوستان⁽¹⁾ باشا ركبنا خارجين بعد العشاء لنرى البحرية، وهي حوالي مسافة نصف ساعة من المدينة. إن المرفأ هو بحر مفتوح أكثر منه ميناء مغلق؛ وعلى كل حال فإنه محمي في جزء منه من قوة الأمواج بجزيرتين صغيرتين حوالي فرسخين من الشاطئ؛ تدعى الأولى الطير⁽²⁾ والأخرى جزيرة الأرنب⁽³⁾ وقد سميت بتلك من المخلوقات التي تتجها كل منهما. ولحمايتها من القراصنة فإن فيها عدة قلاع أو بالأحرى أبراج مربعة، مبنية على طول الشاطئ على مسافات مناسبة. وأعتقد أن عددها ست؛ ولكنها حالياً خالية من جميع أشكال القوة بالنسبة للرجال والذخيرة.

(1) ذكرنا أعلاه أن الصواب في الاسم: أرسلان باشا المطر جي، والي طرابلس بين عام 1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

(2) الجزر الواقعة قبالة طرابلس ثلاث: ستي ورامكين وجزيرة الأرانب، وتدعى مجموعة بجزر النخل.

(3) المقصود جزيرة الأرانب كما قلنا.

وتظهر في الحقول قرب الشاطئ أكوام كثيرة من الآثار وأعمدة الغرانيت وعدة مؤشرات أخرى بأنه كان هنا قديماً بعض الأبنية الكبيرة في هذا الطريق.

الأحد 14 مارس: تابعنا إقامتنا في طرابلس.

الاثنين 15 مارس: قرّرنا بأن نتابع رحلتنا في هذا اليوم، فأعطينا الأوامر لبغالينا قبل بعض الوقت ليستعدوا لخدمتنا. ولكنهم كانوا خائفين جداً من خدام باشا صيدا الذين كانوا في الخارج يطلب بغال لخدمة سيدهم حيث كانوا قد فرّوا ولم يُسمع عنهم. كانت تلك خيبة أمل سببت لنا كثيراً من المضايقة ولم تترك لنا أي مخرج آخر سوى أن نزود أنفسنا بحيوانات جديدة حيث نستطيع إيجادها.

بعد كثير من الإزعاج وترتيب أنفسنا في وضع جديد للسفر، غادرنا طرابلس في الساعة الثالثة بعد الظهر. تابعنا سيرنا قريباً من البحر ووصلنا بعد ساعة ونصف إلى القلمون⁽¹⁾ وهي قرية صغيرة تماماً تحت دير البلمند Bell-mount. وتقدّمنا من هنا حتى حوالي الساعة الثامنة حيث وصلنا إلى رأس عالٍ يقع مباشرة عبر طريقنا وينقطع فجأة على ساحل البحر، ومن ثم رأس عالٍ جداً وتقريباً عمودياً. ولكي نقطع هذا الحاجز اتجهنا إلى جهة اليسار إلى وادٍ ضيق حيث كان يقع طريقنا. وبما أن الوقت كان متأخراً اتخذنا مواقعنا هناك تحت بعض أشجار الزيتون واستغرق ذلك حوالي خمس ساعات.

الثلاثاء 16 مارس: لم نكن قد تحركنا كثيراً هذا الصباح حتى شغلنا العمل الصّعب لاجتياز الرأس المذكور سابقاً. يقع الممرّ فوقه على ارتفاع حوالي ميل فوق البحر، ووجدناه منحدرًا جداً ومعرقلاً؛ ولكن سيطرنا عليه خلال ساعة ووصلنا إلى وادٍ ضيق على الجانب الآخر، ممّا جعل البحر مفتوحاً لنا ثانية. تقع قرب مدخل هذا الوادي قلعة صغيرة مبنية على صخرة عمودية على جميع الجهات، وكانت جدران الأبنية مناسبة تماماً لجوانب الصخرة وظهرت كأنها تقريباً قطعة متممة لها. تسمّى هذه القلعة

(1) تقع القلمون على بعد 7 كم من طرابلس، ويجاورها من جهة الشرق رأس مسقا، ومن الغرب قلحات.

مسيّلحة⁽¹⁾ Temseida وتسيطر على الممرّ إلى الوادي.

بعد حوالي نصف ساعة من هذا المكان أتينا إلى محاذاة البترون⁽²⁾ Patrone؛ وهو مكان يُظن بأنه بطرس Botrus القديم. وهو واقع قريباً من البحر؛ وبما أن طريقنا يقع نوعاً ما في أرض أعلى فقد تنحينا قليلاً عن الطريق لنراها. ووجدنا فيها بعض آثار كنيسة ودير قديمين؛ ولكنهما الآن مهذمان كلياً ومدّمران، وذلك كبقية المدينة بكاملها. ولا يوجد فيها أي شيء باقٍ يدلّ على أنها كانت مكاناً ذا شأن كبير.

ووصلنا في حوالي ثلاث ساعات إلى جيل التي يسمّيها اليونان بيلوس Byblus. وهي واقعة بشكل مسار على شاطئ البحر، وهي تحوي في الوقت الحاضر على امتداد صغير للأرض، وذلك أكثر من كاف للعدد الصغير من سكانها. وهي محاطة بخندق جاف وجدار ذي أبراج مرتبة يبعد كل منها عن الآخر حوالي أربعين يارداً، وفي جانبها الجنوبي قلعة قديمة؛ وفي داخلها كنيسة وهي تماماً بنفس الشكل كتلك التي في طرطوس إلا أنها ليست كاملة كتلك. وعدا عن ذلك ليس فيها شيء جدير بالملاحظة، غير أنها بالنسبة للقدم كانت عبارة عن مكان غير معتدل الامتداد والجمال؛ كما يمكن أن يبدو من الأكوام الكثيرة للآثار والأعمدة الملساء المبعثرة هنا وهناك في الحدائق قرب المدينة. وعلى الأرجح أنّ جيل هي بلد الجليلين Giblites المذكورين في سفر يوشع، (13: 5).

وبعد مغادرتنا جيل وصلنا خلال ساعة إلى نهر كبير لا بأس به، وله جسرٌ حجري فوقه ذو قوس واحد فقط ولكنه كان عريضاً وعالياً للغاية. والأتراك يسمّون هذا النهر بنهر إبراهيم باشا⁽³⁾، ولكنه دون شك نهر أدونيس القديم الشهير بالصّيت السّيء

(1) هي قلعة المسيّلحة في بلدة حامات التابعة للبترون، وتمثل نقطة استراتيجية بين البترون وطرابلس على الضفة اليمنى لنهر الجوز جنوبي رأس الشقعة، ويعود بناؤها إلى أيام الصليبيين، وجدّد بناءها الأمير فخر الدّين المعني عام 1624 م.

(2) مدينة ساحليّة صغيرة معروفة في شمال لبنان، فيها غابة أرز بأعالي قرية تنورين.

(3) ما زال يعرف إلى يومنا الحاضر بنهر إبراهيم، أجتازُهُ يومياً في طريقي من جيل إلى جونبة فيروت.

وبالشعائر الوثنية التي كانت تُقام هنا رثاء لأدونيس. وعلى ضفة هذا النهر أقمنا في الليلة التالية، حيث استغرقت رحلتنا هذا اليوم مدة ست ساعات، وقضينا ليلة عاصفة بالريّح والمطر دون توقف، وبهذا العنف الكبير لم يستطع خدامنا بأن يحافظوا على خيمنا فوقنا. غير أن هذا الحادث الذي سبّب لنا كثيراً من الإزعاج في الليل عوّض علينا بالفضولية التي قدمت لنا فرصة إبصار الصّباح التالي.

الأربعاء 17 مارس: لأنه بهذه الوسيلة كان لنا الحظ بأن نرى ما يمكن أن يعتقد بأن الفرصة لتلك الفكرة التي يربطها لوقيانوس بهذا النهر، أيّ أن هذا النهر في فصول معينة من السنة وخاصة عند احتفال أدونيس يكون ذا لون دموي؛ حيث أن الوثنيون نظروا إلى ذلك بأنه ناتج عن نوع من الحداد يديه النهر لموت أدونيس الذي قتله خنزير بري في الجبال التي ينبع منها هذا النهر، ورأينا أن شيئاً كهذا قد حصل بالفعل؛ لأن الماء قد صُبغ بلون حُمْرة مذهلة، كما لاحظنا في سفرنا، وغيّر لون البحر إلى مسافة كبيرة إلى لون محمّر؛ وكان سبب ذلك دون شك نوع من الزّيقون أو التراب الأحمر الذي غُسل إلى النهر بسبب عنف المطر وليس بسبب أيّ تلوث من دم أدونيس.

وبعد ساعة وربع من هذا النهر مررنا فوق أسفل جبل الذروة Clymax؛ وبعد مسيرنا عبر ممزّ وعر وغير مستو وصلنا إلى خليج كبير يدعى جونية Junia. ولدى المدخل الأول إلى الخليج يوجد جسر حجري قديم⁽¹⁾ يعبّئ الحدود بين طرابلس وصيدا. وتوجد في أسفل الخليج جبال عالية ومنحدرة للغاية، حيث يقع الطريق بينها وبين البحر. وهذه هي جبال كسروان التي يسكنها الموارنة بصورة رئيسية، وهم مشهورون بصنع النبيذ الممتاز. وأسقف حلب له هنا مسكنه في دير هو حاميّه. ورأينا أديرة صغيرة وكثيرة أخرى على أعلى هذه الجبال؛ ويدعى أحدها غزير Oozier، كان كما أخبرونا هنا بأيدي عشرة أو اثني عشر راهباً لاتينياً.

(1) هو جسر المعاملتين الروماني القديم، ما زال ماثلاً للعيان وهو مبني بحجارة ضخمة، ويظهر إلى يسار المتجه من المعاملتين إلى جونية مباشرة.

ونحو الجانب الأبعد من الخليج، وصلنا إلى برج أو قلعة مربعة⁽¹⁾ كان يوجد من نوعها الكثير على طول الساحل بالنسبة لرحلة أيام عديدة من هذا المكان؛ ويقال إنها بنتها الإمبراطورة هيلينا لحماية البلد من القرصنة. وعند هذه القلعة أو البرج يتوجب دفع رسم رابع يأخذه الموارنة، وهم عبارة عن مجموعة من المحتالين الأوغاد أكثر ابتزازاً ووقاحة في منطقتهم من الأتراك أنفسهم. وبعد قليل من هذا المكان وصلنا إلى طريق منحوت عبر الصّخور، أخرجنا من الخليج حيث استغرق قطعه ساعة وربع. وخلال ساعة أخرى قضيناها في طريق وعر جداً قريب من البحر وصلنا إلى نهر ليكوس Lycus الذي يسمّى أحياناً أيضاً كانيس⁽²⁾ Canis، ويسمّيه الأتراك في هذه الأيام نهر الكلب Nahor Kelp، الذي اشتق اسمه من صنم على شكل كلب أو ذئب كان يُعبد، ومن الواضح كما كان غير حقيقي وجود وحي في هذا المكان.

ويجري هذا النهر إلى البحر من بين جبلين منحدرين وعاليين للغاية؛ وصخرين بشكل أنهما يبدوان بأن كل منهما يتألف من حجر كامل. ولقطع النهر يجب أن تصعد بين هذين الجبلين حوالي رمية قوس من البحر حيث تجد جسراً جيداً ذا أربعة أقواس؛ وتوجد قرب أسفله قطعة من الرّخام الأبيض موضوعة في جانب صخرة عليها كتابة عربية تشير إلى مؤسسه الذي كان الأمير فخر الدّين، الذي سأتكلم عنه أكثر عندما آتي إلى بيروت.

وبعد قطع النهر تبدأ مباشرة بصعود الجبل، أو بالأحرى الصّخرة الكبيرة المعلقة فوقه من ذلك الجانب. ولتأمين الاجتياز كان هناك ممراً أكثر من ياردين عرضاً محفور على جانبه، وذلك على ارتفاع كبير فوق الماء. وكان ذلك من شغل الإمبراطور أنطونيوس. بالنسبة للرأس (في البحر) الذي لا يسمح بالمرور بينه وبين البحر، فإن ذلك الإمبراطور قام بعمل مدهش لفتح هذا الطريق. وقد جرى تخليد ذكرى هذا

(1) لا يوجد مثل ذلك في أيامنا، وكلامه يدلّ على منطقة ذوق مكابيل.

(2) وهذه التسمية في اللاتينية تعني الكلب.

العمل الجيد بكتابة محفورة على لوحة قد وُضعت في جانب الصخرة الطبيعية غير بعيد عن المدخل إلى الطريق.

ولدى اجتياز هذا الطريق، لاحظنا في جوانب الصخر فوقنا عدة لوحات منحوتة لصور؛ بدت كأنها تعد بشيء من القيمة الأثرية؛ وقام بعضنا للتأكد منها بالتسلق إلى ذلك المكان فوجدوا هناك بعض العلامات التي تبين كما لو أن الطريق القديم قد امتد في تلك المنطقة قبل أن يقوم أنطونيوس بفتح الطريق الآخر الأكثر ملاءمة إلى الأسفل قليلاً. ورأينا في عدة أمكنة من هذه المنطقة صوراً أثرية غريبة لعدة رجال منحوتة في الصخر الطبيعي وحجمها بالحجم الطبيعي. وكانت توجد لوحة كبيرة قريبة من كل صورة موضوعة بجانب الصخرة ومحاطة بأفاريز. وقد بدت كل من الصور واللوحات بأنها قد جرى نقشها منذ القدم في جميع جوانبها؛ ولكن أشكال الأشخاص الآن مشوهة بشكل لا يسمح برؤية شيء سوى آثار الأقدام؛ وكان يوجد واحد فقط من الأشخاص له كل من ملامح وجهه وكتاباته كاملة.

وكان لسوء طالعنا أننا تعرّضنا في هذا المكان إلى عاصفة عنيفة من الرّعد والمطر حيث جعلت جماعتنا بسرعة كبيرة للإقامة هنا لوقت طويل؛ ولسوء الحظ فقد مُنعتُ لأسفي الكبير، من نسخ الكتابة والقيام بفحص دقيق لهذا الأثر الذي بدا بأنه يستحق ذلك كثيراً، وإني آمل بأن مسافراً فضولياً سيكون له نجاح أكبر بالمرور في هذا الطريق فيما بعد، وبدا الأشخاص بأنهم يشبهون المومياءات، وربما كانوا يمثلون بعض الأشخاص المدفونين هنا؛ ويمكن ربما لقبورهم أن يكتشفها ملاحظ جاد.

يمتدّ طريق أنطونين حوالي سفر ربيع ساعة. وهو في الوقت الحاضر متقطع وغير مسترٍ بحيث أن إصلاحه يتطلب عملاً هنا لا يقلّ عما نطلبه عندما بُني أولاً. وبعد هذا الطريق تصل إلى ساحل رملي ناعم يوصلك بعد حوالي ساعة ونصف إلى نهر بيروت حيث أنني لا أعلم اسماً آخر له. إنه نهر كبير وله فوقه جسرٌ حجري ذو ستة أقواس. ويوجد على جانبه الآخر سهل قرب البحر حيث يقال إنه المكان الذي قام فيه القديس جورج بقتال التنين وصرعه. ويوجد لذكرى هذا الإنجاز دير صغير بُني

في هذا المكان وُحْصَصَ أولاً لذلك البطل المسيحي؛ ولكنه جرى تحويله الآن إلى مسجد. ووصلنا من هنا وبعد ساعة إلى بيروت Beroot، مبللين جداً بسبب هطول المطر الطويل والغزير. وعلى كل حال وجدنا هنا ملجأ في خان جيّد على ساحل البحر، وهناك اتخذنا إقامتنا. وكان كامل مشوارنا في هذا اليوم حوالي ست ساعات ونصف.

الخميس 18 مارس: قضينا اليوم التالي في بيروت، وقد جرى إعلامنا بثقة بأن نهر الدّامور Damer الذي يقع في مشوارنا التالي كان مملوءاً بسبب الأمطار الأخيرة بحيث أصبح لا يمكن اجتيازه. كان هذا المكان يدعى قديماً بيريتوس Berytus؛ ومن المعتقد بأن الصّنم بعل بيريت⁽¹⁾ Baal Berith قد اكتسب اسمه من ذلك الاسم. وفيما بعد جرى إجلال المدينة بشكل كبير وسميت أوغسطس، وكان لها ميزات عديدة منحت لها؛ بما فيها اسم جديد وهو جوليا فيليكس. ولكنها في الوقت الحاضر لا تحتفظ بأي شيء من نعيمها القديم إلا وضعها الحالي؛ وهي بهذه الخصوصية حقاً سعيدة جداً.

إنها تقع على ساحل البحر في تربة خصبة وبهيجة، وترتفع عالياً فوق الماء المالح لكي تكون آمنة من فيضانه وجميع التأثيرات الأخرى المؤذية وغير الصّحية لها. وتتمتع بمنفعة ينابيع جيدة وعذبة تجري إليها من التلال المجاورة وتتوزع في جميع أنحاء المدينة على شكل نوافير مناسبة وأنيقة، ولكن بالرّغم من هذه الميزات بالنسبة لوضعها، ليس لها في الوقت الحاضر أي شيء آخر لتباهى به.

كان المسكن الرّئيسي للأمير فخر الدّين في هذه المدينة. وعاش هذا الأمير في أيام حكم السّلطان مراد، وهو الأمير الرّابع أو أمير الدّروز؛ الذّن هم شعب من المعتقد أنه

(1) هذا هو الصّواب في اسم المدينة باللغة الكنعانيّة: بيريت، وليس بيروت! والسبب في هذا التصحيح هم اليونان الذين يلفظ حرف إيسيلون Y في لغتهم ياءً أو واواً، فغلب على المدينة اسم بيروت وما زال إلى اليوم. ومعنى اسم بيريت الأصلي: المدينة، الحاضرة. وما زال منه بقية في دمشق الكنعانيّة: باب بُريد (بتسكين الباء حسب النطق الكنعاني)، وهي مصحفة عن: باب بيريت. ومنه أيضاً في لبنان: بریتال، مدينة إيل.

تحدّر من بعض البقايا المشتتة لتلك الجيوش المسيحية التي شاركت في الحروب الصليبية لاسترجاع الأرض المقدّسة؛ وفيما بعد استقرّوا كلياً بالأرض وأصبحوا يائسين من العودة إلى بلدهم الأصلي ثانية، ولاذوا بالجبال في هذه المناطق؛ حيث استمرّ أحفادهم منذ ذلك الوقت⁽¹⁾. وكان فخر الدّين، كما قلت، أمير هؤلاء الناس وغير مقتنع بأن يُحبس في الجبال؛ ولكن بموجب قوته وخداعه زاد أملاكه نزولاً إلى السّهل على طول ساحل البحر من هذا المكان إلى عكا. وأخيراً لما زادت غيرة السّيد الكبير (السّلطان) من هذه القوة المتنامية ردّ الوحش البري ثانية إلى الجبال من حيث انطلق؛ وهناك تحافظ ذريته على سلطتهم إلى هذا اليوم.

ذهبنا لنرى قصر هذا الأمير، الذي يقع في الجانب الشّمالي الشرقي من المدينة⁽²⁾. ويوجد عند مدخله نافورة رخامية ذات جمال أكبر مما يُرى عادة في ترقية. ويتألّف القصر في الدّاخل من عدة قاعات جميعها الآن خربة، أو ربما لم يجر إتمامها إطلاقاً. إنّ الإصطبلات، أي حظائر الخيول، ومخادع الأسود والمخلوقات المتوحشة الأخرى، والحدائق الخ.. هي جديرة بصفة أمير في بلدان أوروبا، حيث صنعت بذلك الإتقان المعهود هناك، والذي يبدو أنه قد تمّ تصميمه على يد مبدعه الأول.

ولكن أحسن منظر الذي يمكن لهذا المكان أن يقدّمه والذي يعدّ جديراً بالتذكر هي حديقة البرتقال. فهي تحوي بقعة أرض مربعة مقسمة إلى ستة عشر مربعاً أصغر، كل أربعة منها بصف واحد مع ممّرات بينها. والممّرات مظلمة بأشجار البرتقال التي لها حجم امتداد كبير، وجميعها ذات نمو جميل لكل من السّاق والرّأس، بحيث أن المرء

(1) هذا غلط فادح ينمّ عن جهل، فالدروز عرب أفحاح من بني تنوخ.

(2) كان قصر الأمير فخر الدّين المعني الثاني في منطقة البرج شمال شرق بيروت، ولا تزال تعرف باسم ساحة البرج، نسبة إلى برج الكشف الذي بناه لمراقبة السفن الآتية من البحر. وكان القصر يتألّف من غرف كثيرة وإصطبلات للخيول، وحديقة للوحوش. وكانت المياه تجري بأنابيب في الجدران، وفي الوسط حديقة البرتقال وهي بستان كبير، كان الأمير يجلس مع بطانته في مكان مرتفع منه شرقاً. وقد شاهد عبد الغني التّابلسي حقاّم الأمير فخر الدّين في رحلته لبيروت سنة 1700 في أيام موندلر ذاته.

لا يمكن أن يتصور أي شيء أكثر إتقاناً في هذا المجال. وكانت هذه الأشجار عندما كنا هناك مذهبة بالفاكهة التي كانت مدلاة عليها بشكل أكثف من التفاح الذي رأيته في إنكلترا. وكان كل واحد من هذه المربعات الأصغر الستة عشر في الحديقة محاط بالأحجار؛ وكانت في الأعمال الحجرية فجوات مصنوعة بشكل اصطناعي لنقل الماء إلى جميع أنحاء الحديقة؛ وكانت هناك مخارج صغيرة محفورة عند كل شجرة لتسمح للساقية عند مرورها بالخروج لسقايتها.

لو كان هذا المكان يقوم بزراعته مزارع انكليزي، لكان من المستحيل أن يكون أكثر بهجة. ولكن هذه الحديقة الجميلة عندما رأيناها لم يجر استخدامها لغرض أفضل من أن تكون حظيرة للخراف والماعز؛ وكانت في أماكن كثيرة منها تصل القذارة إلى الركب؛ لأن الأتراك كان عندهم إحساس قليل لمثل هذا الإحساس اللطيف؛ لأنهم كانوا بصورة عامة شعباً ذا إدراك سمج ولا يعرفون أية ملذات أخرى سوى حب الشهوات، التي كانت شائعة بالتساوي بين البشر والوحوش. وكان في الجانب الشرقي لهذه الحديقة ممران مدرّجان أحدهما فوق الآخر وكان لكل ممر اثنا عشرة درجة للصعود إليه. وكان فوقهما عدة امتدادات لطيفة لأشجار البرتقال، لتقدم ظلالاً في الأماكن المناسبة. وكانت نهايتها الشمالية تؤدي إلى خيم وبيوت صيفية وشقق أخرى ممتعة جداً؛ وقد صمم هذا المكان فخر الدين لمجلسه الرئيسي لأجل متعته.

وربما ما يدعو للعجب كيف أن هذا الأمير قد استطاع أن يبدع شيئاً أنيقاً ومنظماً إلى هذا الحد كهذه الحديقة؛ وتشاهد الحقائق التركية بأنها عادة لا شيء سوى مجموعة أشجار مرتبة، متلخطة سوية دون أية عقد أو ممرات أو عرائش، أو أي شيء من الفن والتصميم، لذلك تبدو كالأدغال أكثر من الحقائق. ولكن فخر الدين كان في إيطاليا حيث رأى أشياء ذات طبيعة أخرى، وعرف جيداً كيف ينسخها في بلده. لأنه يبدو حقاً بهذه البقايا منه بأنه كان رجلاً فوق المستوى العادي لعبقري تركي.

وفي حديقة أخرى رأينا عدة قواعد لتمثيل؛ يمكن أن يستنتج منها بأن هذا الأمير لم يكن مسلماً غيوراً جداً. وفي إحدى زوايا الحديقة نفسها كان يوجد برج ارتفاعه

حوالي ستين قدماً، وكان مصمماً بارتفاع كبير ليكون برج مراقبة، ولتلك الغاية فقد بني بقوة غير عادية، حيث كانت جدرانه بسماكة اثني عشر قدماً. وكان لنا من هذا البرج منظر لكامل المدينة؛ فمن بين نواح أخرى قدّم لنا رؤية كنيسة مسيحية يقال بأنها كانت أولاً مخصصة للقديس يوحنا الإنجيلي. ولكن الآن اغتصبها الأتراك لمسجدهم الرئيسي فلم يتمكن من رؤيتها إلا على هذه المسافة، ويوجد في المدينة كنيسة أخرى تبدو بأنها قديمة؛ وهي ذات بناء متواضع جداً وتعاني بأنها لا تزال في أيدي اليونان.

وعلى الجانب الجنوبي لا يزال جدار المدينة كاملاً، ولكنه مبني من بقايا المدينة القديمة كما يبدو من قطع الأعمدة والرّخام التي ساعدت على بنائه، وبعيداً قليلاً من هذا الجدار رأينا أعمدة غرانيت وبقايا أرضيات من الفسيفساء (الموزاييك)؛ ورأينا في كومة من القمامة عدة قطع من الرّخام المصقول وكسر من التماثيل وبقايا فقيرة أخرى تعود للرخامة القديمة لهذه المدينة. ويوجد على ساحل البحر قلعة مخربة قديمة وبعض بقايا رصيف في البحر.

الجمعة 19 مارس: بعد مغادرتنا بيروت وصلنا خلال ثلث ساعة إلى سهل كبير يمتدّ من البحر إلى الجبال. وكان في بداية السّهل غيضة من الصّنوبر⁽¹⁾ لمزرعة فخر الدّين. وخمّناها بأنها بعرض أكثر من نصف ميل؛ وكانت ظلالها مبهجة وراقية للغاية بحيث لم نمرّ بجانبها بغير بعض الأسف. وباستمرارنا في هذا السّهل رأينا عن بعد على يسارنا قرية صغيرة تسمّى الشويفات Suckfoat. وهي تخص الدّروز الذين يملكون حتى هذا اليوم امتداداً طويلاً من الجبال من كسروان إلى الكرمل. وأميرهم الحالي هو أحمد حفيد فخر الدّين.

ووصلنا بعد ساعتين من مزرعة فخر الدّين إلى الخفارة caphar الخامسة، وبعد ساعة أخرى وصلنا إلى نهر دامر Damer أو تاميراس⁽²⁾ Tamyras؛ فالاسم الأول

(1) هي غابة الصّنوبر (الحرش) الشهيرة في ضاحية بيروت جنوباً، وقد جدّد الأمير فخر الدّين المعني زراعتها، ولم يكن أول من غرسها.

(2) يقصد نهر الدّامور، إلى الجنوب من خلدة بأول طريق صيدا.

هو اسمه الحديث والاسم الأخير هو اسمه القديم. إنه نهر قابل لأن يزداد كثيراً لدى سقوط أمطار مفاجئة، وفي هذه الحال يجري من الجبال بسرعة كبيرة، وهو مميت لكثير من المسافرين؛ ومن بين هؤلاء كان مسيو سبون Spon حفيد الدكتور سبون Spon آتياً من القدس منذ حوالي أربعة سنوات برفقة بعض السادة الانكليز، فجرفه النهر بسرعته وهلك في البحر الذي كان يقع على بعد حوالي ثمن ميل أخفض من الممر.

وكان حظنا جيداً بأن نجد النهر بمزاج أحسن؛ حيث كانت مياهه قد انخفضت منذ الأمطار الأخيرة. وعلى كل حال كان الرّيفيون جاهزين حسب مهنتهم لمساعدتنا لاجتياز النهر. لذلك خلعوا ملابسهم لدى قدومنا؛ وذلك بغاية أن يضطرونا للاستفادة من مساعدتهم التي سيتناولون عليها أجراً جيداً، فأخذونا إلى مكان حيث كان الماء فيه أعظم شيء وهم يتظاهرون بأنه كان لا يوجد أي ممر آخر غيره؛ ورأيناهم يفرضون هذه الخدعة على بعض المسافرين الآخرين الذين أتوا بعدنا بوقت قصير. ولقد جرى إعلامنا بمكان أعلى قليلاً على النهر حيث كان النهر أعرض وأقل عمقاً، فمررنا من هناك بسهولة ودون مساعدتهم. ويوجد في هذا المكان تماماً أطلال جسر حجري؛ يمكن للمرء أن يخمن بسبب صلابة بقاياها بأنه لا يزال كاملاً لولا أن هؤلاء الأشرار قد هدموه وذلك للحصول على منافعهم من المسافرين؛ حيث يقودونهم من أجل أجر كبير، وإلا إن سنحت لهم الفرصة يغرقونهم للحصول على ممتلكاتهم.

وعلى الجانب الآخر من النهر تقترب الجبال أكثر من البحر، تاركة ممرّاً صخرياً ضيقاً بينهما. وخلال ساعتين من نهر دامر (الدامور) وصلنا إلى نهر آخر، غير أنه لم يذكر مرة من قبل أي جغرافي أعرفه. وهو يبعد حوالي ساعة من صيدا. إن قناته عميقة وتحوي مياهاً جيدة، وله جسر حجري كبير فوقه. وبالحديث عن هذا النهر مع الأب المحترم ستيفانو⁽¹⁾ (اسطفان) البطريك الماروني، أخبرني بأنه كان يدعى الأولي

(1) يقصد البطريك اسطفان الدويهي الإهدني، وسيرد ذكره أدناه عند ذكر دير قنوبين.

Awle وأنّ نبعه قرب الباروك⁽¹⁾ Berook وهي قرية في جبل لبنان.

وعند هذا النهر قابلنا عدة تجار فرنسيين من صيدا؛ وكان لهم مصنع هناك من أكبر مصانعهم في منطقة البحر المتوسط. وبوصولنا إلى صيدا ضربنا خيامنا قرب حوض ماء خارج المدينة؛ ولكن قادنا السادة الفرنسيون إلى مكان إقامتهم الذي هو خان كبير قريب من البحر، حيث يقيم القنصل والشعب سوية. ويوجد قبل مقدّمة هذا الخان رصيف يمتد إلى البحر بزاوية قائمة؛ ولم يكن ذا سعة كبيرة في أحسن أحواله، ولكنه الآن عديم الفائدة كلياً لأنه قد جرى عن قصد ملؤه بالقمامة والتراب من قبل فخر الدين، وذلك لمنع الأفراد الأتراك من القيام بزياراتهم غير المرّحب بها إلى هذا المكان. وبما أن الرّصيف قد جرى تخريبه فإن جميع السفن التي تأخذ حمولتها هنا مجبرة بأن ترسو تحت حماية سلسلة آكام صغيرة من الصّخر، وهي على بعد حوالي ميل من الساحل على الجانب الشمالي للمدينة.

إنّ صيدا مملوءة بشكل كاف بالسكان، ولكن تقلّص الكثير من امتدادها القديم ومن بهائها ورونقها؛ وذلك كما يبدو من الأعمدة الكثيرة الجميلة المبعثرة على طول الحدائق دون الجدران الحالية. وأية آثار يمكن أن تكون موجودة هنا في أي وقت هي الآن جميعها محجوبة ومطمورة بالمباني التركية. في الجانب الجنوبي من المدينة وعلى تلة تقع قلعة قديمة يقال إنها كانت من عمل لويس التاسع الفرنسي المستمى بالقديس؛ وغير بعيد عن القلعة يوجد قصر غير مكتمل لفخر الدين وهو على كل حال يخدم الهاشا كدار للحريم؛ ولكن كلاً منهما لم يكن جديراً بالذكر لو أن المدينة قدّمت لنا أي شيء آخر جدير بالاعتبار بصورة أكثر. وبالقرب من صيدا تبدأ حدود الأرض المقدّسة، وخاصة من ذلك القسم الذي كان مخصصاً لِسبط أشير Asher، وحدود هذا السّبط امتدت من الكرمل حتى صيدا Zidon الكبرى، كما يبدو من سفر يشوع (19: 26، 28) ولكن الناس على سواحل البحر لم يكونوا أبداً حقاً خاضعين لبني إسرائيل، بل تركوا لحكم الله العادل بأن يكونوا أشواكاً على جوانبهم، وذلك لسبب

(1) من الطريف ملاحظة أنّ موندل ينقل اسم الباروك بألف لبنانية مماله: Berook.

يمكن رؤيته في سفر القضاة (2: 1، 2، 3).

* * *

إن الشخص الذي هو القنصل الفرنسي في صيدا له أيضاً لقب القنصل في القدس؛ وهو ملزم من قبل سيده الملك الفرنسي بأن يقوم بزيارة إلى المدينة المقدسة كل عيد فصيح بحجة الحفاظ على الكنيسة هناك من التعديات والحفاظ على الرهبان الذين يقومون بخفارتها من ابتزاز الأتراك. ولكن الرهبان يعتقدون أنفسهم بأنهم في أمان أكثر دون هذه الحماية. وكنا راغبين بأن ننضم إلى المسيو الإمبراطور، أعني القنصل الحالي في حجته لهذه السنة؛ وبناءً على ذلك كنا قد أرسلنا له كتاباً من حلب بغرض طلب ذلك المعروف؛ آمليين بحمايته أن نمرّ بأمان أكثر من إساءات العرب والأتراك الذين ليسوا بأي مكان وقحين كما هم في فلسطين وحول القدس. وتلقينا وعده بأن ينتظرنا؛ ولكن التأخيرات وخيبات الأمل التي واجهتنا في الطريق قد أخرتنا كثيراً في رحلتنا، بحيث تخوّفنا بأن نكون متأخرين جداً إلى القدس، فانطلق من صيدا في اليوم السابق لوصولنا إلى هناك تاركاً لنا على كل حال بعض الآمال، وذلك إذا بذلنا أقصى جهدنا في طريقنا فمن الممكن أن نجتمع به في عكا Acra حيث وعدنا بأن ينتظر قدومنا متى جئنا.

السبت 20 مارس: بما أننا كنا راغبين بالأ نفقد مزينة صحبته، فقد انطلقنا باكراً في الصباح التالي من صيدا؛ وبسفرنا في سهل مثمر جداً وصلنا بعد نصف ساعة إلى مكان وجدنا فيه عموداً كبيراً من الغرانيت ملقى عبر الطريق الرئيسي وجزء كبير منه مغمور تحت الأرض مع كتابة متأخرة عليه.

وقليلاً بعد هذا العمود رأينا الغازية⁽¹⁾ Ko-ri-e وهي قرية كبيرة على جانب الجبال؛ وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى الصّرفند Sarphan وهي من المفروض أن تكون صيريفاث Serephath القديمة أو صاريفتا Sarepta وهي مشهورة جداً بإقامة

(1) هذا هو الاسم الذي ينطبق على الموقع اليوم.

النبي إيليا Elijah ومعجزاته فيها. ويّين لنا المكان بالنسبة لهذه المدينة بأنه كان يتألف من عدة بيوت فقط في أعالي الجبال وذلك على بُعد حوالي نصف ميل من البحر. ولكن من الأكثر احتمالاً بأن القسم الرئيسي للمدينة كان يقع في الأسفل في المسافة بين التلال والبحر؛ حيث كانت هناك أطلال على امتداد واسع لا تزال ترى في ذلك المكان.

وبعد ثلاث ساعات من هناك وصلنا إلى كازيمير⁽¹⁾ Casimeer وهو نهر كبير وعميق يجري إلى البحر عبر سهل يتعرّج ويدور فيه. وكان له مرة جسر حجري جيد مشيّد فوقه وله أربع أقواس؛ ولكن في الوقت الحاضر لم يبق منه أي شيء سوى الدعامات؛ التي وضعت بينها عوارض وألواح لتعطي مسافة للأقواس ولتجعل ممراً فوقها. ولكن البناء متهاوٍ وغير متماسك إلى حدّ يبدو وكأنه مصيدة وليس جسراً. انهار أحد خيولنا بالرغم من حرصنا الكبير لمنع مصائب كهذه؛ ولكن من حسن حظنا فقد تعافى ثانية على السّاحل. وعلى بعد رمية قوس من هذا النهر يوجد خان بنفس الاسم والذي منه، إذا حافظنا على قرب ساحل البحر، نصل خلال ساعة إلى صور.

تقع هذه المدينة في البحر على شبه جزيرة وهي تعدّ عن بعد شيئاً رائعاً جداً. ولكن عندما تأتي إليها لا تجد شيئاً لذلك المجد الذي كانت مشهورة به جداً في الأزمنة القديمة والتي يصفها النبي حزقيال Ezekiel في الأصحاح 26 و27 و28. وفي الجانب الشمالي فيها قلعة تركية قديمة غير محصّنة، والقرب منها لا ترى شيئاً سوى مجرد جدران وأعمدة بابلية محطمة وسراديب الخ. ولا تجد فيها كثيراً باقياً سوى بيت واحد كامل. وسكانها الحاليون هم لا أكثر من بضعة أشقياء فقراء يلجأون إلى الأقبية والسراديب ويعيشون بصورة رئيسية على صيد السمك، وهم يبدون بأنهم محميون في هذا المكان بالعناية الإلهية، وكمجادلة مرئية، كيف أن الله أوفى بكلمته بخصوص صور: «وأصيّرك كضخّ الصخر فتكونين مبسطاً للشباك. ولا تُبْنين بعد». (سفر حزقيال، 26: 14).

(1) أي نهر الليطاني المعروف في جنوب لبنان.

في وسط الأطلال توجد كومة أعلى من الباقي، وهي النهاية الشرقية لكنيسة كبيرة، ربما عائدة لكاتدرائية صور؛ ولم لا وهي نفسها تماماً التي بناها مطرانها پولينوس Paulinus وتشرفت بموعظة التقديس ليوسيبيوس التي سجلها نفسه في «تاريخ الكنيسة» Eccl. Hist. Lib. X. cap. 4. وكانت مركز رئيس الأساقفة في الأزمنة المسيحية.



ولا يسعني في هذا المقام أن أغفل ملاحظة قالها معظم جماعتنا في هذه الرحلة، وهي أنه في جميع أطلال الكنائس التي رأيناها، بالرغم من أن أقسامها الأخرى كانت مهذمة كلياً، كنا دائماً نجد النهاية الشرقية قائمة وتقريباً كاملة. وسواء كان المسيحيون عندما اجتاحتهم الكفار أنقذوا مذابحهم من الخراب بالمال؛ أو أن البرابرة عندما هدموا الأقسام الأخرى من الكنائس قد يكونوا بصورة طوعية قد استبقوا هذه الأقسام بسبب الخوف والاحترام؛ أو أنها بقيت قائمة لهذه المدة الطويلة بسبب بعض الصلابة الغريبة في طبيعة بنائها؛ أو أن بعض العناية الإلهية السرية قد حفظتها، حيث أن كثيراً من النُصب التذكارية القائمة للمسيحية في هذه المناطق غير المؤمنة والدلالات على إصلاحها المستقبلي سوف لا أحدده⁽¹⁾.

سأقول هذا فقط إننا وجدنا الأمر حقاً كما وصفته في جميع الكنائس المهدومة التي قابلناها في طريقنا، والتي كانت ربما لا تقل عن مئة؛ ولا أتذكر في حياتي بأني رأيت مثلاً واحداً على عكس ذلك. وهذا يمكن أن يبدو بعد ملاحظة طفيفة استندت إلى بضعة أمثلة فقط. ولكنه شيء يحدث غالباً وحقاً ملاحظ عالمياً من قبلنا خلال رحلتنا بكاملها، وفكرتُ بأنه يجب أن تحتاج إلى عوائد من شيء أكثر من فرصة عمياء يمكن أن تستحق هذا الانتقاد.



(1) حاشية للمؤلف: إن النهايات الشرقية للكنائس كانت تبنى دائماً أولاً، وغالباً كانت تترك غير منتهية بسبب الحاجة للأموال أو أسباب أخرى.

لنعد الآن إلى ما كتّأ فيه؛ كان يوجد درج قديم في هذه الأطلال المذكورة أخيراً فصعدت إلى أعلاه؛ حيث كان لي منظر كامل للجزيرة، وجزء من صور والبرزخ والساحل المجاور. فكرت بأنه يمكنني من هذا الارتفاع أن أرى البرزخ بأنه تربة ذات طبيعة مختلفة عن الاثنين الآخرين؛ وهو يقع بصورة أخفض من كل منهما، وهو مغطى كلياً بالرمل الذي يلقيه البحر عليه حيث علامات حته الطبيعي للممرّ هناك الذي جرت تنحيته بضرر من قبل الإسكندر العظيم. إن جزيرة صور في حالتها الطبيعية تبدو بأنها كانت ذات شكل دائري وتحتوي على أرض لا تزيد عن أربعين فداناً. ولا تزال تكتشف أساسات جدار أحاط بها منذ القدم في الحد الأقصى للأرض. وهي تشكّل من البرزخ خليجين كبيرين، أحدهما على الجانب الشمالي والآخر على جنوبها. وهذان الخليجان محميان جزئياً من البحر بواسطة سلسلة طويلة من الآكام تشبه رصيفاً في البحر يمتد مباشرة إلى الخارج على الجانبين كليهما من رأس الجزيرة؛ ولكن هذه السلاسل من الآكام فيما إذا كانت جدراناً أو صخوراً أو فيما إذا كانت من عمل الفن أو الطبيعة، فإنني كنت بعيداً جداً لأن أراها.

لدى خروجنا من هذه الأطلال، رأينا أساسات جدار قوي جداً يخترق رقبة الأرض ويخدم كحاجز لأمن المدينة على هذا الجانب. ومن هذا المكان وبعد ثلث ساعة اخترنا البرزخ الرّملي، وذلك قبل أن نصل إلى الأرض التي أدركنا بأنها الساحل الطبيعي. من هنا ومروراً على جزء من سهل خصيب جداً يمتد إلى حدود واسعة قبل صور وصلنا خلال ثلاث أرباع الساعة إلى راس العين Roselayn. واستغرق مشوارنا كله من صيدا حتى هنا حوالي ثماني ساعات.

الأحد 21 مارس: راس العين Roselayn مكان توجد فيه الأحواض التي تدعى أحواض سليمان Solomon، ومن المعتقد وفق العرف العام في هذه الأنحاء قد صنعها الملك العظيم كجزء من تعويضه للملك حيرام Hiram لتمويناته لمواد أرسلها عند بناء المعبد. وهي دون شك قديمة جداً، ولكن مع ذلك فإن تاريخها أقدم ممّا ينسب هذا الخبر المتواتر إليها. ولا يمكن أن تكون بُنيت منذ زمن الإسكندر. ويمكن أن يُخَمَّن

هذا بين مجادلات أخرى؛ لأن القناة التي تنقل الماء من هنا إلى صور ممتدة فوق رقبة أرض التي بها ضم الإسكندر المدينة إلى أوروبا وذلك لدى حصاره المشهور لهذا المكان. وبما أن الأحواض لا يمكن تصوّرها تماماً بأنها أكثر قدماً من القناة، لذلك يمكن للمرء بأن يكون متأكداً من أن القناة لا يمكن أن تكون أقدم من الأرض التي تقع عليها. ويوجد من هذه الأحواض ثلاثة كاملة حتى هذا اليوم. أحدها يبعد حوالي ثلاثمئة يارد من البحر، والاثنان الآخران أبعد بقليل.

والسابق ذو شكل مثنى ومحيطه اثنان وعشرون يارداً. وهو مرفوع فوق الأرض بتسعة ياردات في الجانب الجنوبي وستة ياردات في الشمال؛ ويقال إن عمقه من الدّاخل لا يُدرك، ولكن خطأً ذا عشرة ياردات قد نقض هذه الفكرة. وجداره ليس من مادة غير الأحجار الصّغيرة والحصى؛ ولكنها مقسّاة بإسمنت دبق ومقوّى جداً، بحيث يبدو كله وعاءً واحداً كاملاً من الصّخر. ولديك على طرفه ممشى عرضه ثمانية أقدام، ومنه وبالنزول خطوة واحدة على الجانب الجنوبي، وخطوتين على الشمال لديك ممشى آخر عرضه واحد وعشرون قدماً.

وكل هذه البنية بالرّغم من أنها بهذا العرض في الأعلى، قد جُعِلت مجوّفة بحيث أن الماء يأتي من تحت المماشي؛ بحيث أنني لم أستطع بواسطة عصا طويلة أن أبلغ نهاية التجويف. وتحتوي كامل القناة على كمّية واسعة من الماء الممتاز الذي يأتي بإمداد جيد من منبعه، وذلك بالرّغم من أنه يتفرّع عنها ساقية كالجدول تُشغّل أربعة مطاحن بين هذا المكان والبحر، فإنها دائماً مملوءة للحافة. وعلى الجانب الشرقي لهذا الخزان كان يوجد المخرج القديم للماء وذلك بواسطة قناة مرفوعة حوالي ست ياردات من الأرض وتحوي على أخدود عرضه يارد واحد. ولكن هذا الآن متوقف وجاف، وقد كسر الأتراك مخرجاً على الجانب الآخر ليحصلوا منه على ساقية لطحن حبوبهم.

إن القناة الآن جافة وتمتدّ شرقاً حوالي مئة وعشرين خطوة، ومن ثم تقترب من الخزائين الآخرين حيث أن واحداً منهما يبلغ اثني عشر والآخر عشرين يارداً مربعاً.

ولكل منهما أخدود صغير كانت مياههما ممدودة قديماً إلى القناة، وهكذا فإن السواقي المتحدة للخزانات الثلاث كانت تجري سوية إلى صور. يمكنك أن تتبع القناة بطولها وذلك بالقطع الباقية منها. وهي تذهب حوالي ساعة نحو الشمال، ومن ثم تنحرف إلى الغرب عند جبل صغير حيث كانت تقع قديماً قلعة، ولكنها الآن مسجد⁽¹⁾، وتمتد فوق البرزخ إلى المدينة.

عندما مررنا بالقناة، لاحظنا في عدة أماكن على جوانبها وتحت أقواسها أكواماً خشنة لمادة تشبه الصّخور، حيث جرى إنتاجها من تنقيط الماء الذي تحجر لدى تنقيطه من الأعلى؛ وبالتماسك المستمرّ للمادة الجديدة فقد نمت إلى كتلة كبيرة. والشئ الأكثر ملاحظة فيها كان الإطار وشكل أجزائها، التي كانت مؤلفة من أنابيب من حجر لا يمكن إحصاؤها، وهي ذات قياسات مختلفة ملتصقة ببعضها كالنوازل. وكان لكل أنبوب تجويف صغير في وسطه ظهرت منه أجزاءه بشكل أشعة نحو المحيط، ووفق شكل الأحجار التي تدعى بالخطأ أحجاراً رعدية.

إن نبع هذه المياه غير معروف كالذي استنبطه. ومن المؤكد من ارتفاع هذه المياه العالي بأنها جُلبت من جزء ما في الجبال التي تبعد حوالي فرسخ. ومن المؤكد بأن العمل قد جرى تنفيذه بصورة حسنة في البداية، ونرى بأنه يقوم بعمله جيداً وذلك خلال وقت طويل.



ولدى مغادرة هذا المكان البهيج، وصلنا خلال ساعة ونصف إلى الرأس البحري الأبيض؛ وهو مسمى هكذا من الناحية التي يفضي بها نحو البحر. وفوق هذا الرأس تمرّ بطريق عرضه حوالي ياردين، مقطوع على طول جانبه؛ والمنظر منه إلى أسفل مخيف جداً، وذلك بسبب العمق البالغ والانحدار للجبل، والأمواج الهائجة في الأسفل. ويبلغ طول هذا الطريق حوالي ثلث ساعة، ويقال بأنه كان من عمل الإسكندر الأكبر.

(1) حاشية للمؤلف: المسجد هو مكان العبادة الجماعية لدى الأتراك.

وبعد حوالي ثلث ساعة تمرّ بكومة من الرّكام قريبة من ساحل البحر، وهي عبارة عن أطلال قلعة إسكندرونة⁽¹⁾ Scandalium. وتبلغ مساحة الأطلال مئة وعشرين خطوة مربعة يحيط بها خندق جاف؛ ومن تحته على الجانب وقرب البحر تنبع عين ذات ماء عذب جداً. وخلال ساعة من هنا تصل إلى القرية السادسة المسماة الناقورة Nachera وبعد ساعة أخرى تصل إلى سهل عكا Acra فوق جبل عميق جداً ووعر، ومن المعتقد بأنه جزء من جبل سارون Saron. وعلى طول الطّريق من الرّأس الأبيض إلى هذا السّهل منطقة صخرية جداً، ولكن جمال الطّريق هنا يعطيك تعويضاً للجهد السابق.

يمتدّ سهل عكا بطوله من جبل سارون حتى الكرمل Carmel، وهو على الأقلّ مسيرة ست ساعات كاملة؛ وعرضه بين البحر والجبال وفي معظم الأماكن أكثر من ساعتين. وهو يتمتع بجداول ماء على مسافات ملائمة وبكل شيء آخر يمكن أن يجعله مُسرّاً ومثمراً. ولكن هذا السّهل التّضرر مهجور الآن تقريباً؛ حيث يعاني من نقص الحراثة لإزالة الأعشاب البرية الكثيفة التي كانت في الوقت الذي مررنا به عالية بحيث تصل إلى ظهور خيولنا.

وبعد سفرنا حوالي ساعة واحدة في سهل عكا Acra، مررنا بمدينة قديمة تدعى الزّيب Zib موجودة على مرتفع قريب من ساحل البحر. وهذه المدينة قد تكون أكزيب Achzib القديمة المذكورة في (سفر القضاة، 1: 31؛ وسفر يوشع، 19: 29) والتي سميت فيما بعد أكديا Ecdippa، لأن القديس إيرونيموس Jerome يضع أكزيب على بعد تسعة أميال من بتولمايس Ptolemais نحو صور، وبهذا الحساب وجدنا وضعية الزّيب Zib موافقة تماماً. وهذه إحدى الأماكن التي لم يستطع فيها الآشوريون طرد السّكان الأصليين الكنعانيين. وبعد ساعتين وصلنا إلى نبع ذي ماء جيد جداً يسمّيه التجار الفرنسيون في عكا نبع العذراء المباركة، وبعد ساعة وصلنا إلى عكا. ومشوارنا الكامل من رأس العين Roselayn إلى هنا استغرق حوالي ثماني ساعات ونصف.

(1) إسكندرونة حصن صليبي يقع إلى الجنوب من صور عند رأس الناقورة، ذكر الرحالة ابن جبّير الأندلسي عام 580 هـ في رحلته (ص 277): حصن الزّاب وقرية إسكندرونة.

وكان يطلق على عكا Acra قديماً اسم عكو Accho، وهذا مكان آخر من الأماكن التي لم يستطع أولاد إسرائيل طرد السكان الأولين منها (سفر القضاة، 1: 31). وبتوسيعها بعد وقت من الزمن على يد بطليموس سمّاها على اسمه بتولمايس Ptolemais. ولكنها بما أنها أضحت الآن بملكية الأتراك، فوفق مدن أخرى كثيرة من تركية تخلّت عن اسمها اليوناني واستعادت بعض الشّبه لاسمها العبري القديم ثانية⁽¹⁾، وأصبحت تسمّى عكا أو Acra.

كانت هذه المدينة لمدة طويلة مسرحاً للنزاع بين المسيحيين والوثنيين؛ وحتى أخيراً بعد أن تعاقبت عليها عهود مختلفة تبدّل فيها حكماءها، وبعد حصار طويل فتحها الأتراك وخربوها بشكل وكأنهم ظنّوا أنهم لا يقدرّون أبداً أخذ انتقام كامل بالنسبة للدماء التي تكلفوها، أو أن يمنعوا بشكل كافٍ مثل هذه المذبحة في المستقبل. وبالنسبة لوضعها فإنها تتمتع بجميع الميزات الممكنة لكل من البحر والبر. وهي على جانبيها الشمالي والشرقي محاطة بسهل واسع وخصيب. وعلى الغرب يغسلها البحر الأبيض المتوسط، وعلى الجنوب يحدها خليج كبير يمتدّ من المدينة حتى جبل الكرمل Mount Carmel.

ولكن على الرّغم من جميع هذه المزايا، لم تستطع مطلقاً أن تستعيد نفسها منذ انقلابها المميت الأخير. لأنه علاوة على خان كبير يتخذ فيه الفرنسيون إقامتهم، ومسجد وعدة أكواخ فقيرة، فإنك لا ترى هنا سوى أطلال ممتدة واسعة. وعلى كل حال فإنها أطلال تبيّن بشكل كافٍ شأن المكان في الأزمان السّابقة. وهي تبدو بأنها كانت محاطة على الجانب البري بجدار مضاعف محمي بأبراج على مسافات صغيرة، وخارج الجدران توجد خنادق ومتاريس ونوع من الأبراج يواجهها حجر منحوت.

(1) هذا غلط، فتسميات بلدان فلسطين كنعانية وليست عبريّة، وكذلك في سوريا ولبنان. مع الإشارة إلى أنّ العبريّة قد أخذت الكثير من قواعد الكنعانية وألفاظها وتراثها الأدبي العظيم. وكانت نشأة الكنعانية كما اعتقد في جنوب شرق جزيرة العرب، وانتقلت عبر العصور من منطقة الخليج العربي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

ورأينا في الحقول خارج هذه الأعمال عدّة كرات حجرية كبيرة مبعثرة هنا وهناك على الأرض، وهي ذات محيط عل الأقل ثلاثة عشر أو أربعة عشر إنشاً؛ وهي كانت جزءاً من الذخيرة المستعملة في هدم المدينة، حيث كانت المدافع غير معروفة آنذاك. ولا يزال يظهر ضمن الجدران عدة أطلال تميّز نفسها من الكومة العامة ببعض العلامات من القوة الأكبر والعظمة. أولها تلك العائدة للكنيسة الكاتدرائية والمخصّصة للقديس أندراوس، وهي تقع غير بعيد من ساحل البحر وتبدو أعلى وأكثر وضوحاً من الأطلال الأخرى. وثانيها كنيسة القديس يوحنا، وهو القديس المختص بهذه المدينة. وثالثها دير فرسان المشفى (الإسبتاريّة) Hospitaller؛ وهو مكان تشهد جدارنه الباقية بشكل كافٍ على قوته القديمة. وغير بعيد عن الدّير يوجد قصر السيد الكبير لذلك الحكم؛ ويمكن تخمين عظمته من درج كبير وقسم من كنيسة لا تزال موجودة فيه. ورابعها بعض بقايا كنيسة كبيرة كانت سابقاً تخصّ دار راهبات.

وهنا توجد أطلال أخرى لكنائس وقصور وأديار وقلاع الخ، تمتدّ لأكثر من نصف ميل طولاً؛ ويبدو كأن كل بناء في المدينة قد صُمّم للحرب والدّفاع.

ولكن الشّيء الذي سرّنا كثيراً في عكا كان وجود القنصل الفرنسي السيّد الإمبراطور هناك؛ الذي كان كريماً جداً بتوقفه لمدة يومين متوقّعاً وصولنا. ولكنه بقي هناك للحدّ الأقصى من وقته، ولذلك قرّر الانطلاق ثانية في الصّباح التالي. وكانت صعوبتنا الكبرى في أن نقرر أي طريق نأخذ، إمّا ذلك الطّريق على السّاحل عند قيصرية Casarea ويافا Joppa؛ أو ذاك الذي عند النّاصرة Nazareth، أو الطريق المتوسط بين كليهما فوق سهل إسدرايلون⁽¹⁾ Esdraelon.

إن سبب عدم التّأكد هذا كان الخصام والشّقاق بين العرب؛ الذي جعلنا راغبين بأن نبقي قدر الإمكان بعيدين عن طريقهم، إن سياسة الأتراك هي أن يزرعوا دائماً الانقسامات بين هؤلاء الناس، وذلك بتعيين عدة رؤساء على قبائلهم، وغالباً ما يعزلون القدامى ويعيّنون رؤساء جدداً عوضاً عنهم؛ ويخلقون بهذا الفن مصالِح وأحزاب

(1) هذه التسمية يونانية ويقابلها في العربية: مرج ابن عامر.

متضاربة فيما بينهم، مما يمنعهم دائماً من الاتحاد تحت أي أمير واحد، حيث لو كان بينهم الشعور بأن يتحدثوا (وهم متعددون كثيراً ويؤلفون تقريباً السكان الوحيدين في تلك المنطقة) فمن الممكن أن ينفضوا النير التركي ويضعوا أنفسهم في سُدّة الحكم العليا للبلد.

ولكن مهما تكن هذه الاختلافات مفيدة للأتراك بهذا الخصوص، فإن الغريب دون ريب يقاسي بسببهم؛ بحيث أنهم يجعلونه فريسة لكل حزب، وفق ما قد يعترض طريقهم. ولتجنب أنفسنا أية إساءات، قرّرنا أن نأخذ الطريق الأوسط وهو الأكثر أماناً في هذا الوقت.

الاثنين 22 مارس: وحسب هذا الغرض انطلقنا باكراً في الصّباح التالي من عكا، ومعنا مجموعة من الجنود الأتراك لأمن قافلتنا بصورة أكبر. ويقع طريقنا لمُدّة حوالي نصف ساعة بجانب خليج عكا؛ ومن ثم لدى وصولنا إلى أسفل الخليج تحولنا نحو الجنوب. ومررنا هنا على نهر صغير علمنا بأنه نهر بيلوس Belus، وهو مشهور برماله التي يقال بأنها مادة ممتازة لصنع الزجاج؛ وقد ساعدت أيضاً على ظهور ذلك الاختراع للمرة الأولى.

وهنا بدأنا النزول من ساحل البحر الذي سافرنا فيه لأيام عديدة من قبل، واتجهنا بصورة أكثر نحو الشرق مجتازين بصورة مائلة في السّهل، وبعد ساعتين كاملتين وصلنا إلى جانبه الأبعد حيث أنه محاط بجبل الكرمل Carmel. وهنا تجد وادياً ضيقاً يخرجك من سهل عكا Acra إلى سهل إسدرايلون⁽¹⁾ Esdraelon. وفي هذه النواحي توجد نهاية سبط أشر Asher، وبداية سبط زبولون Zabulun؛ وحدود هذين السبطين موصوفة في سفر يوشع، 19: 26.

وبالمرور خلال الوادي الضيق الذي يصل بين السّهلين، وصلنا خلال ساعتين إلى ذلك النهر القديم قيشون Kishon الذي يفتح طريقه نزولاً في وسط سهل إسدرايلون

(1) هذه التسمية يونانية ويقابلها في العربية: مرج ابن عامر.

Esdraelon، ومن ثم يتابع مجراه قريباً من جانب جبل الكرمل Carmel ويصبّ في البحر في مكان يُسمّى حيفا Caypha. وفي الوضع الذي رأيناه كانت مياهه منخفضة وغير كثيرة. ولكن بالمرور على طول جانب السهل رأينا مجاري كثيرة من السيول تسقط فيه من الجبال وتجعله يزداد إلى حدّ كبير لدى سقوط أمطار مفاجئة، كما فعلت دون شك حقاً في هلاك جيش سيسرا Sisera.

وخلال ثلاث ساعات ونصف من قيشون Kishon وصلنا إلى جدول صغير، بقربه قرية قديمة وخان جيد يدعى اللّجون Lagune، وغير بعيد عنه أقمنا هذه الليلة. ومن هذا المكان أتيح لنا منظر كبير لسهل إسدرايلون Esdraelon، وهو ذو امتداد واسع وخصيب جداً لكنه غير مزروع؛ فهو يخدم العرب للرعي فقط. وعلى مسافة ست أو سبع ساعات تقريباً شرقاً كانت تقع على مرمى نظرنا الناصرة Nazareth، وجبل تابور Tabor وحرمون Hermon. وجرى إعلامنا بصورة كافية بالخبرة ماذا يعني النبي داوود المقدّس بندي حرمون Hermon، حيث غدت خيامنا مبللة به كما لو أن المطر هطل كل الليل. وفي حوالي مسافة ميل منا عسكر شبلي Chibly أمير العرب مع جماعته وأبقاره؛ وتحتنا وعلى جدول قيشون Kishon عسكرت قبيلة أخرى من العرب، وهي مجموعة معاكسة لشبلي Chibly. وكان ارتياحنا أقل بكثير في هذا المكان، حيث لبثنا في الوسط، بين جارين سيئين جداً. كان مشوارنا هذا اليوم بوجه الإجمال ثمانية ساعات؛ واتجاهنا صوب الجنوب الشرقي والجنوب أو حوالي ذلك.

الثلاثاء 23 مارس: تركنا محلّ الإقامة هذا ووصلنا خلال ثلث ساعة إلى خيام الأمير الذي خرج شخصياً ليقوم بواجباته نحونا. دفعنا له رسمين أي واحد للّجون Legune وآخر لجنين Jeneen، وفوق الرّسمين أي شيء آخر كان يحلو له أن يطلبه. وأراحنا بطريقة لبقّة من بعض معاطفنا التي بدأت أن تكون لا مجرد غير ضرورية فقط بل متعبة أيضاً.

بمغادرتنا شبلي Chibly خرجنا من سهل إسدرايلون Esdraelon ودخلنا إلى جوار نصف سبط منسى Manasses. ومن هنا امتد طريقنا حوالي أربع ساعات عبر

وديان ضيقة مشجرة بصورة نضرة على كل من الجانبين. وبعدها اخترقنا سهلاً مثمراً صغيراً آخر، ووصلنا خلال نصف ساعة إلى كفر عرب حيث أقمنا. إن كامل مشوارنا لم يتجاوز خمس ساعات؛ وطريقنا كان كالיום السابق.

الأربعاء 24 مارس: بعد أن دفعنا رسمنا انطلقنا باكراً في الصباح التالي؛ مغادرين أولاً عرب ومن ثم الرامة Rama وهما قريتان جبليتان على الجانب الأيمن، ووصلنا خلال ساعة إلى نبع ظريف يسمى سيلبي Selee، وقد أخذ اسمه من قرية مجاورة.

وبعد ساعة واحدة وصلنا إلى سبسطية Sebasta. وهنا تغادر حدود النصف سبط منسى Manasses وتدخل حدود القبيلة أفرايم Ephraim.

سبسطية Sebasta هي السامرة Samaria القديمة، المدينة الإمبراطورية للأسباط العشرة بعد ثورتهم من بيت داود David. وقد فقدت اسمها السابق في زمن هيرود Herod العظيم الذي رفعها من دولة مخربة إلى دولة عظيمة جداً، وسماها على شرف أوغستوس قيصر Augustus Caesar سبسطية Sebasta. وهي واقعة على جبل طويلة ذات شكل بيضوي، ولها أولاً وادٍ مثمر، ثم حلقة من التلال حولها. وهذه المدينة العظيمة الآن قد تم تحويلها كلياً إلى حدائق؛ وجميع الرموز الباقية تشهد بأنه لم يكن يوجد في أي وقت مثيل لها وخاصة في جانبها الشمالي، وهي عبارة عن ساحة مربعة محاطة بأعمدة، وفي الشرق بعض بقايا ضئيلة لكنيسة عظيمة، يقال إن الإمبراطورة هيلينا بنتها في المكان الذي كان القديس يوحنا المعمدان قد سُجن فيه وقُتل. وفي قلب الكنيسة تنزل درجاً يؤدي إلى نفس السّجن حيث أُهرق ذلك الدّم المقدّس. إن الأتراك الذين يوجد منهم هنا بضعة عائلات فقيرة، يحافظون على هذا السّجن باحترام كبير وقد بنوا فوقه مسجداً صغيراً؛ ولكن بقليل من المال يدعونك تدخل وتشبع فضولك بسرور.

وبمغادرة سبسطية مررنا خلال نصف ساعة بدير شرف Sherack، وبعد نصف ساعة أخرى مررنا بقرية Barseba وهما قريتان على الجانب الأيمن؛ ومن ثم لدى دخولنا في وادٍ ضيق يقع شرقاً وغرباً ويرويه نهر ظريف، وصلنا خلال ساعة إلى نابلس.

إن نابلس هي شكيم Sychem أو سيخار Sychar، كما تسمى في العهد الجديد. وهي تقع في وادي ضيق بين جبل جرزيم Gerizim في الجنوب وإيبال Ebal في الشمال، وقد بُنيت عند أسفل جبل جرزيم؛ لذلك فإن وضعية كل من المدينة والجبال وصفها يوسيفوس (Josephus (Antiq. Jud. Lile. v. Cap. q.) وعن جبل جرزيم Gerizim يقول بأنه معلق فوق شكيم Sychem، و Libe. iv. cap. ult. ولقد أمر موسى بأن ينصبوا مذبحاً نحو الشرق غير بعيد عن شكيم Sychem، بين جبل جرزيم Gerizim على اليمين (وذلك نحو الذي يطل شرقاً على الجنوب) وإيبال Ebal على اليسار (أي في الشمال)؛ الذي يحدّد بسهولة مركز هذين الجبلين، ومن جبل جرزيم Gerizim حيث أمر الله بأن تُلفظ البركات على أبناء إسرائيل، ومن جبل إيبال Ebal اللعنات (سفر التثنية، 11: 29). وعلى الجبل الأول كان للسامريين Samaritans الذين كان سكنهم في شكيم Sychem، معبد صغير أو مكان للعبادة، لا يزالون معتادين على زيارته في فصول معينة، للقيام بطقوس ديانتهم، ولم أستطع أن أعلم بالتأكيد ما كانت هذه الطقوس أو الشعائر.

وعلى أحد هذه الجبال أيضاً كان أن أمر الله بني إسرائيل بأن يقيموا أحجاراً كبيرة وينقشوا عليها مجمل شريعتهم؛ وأن ينوا مذبحاً، وأن يقدموا أضحيات ولائهم وأن يبتهجوا أمام المولى (سفر التثنية، 26: 4).

نابلس Naplosa في الوقت الحاضر بحالة زرّة جداً، وذلك بالمقارنة بما كانت عليه قديماً. وهي تتألف بصورة رئيسية من شارعين متوازيين تحت جبل جرزيم Gerizim؛ ولكنها مملوءة بالناس، وهي مجلس البابا.

بعد أن دفعنا رسومنا هنا، انطلقنا ثانية في المساء وتابعنا مسيرتنا في نفس الوادي الضيق بين جرزيم Gerizim وإيبال Ebal (لا أكثر من ثمن ميل عرضاً)، ورأينا على يميننا وخارج المدينة تماماً مسجداً صغيراً يُقال إنه بُني فوق الضريح الذي اشتراه يعقوب Jacob من حمور Hamor وهو أبو شكيم Shechem (سفر التكوين، 33: 19). وذلك ينسجم مع اسم ضريح يوسف Joseph، حيث دُفنت عظامه هنا بعد نقلها

خارج مصر (سفر يوشع، 25: 32).

بعد حوالي ثلث ساعة من نابلس Naplosa، وصلنا إلى بئر يعقوب Jacob's Well، وهو مشهور ليس فقط بسبب صاحبه، ولكن أكثر بكثير بسبب تلك المحادثة التذكارية التي أجراها هنا مخلصنا المبارك مع المرأة السامرية (إنجيل يوحنا، 4). وإيبال Ebal على اليسار (أي على الشمال). إذا كان يجب الاستفسار فيما إذا كان نفس البئر الذي جرى الادعاء من أجله أو لا. ويبدو بأنه من المشكوك فيه بأن يقع بعيداً من سيخار Syechar بالنسبة للنساء بأن يأتين كل هذا البعد ليستقن الماء؟ والجواب على ذلك بأنه من المحتمل أن المدينة امتدت بشكل أبعد بهذا الاتجاه في العصور السابقة أكثر مما هي عليه الآن، كما يمكن أن يُخمن من خلال بعض قطع من جدار سميك جداً، لا يزال يُرى غير بعيد من هنا.

وكانت سابقاً فوق البئر كنيسة كبيرة بنتها تلك الوليّة المتعبدة العظيمة المولّهة بالأرض المقدّسة الإمبراطورة هيلينا Helen؛ ولكن عوادي الزّمن بالإضافة إلى أيدي الأتراك لم تترك شيئاً باقياً من هذه الكنيسة سوى بضعة أساسات. والبئر في الوقت الحاضر مغطى بسرداب حجري قديم يمكنك النزول إليه عبر ثقب ضيّق جداً؛ ثم بإزالة حجر منبسط عريض تكتشف فم البئر نفسه. وهو محفور في صخر صلب وقطره حوالي ثلاثة ياردات، وعمقه خمس وثلاثون يارداً؛ وخمسة منها وجدناها مملوءة بالماء.

عند هذا البئر ينتهي وادي شكيم Sychem الضيق، ويفتح نفسه على حقل عريض من المحتمل أنه جزء من حصة الأرض تلك التي أعطاها يعقوب Jacob لابنه يوسف Joseph (إنجيل يوحنا، 4: 5) وهي تُسقى من جدول حديث يجري بينه وبين شكيم Sychem، وهو يجعله إلى درجة كبيرة أخضر ومثمراً بحيث يمكن النظر إليه كرمز قائم للحنان اللين لذلك الأب الصّالح لأحسن أبنائه (سفر التكوين، 48: 22).

ومن بئر يعقوب اتجه طريقنا نحو الجنوب على طول وادٍ فسيح جداً وخصيب، وقد مررنا بقريتين على جهة اليمين، إحداها تسمى حوارة Hower والأخرى السّاوّة

Sawee، وقد وصلنا خلال أربع ساعات إلى خان لبنان وأقمنا هناك. ومشوارنا كله اليوم استغرق حوالي ثماني ساعات، وكان اتجاهنا يتراوح بين الشرق والجنوب.

ويقع خان لبنان على الجانب الشرقي من وادٍ طيب فيه قرية بنفس الاسم تقع مقابله على الجانب الآخر من الوادي. وأحد هذين المكانين إما الخان أو القرية من المفروض بأنه كان لبنان المذكور في سفر القضاة (11: 19) بحيث أن كلاً من الاسم والموضع يبدوان متطابقين.

الخميس 25 مارس: يمتدّ طريقنا من خان لبنان عبر ريف جبلي وصخري أخذنا منه عينة حالما ركبنا في الصباح التالي، وكانت مهمتنا الأولى أن نتسلق جبلاً وعراً وصعباً جداً، وبعد ثلاثة أرباع الساعة وعلى مسافة ما على الجهة اليمنى غادرنا قرية تسمى سنجل⁽¹⁾ Cinga؛ وخلال ساعة أخرى دخلنا في وادٍ ضيق جداً، بين تلتين عاليتين وصخريتين، وفي نهايته الأبعد وجدنا أطلال قرية ودير. وفي نفس هذا المكان أو حوله يُفترض أنه كان يوجد دير يعقوب Jacob حيث كان له مضجعه الحجري الذي جعل مريحاً بتلك الرؤية البديعة للرب وللملائكة الصاعدين والنازلين على سلم يصل بين الأرض والسماء (سفر التكوين، الأصحاح 28). وقرب هذا المكان توجد الحدود التي تفصل بين أفرايم Ephraim وبنيامين Benjamin (سفر يوشع، 18: 13).

ومن هنا مررنا خلال مزارع زيتون واسعة؛ ولدى مغادرتنا الجيب Geeb أولاً ثم سلواد⁽²⁾ Selwid، وهما قريتان عربيتان على الجانب الأيمن، وصلنا خلال ساعة ونصف إلى طريق قديم مفتوح بعمل كبير فوق شفير صخري، ووصلنا خلال ساعة أخرى إلى البيرة Beer. هذا هو المكان الذي هرب إليه يوثام Jotham من انتقام أخيه أبيميلك Abimelech (سفر القضاة، 9: 21). ومن المعتقد أيضاً بأن المكان هو نفسه مخماس (سفر صموئيل الأول، 14: 5).

(1) سميت في أيام الغزو الصليبي نسبة لكونت تولوز ريمون دي سان جيل Raymond de Saint-Gilles الذي دعاه المؤرخون المسلمون: ريموند صنجيل.

(2) تقع سلواد في الشمل الشرقي من رام الله على طريق القدس - نابلس.

تتمتع البيرة Beer بموقع مبهج جداً على منحدر سهل جنوباً. ولها في أسفل التلة ينبوع وافر ذو ماء ممتاز، اكتسبت اسمها منه. وفي الجهة العليا توجد بقايا كنيسة قديمة بنتها الإمبراطورة هيلينا Helena في ذكرى العذراء المباركة التي ذهبت للتفتيش عن ولدها عيسى، كما هو مذكور في إنجيل لوقا (2: 24) فذهبت، كما تقول الرواية، إلى هذه المدينة فلم تجد الذي أحبته روحها، فجلست مع رفقتها متعبة ومكتئبة بخيبة أمل حزينة جداً، وذلك في نفس المكان الذي تقع فيه الكنيسة الآن. ولكن فيما بعد ولدى عودتها إلى القدس تحولت مخاوف الأمومة لديها إلى فرح عندما وجدته جالساً في الهيكل بين الأطباء يستمع إليهم ويسألهم أسئلة.

وعلى طول سفر هذا اليوم من خان لبنان إلى البيرة Beer وأيضاً على مدى ما استطعنا أن نرى حولنا، أبدى الرّيف وجهاً مختلفاً تماماً عما كان عليه سابقاً، فصار لا يقدر شيئاً للنظر في معظم الأماكن سوى صخور عارية وجبال وانحدارات. وترى الحجاج بالنظر إليها غرضة لأن يكونوا مندهشين كثيراً وقد خابت توقعاتهم.

ولكن من الواضح لأيّ امرئ أن يلاحظ بأن هذه الصخور والتلال كانت قديماً مغطاة بالتربة ومزروعة، ومهيئة لتساهل بإعالة السكان كما لو كان الرّيف كله سهلاً، لا بل ربما أكثر بكثير، نظراً لأن سطحاً جبلياً وغير مستوٍ كهذا يعطي مساحة أكبر من الأرض للزراعة مما يصل إليه هذا الرّيف فيما لو سُوي إلى سطح كامل.

لزراعة هذه الجبال كانت طريقتهم بأن يجمعوا الأحجار ويضعوها في صفوف متعدّدة على طول جوانب التلال وذلك على شكل جدار. ويحدود كهذه فقد دعموا التراب من التساقط ومن أن ينجرّف إلى الأسفل؛ وشكّلوا مدرّجات عديدة ذات تربة ممتازة، ترتفع تدريجياً واحداً فوق الآخر من أسفل إلى أعلى الجبال.

من خلال هذه الطريقة في الزراعة فإنك ترى آثار أقدام حيشما ذهبت في جميع جبال فلسطين. وهكذا فإن نفس الصخور جعلت مثمرة. وربما لا يوجد بقعة في جميع هذه الأرض لم يجر تحسينها سابقاً لإنتاج شيء ما أو غيره، لتوفير قوت الحياة البشرية، لأنه لا شيء يمكن أن يكون مثمرأ أكثر من البلدان المنبسطة، سيما لإنتاج الحبوب

أو المواشي وبالتالي إنتاج الحليب، بالرغم من أن التلال غير صالحة لجميع أنواع المواشي ما عدا الماعز، حيث توزع على المدرجات كما هي موصوفة سابقاً والتي قدّمت بصورة جيدة لزراعة الحبوب والبطيخ واليقطين والخيار ومنتجات حقلية مشابهة توفر الطّعام الرئيسي لهذه البلدان لعدة أشهر في السّنة.

ومعظم الأقسام الصّخرية التي لم يمكن تعديلها بتلك الطّريقة لإنتاج الحبوب، يمكن أن تخدم لزراعة أشجار العنب والزيتون؛ التي تُسرّ باستخراج عصيرها المائع بالنسبة للأولى ودسمها بالنسبة للآخرى، وذلك بصورة رئيسية في هذه الأماكن الجافة والصّلبة، والسّهل الكبير الذي يصل إلى البحر الميت والذي بسبب ملوحته كان يُظنّ بأنه لا يقدّم خدمة لكل من المواشي والحبوب والزيتون والعنب، ولكن فائدته المناسبة هي تغذية النحل لصناعة العسل، التي يعطينا يوسفوس Josephus شهادته عن ذلك De Bell. Jud. lib. v. cap. 4. ولدي سبب لأعتقد أنه بدا أصدق، ذلك لأنني عندما كنت هناك شعرت في أماكن كثيرة برائحة عسل وشمع قوية كما لو كنت في منحلة. إن هذا البلد إذن يمكن أن يحافظ على التعداد الكبير لسكانه، وهو في كل جزء منه مُنتج إما للحليب أو القمح أو الخمر أو الزيت أو العسل، وهي عبارة عن الطّعام الرئيسي لهذه الأمم الشّرقية. إن بنية أجسامهم وطبيعة مناخهم جعلهم يميلون إلى طعام أكثر نقشفاً مما نستهلك في إنكلترا وفي مناطق أبرد أخرى. ولكنني أسرع الآن إلى القدس.

لدى مغادرتنا البيرة Beer، تابعنا كما سبق في ريف حجري وعر قدّم لنا منظر عدّة قرى قديمة مخربة، ووصلنا خلال ساعتين وثلث إلى أعلى تل ظفرنا منه بأول منظر للقدس؛ كانت الرّامة Rama التي تدعى قديماً جبعة شاول Gibeah of Saul، ماثلة على الجهة اليمنى مع سهل أريحا Jericho وجبال جلعاد Gilead على اليسار. وخلال ساعة أخرى اقتربنا من أسوار المدينة المقدّسة؛ ولكننا لم نستطع الدّخول مباشرة، حيث كان من الضروري أولاً أن نرسل موفداً ليعرّف الحاكم بوصولنا ويرغبنا بحرية الدّخول، ودون ذلك الاحتفال المسبق لا يعجز أي فرنجي أن يدخل الأسوار.

لذلك مررنا على طول الجانب الغربي للمدينة، وبوصولنا إلى الرّواية فوق بوّابة

بيت لحم توقفنا هناك لكي نتوقع عودة موفدنا. لم ننتظر أكثر من نصف ساعة عندما جلب لنا السماح بالدخول، ودخلنا وفق ذلك من بوابة بيت لحم، والمطلوب من جميع الفرنجة، ما لم يحدث بأن يأتوا بصحبة معتمد عام، بأن يترجلوا عند البوابة وأن يسلموا أسلحتهم ويدخلوا مُشاة. ولكن بما أننا أتينا بصحبة القنصل الفرنسي، كانت لنا مزية الدخول راكبين ومسلحين. ومن ضمن البوابة رأساً وصلنا إلى شارع على الجانب الأيسر، واصطحبنا القنصل إلى بيته الخاص بدعوات ودّية وكريمة جداً بأن نعتبر ذلك بيتنا طالما بقينا في القدس.

وبعد أن تناولنا قليلاً من المرطبات ذهبنا إلى الدير اللاتيني حيث كانت العادة أن يُحتفى بجميع الحجاج الفرنجة، فاستقبلنا الحارس والرهبان بترحيات كثيرة ولطيفة، واستبقرونا للعشاء، وعُذنا بعد ذلك إلى بيت القنصل الفرنسي للمبيت، وهكذا تابعنا إقامتنا في بيت القنصل الفرنسي وظللنا نتناول طعامنا مع الرهبان طيلة إقامتنا كلها في القدس.

الجمعة 26 مارس: اليوم التالي كان الجمعة العظيمة حسب التقويم اللاتيني، وتعيّن على القنصل الذهاب إلى كنيسة الضريح لكي يحتفل بعيدة؛ حيث قمنا بمرافقته بالرغم من أن عيد الفصح لنا كان بعد أسبوع من عيدهم، فوجدنا أبواب الكنيسة محروسة بعدة جنود إنكشارية وضباط أتراك آخرين؛ جرى وضعهم هنا ليراقبوا بالأيدخل أحد إلا بعد أن يكون قد دفع أولاً رسومه المعينة. وهذا تقريباً حسب بلد أو شخصية الأشخاص الداخلين. وبالنسبة للفرنجة من المعتاد أن يكون الرسم أربعة عشر دولاراً للشخص الواحد، ما لم يكونوا كنسيين؛ حيث بهذا الحال يدفعون نصف الرسم.

ويمكنك بعد دفع هذا الرسم الدخول والخروج مجاناً حسبما تريد كل أيام العيد؛ شريطة أن تغتم المناسبات العادية التي من المعتاد أن تفتح الأبواب فيها؛ ولكن إذا فُتحت لك الأبواب في أي وقت خارج الأوقات العادية وذلك بقصد حاجتك الخاصة عندها يتوجب دفع الرسم الأول ثانية.

بعد أن يجرى إدخال الحجاج جميعاً في هذا اليوم، كانت أبواب الكنيسة تُغلق في

المساء، ولا تفتح حتى يوم عيد الفصح؛ وبذلك كنا نُحتجز في حَيَز ضيق ولكن محبَّب جداً لمدة ثلاثة أيام. وقضينا وقتنا برؤية الاحتفالات التي كان يقوم بها اللاتين في هذا العيد، وبزيارة الأماكن المقدَّسة المتعددة؛ التي كانت لنا الفرصة بأن نعاينها بكثير من الحرية والتأمل كما أردنا.

الأحد 28 مارس: في صباح عيد الفصح جرى فتح الضريح ثانية باكراً جداً، انقشعت غيوم الصَّباح السابق، وظهر على وجوه الرهبان البشر والصفاء كما لو كانت ساعة الحضور الحقيقية لقيامه سيدنا.

وجرى الاحتفال بالصلاة هذا الصَّباح وذلك أمام الضريح المقدَّس لكونه أرفع مكان في الكنيسة؛ حيث كان قد أقيم للأب الحارس عرشٌ مزين بأكسية أسقفية مع قلنسوة على رأسه، وعلى مرأى من الأتراك أعطى الخبز المبارك لكل من كان ميالاً لأخذه؛ وكان غير متمتع على الأطفال في سن السَّبع أو الثماني سنوات، وبانتهاء هذا القدَّاس خرجنا من الضريح وعدنا إلى الدَّير وتناولنا العشاء مع الرهبان.

وبعد العشاء اغتنمنا فرصة الذهاب لزيارة بعض الأماكن الجديرة بالملاحظة خارج أسوار المدينة؛ وبدأنا بتلك التي كانت في الجانب الشمالي.

كان أول مكان توجهنا إليه كهفاً كبيراً خارج بَوَّابة دمشق بقليل؛ قيل إنه كان في وقت ما مسكن النبي إرميا Jeremiah. وعلى الجانب الأيسر يظهر سرير النبي وهو رفَّ على الصَّخر يعلو عن الأرض حوالي ثمانية أقدام؛ وغير بعيد منه المكان الذي يقال بأنه كتب فيه رثاء، أي أن هذا المكان هو حالياً مدرسة الدَّراويش، وهو محفوظ باحترام كبير من قبل الأتراك واليهود بالإضافة إلى المسيحيين.

كان المكان التالي الذي ذهبنا إليه تلك الكهوف المسمَّاة قبور الملوك؛ ولكن من الصَّعب أن نتبيَّن لأيِّ سبب أُطلق عليه هذا الاسم؛ لأنه من المؤكد أن لا أحد من ملوك إسرائيل أو اليهود قد دفن هنا؛ إن الكتب المقدَّسة تحدَّد أماكن أخرى لقبورهم؛ ولكن يمكن التفكير بأنه ربما كان حزقيال Hezekiah قد دفن هنا، وكانت هذه قبور أبناء

داوود David، المذكور في (سفر أخبار الأيام الثاني، 32: 33). ومهما يكن الذي دفن هنا فمن المؤكد بأنه المكان نفسه يكشف عن تكاليف كبيرة لكل من العمل والثروة، بحيث يمكننا أن نفترض تماماً بأن ذلك كان من عمل الملوك، ويمكنك أن تقترب منه عند الجانب الشرقي عبر مدخل نُحت في الصخر الطبيعي، يُدخلك إلى ساحة مفتوحة مساحتها حوالي أربعين رهونة مربعة منحوتة في الصخر، ويحيط بها عوضاً عن الجدران.

ويوجد على الجانب الجنوبي للساحة رواق ذو أعمدة طوله تسع رهونات وعرضه أربع رهونات، منحوت بصورة مماثلة من الصخر الطبيعي، وهذا نوع من الهندسة المعمارية يجري على طول الواجهة مزخرف بنقوش فواكه وأزهار ولا يزال يمكن رؤيته، ولكن مع مرور الزمن انطمس كثيراً، وفي نهاية الرواق على الجانب الأيسر تنزل إلى الممر ثم إلى القبر. والباب الآن مشعث جداً بالأحجار والقمامة بحيث أن من الصعوبة بمكان الزحف خلاله. ولكنك تصل من الداخل إلى غرفة كبيرة نسبياً، مساحتها حوالي سبعة أو ثمانية ياردات مربعة منحوتة في الصخر الطبيعي، جوانبها وسقفها مربعة بصورة مضبوطة، وزواياها صحيحة جداً بحيث أنه ما من مهندس مع عذة هندسية كان يستطيع أن يبني غرفة أكثر انتظاماً؛ وكامل الغرفة متين وتام بحيث يمكن أن يُقال بأنها غرفة قد جرى تجويفها من قطعة واحدة من الرخام. ومن هذه الغرفة تمر إلى ستة غيرها الواحدة ضمن الأخرى. وجميعها من نفس البناء كالأولى. ومن بين هذه الغرف فالغرفتان الأخيرتان أعمق من الباقيات، حيث لهما نزول ثانٍ ذي حوالي ست أو سبع درجات فيهما.

في كل واحدة من هذه الغرف ما عدا الأولى، يوجد توابيت من الحجر موضوعة في تجاويف في جوانب الغرف. وكانت أولاً مغطاة بأغطية أنيقة ومنقوشة بالأكاليل الزهرية؛ ولكن معظمها الآن قد جرى تحطيمها إلى قطع من قبل أيادٍ منتهكة لحرمة الأشياء المقدسة، إن جوانب وسقف هذه الغرف كانت دائماً يتساقط منها رطوبات مبتلة حيث تتكاثر عليها، ولمعالجة هذا الإزعاج وللحفاظ على غرف الأموات

بحالة نظيفة، يوجد في كل غرفة قناة صغيرة محفورة في الأرض لتزح القطرات التي تتساقط بصورة مستمرة إليها.

ولكن الشيء الذي كان أكثر إدهاشاً في هذه الغرف تحت الأرضية كانت أبوابها التي لم يبق منها سوى واحد معلقاً، وقد تُرك عمداً ليحترق الناظرين. وهو يتألف من لوح حجري بسماكة ستة إنشات، وبأبعاده الأخرى كان يساوي قياس باب عادي أو نوعاً ما أقل. وكان منحوتاً بطريقة ليشبه قطعة من خشب السنديان؛ وكان يبدو من نفس نوع كل الصخر؛ وكان يدور على مفصّلتين بشكل جذوع. هذه المفصلات كانت من نفس القطعة الكلية الحجرية للباب؛ وكانت متوضعة في ثقبين من الحجر غير المتحرك، واحد في الأعلى والآخر في الأسفل.

رجعنا من هذه القبور نحو المدينة ثانية. وتماماً لدى بوابة هيرود Herod ظهر لنا كهفٌ مملوء بالمياه الوسخة والوحل. وهذا ينطبق على السجن الذي كان إرمياه Jeremiah قد حُبس به من قبل صدقيه Zedekiah حتى تحرّر بحسنة عبدملك Ebedmelech (سفر إرميا، الأصحاح 38). وفي هذا المكان اختتمنا زيارتنا لذلك المساء.

الاثنين 29 مارس: وكان اليوم التالي اثنين عيد الفصح، فانطلق والي المدينة حسب العادة مع مجموعات متعدّدة من الجنود، لينقل الحجاج إلى الأردن. لأنه دون هذه الحراسة لا يمكن الذهاب إلى هناك، بسبب كثرة وتعدّي الناس في هذه الأجزاء، وتبلغ قيمة الرّسم للمحافظ لمرافقته وجنوده بهذه المناسبة اثني عشر دولاراً لكل حاج من الفرنجة، ولكن إذا كان المرء كنسياً فسته دولارات؛ يجب أن تدفعها فيما إذ كنت ميالاً إلى الذهاب في الرّحلة أو كنت مقيماً في المدينة. خرجنا لدى بوابة القديس اسطفان St. Stephen وكنا جميعاً من كل أمة وجنس حوالي ألفي حاج.

ولدى اجتيازنا وادي يهوشافاط Jehoshaphat وجزءاً من جبل الزيتون Mount Olivet، وصلنا خلال نصف ساعة إلى بيت عنيا Bethany؛ وهي الآن مجرد قرية

صغيرة، ولدى مدخلها الأول يوجد أطلال قديمة التي يدعونها قلعة لازاروس⁽¹⁾ Lazarus (العزيز) التي من المعتقد أنها كانت بيت خليل سيدنا. وفي أسفل نزلة صغيرة ليست بعيدة من القلعة نرى الضريح الذي صعد منه إلى وفاة ثانية، وبذلك الصّوت المنعش للمسيح: (أيها الفقير تقدّم). وأنت تنزل إلى الضريح بخمس وعشرين درجة منحدرّة؛ حيث تصل في أسفلها أولاً إلى غرفة صغيرة مربعة، ومن هنا تزحف نازلاً إلى غرفة أخرى أصغر وأعمق حوالي يارد ونصف، وهي التي يقال بأن الجثة قد وضعت فيها، إن هذا المكان محفوظ باحترام كبير من قبل الأتراك، الذين يستعملونه كمصلى، ويطلبون من جميع المسيحيين رسماً صغيراً لدخولهم إليه.

وعلى بُعد حوالي رمية قوس من هذا المكان تمرّ بالمكان الذي يقال بأنه كان منزل مريم المجدلّية Mary Magdalen؛ ومن ثمّ بالنزول على تلة منحدرّة فإنك تصل إلى نبع الحواريين Fountain of the Apostles؛ وقد سمّي بهذا الاسم وفق المتواتر لأن هؤلاء الأشخاص كانوا معتادين بأن يريحوا أنفسهم هنا، وذلك أثناء سفراتهم المتكررة بين القدس وأريحا. وحقاً إنه لشيء محتمل جداً ولا أكثر مما أعتقد يجري من قبل جميع من يسافرون في هذا الطريق. والنبع قريبٌ من جانب الطريق ويدعو كثيراً المسافرين العطشان.

وإنك تتابع من هذا المكان في طريق معقد بين تلال ووديان على التعاقب؛ وجميعها ذات منظر قاحل حالياً، ولكننا اكتشفنا علامات واضحة لعمل المزارع في الأيام القديمة. وبعد سفر لبضعة ساعات في هذا النوع من الطريق، فإنك تصل إلى الصّحراء الجبلية التي قادت الرّوح إليها مخلّنا المبارك ليغويه الشّيطان. إنه مكان تعيس جداً وجاف وقاحل يتألف من جبال صخرية عالية ممزقة جداً وغير منتظمة، كما لو أن الأرض قد عانت هنا من ارتجاج كبير حيث خرجت أمعاؤها من مكانها.

وعلى الجانب الأيسر، ناظرين إلى الأسفل في واد عميق عندما مررنا، رأينا بعض

(1) تعرف اليوم بالعيزرية.

الأطلال لخلايا وأكوخ صغيرة؛ كانت سابقاً كما أخبرونا مساكن للزهاد الذين تقاعدوا هنا للكفارة والتشف. وبالتأكيد لم يمكن أن يوجد في كل الأرض مكان عديم الراحة ومهجور أكثر من هذا المكان لذلك الغرض. ومن أعلى تلال الخراب هذه كان لنا منظر مسر على كل حال لجبال جزيرة العرب والبحر الميت وسهل أريحا؛ الذي كان آخر مكان نزلنا إليه بعد أن مشينا حوالي خمس ساعات من القدس.

حالما دخلنا السهل اتجهنا إلى اليسار وبعد أن مشينا حوالي ساعة في ذلك الاتجاه وصلنا إلى أسفل جبل الغواية Quarantania؛ الذي يقال بأنه الجبل الذي الشيطان أخذ إليه مخلصنا المبارك عندما أغراه بذلك المنظر الخيالي لجميع ممالك العالم وأمجاده. إنه كما يدعوه القديس متى St. Matheu «جبل عالٍ للغاية» وصعوده ليس صعباً فقط ولكنه خطير أيضاً. وله دير صغير في الأعلى ودير آخر في الأعلى ودير آخر في منتصفه مشيد على جزء ظاهر من الصخر؛ وقريباً من هذا الدير الأخير توجد عدة مغاور ونقوب في جانب الجبل، كان يستعملها النسك قديماً، ويستعملها البعض في هذه الأيام للاحتفال بعيد الفصح؛ وذلك تقليداً لمخلصنا المبارك. وجدنا في معظم هذه الكهوف بعض العرب يسكنون مع أسلحتهم النارية وقد أعاقوا صعودنا، طالبين مئتي دولاراً ليركونا نصحعد الجبال. وهكذا غادرنا دون متاعب إضافية، راضين بأن لدينا عذراً جيداً جداً لعدم تسلق منحدرٍ خطر للغاية.

وبنزولنا من هنا إلى السهل مررنا بقناة خربة ودير بنفس الوضع؛ وبعد ركوب حوالي ميل وصلنا إلى النبع الإشع Elisha؛ الذي سمي هكذا لأنه تصفى بأعجوبة من ملوحته من قبل ذلك النبي، بناء على طلب رجال أريحا Jericho (سفر الملوك الثاني، 2: 19). ويتم تلقي مياهه الآن في حوض طوله حوالي تسع أو عشرة خطوات، وخمس أو ست خطوات عرضاً، وحوالي خمس وأربعين أو خمسين قدماً، وعرضه خمس وعشرون أو ثلاثون قدماً، ومن هنا تصدر مياهه بكمية جيدة وتنقسم إلى عدة جداول صغيرة تعم نضارتها على كل الحقل بينه وبين أريحا Jericho وتجعله مثمراً للغاية. وقريباً من النبع تنمو شجرة كبيرة وتنتشر غصونها فوق الماء. لقد تناولنا فطوراً

هنا في الظل مع الأب الحارس وحوالي ثلاثين أو أربعين راهباً آخرين ذهبوا في هذه الرحلة معنا.

وفي حوالي مسافة ثلث ساعة من هنا تقع أريحا، وهي الآن مجرد قرية كدرة فقيرة للعرب. وحملنا من هنا لنرى مكاناً يقال بأنه بيت زكايوس Zacccheus (زكا) كان يقع هناك؛ والذي هو مجرد بناء حجري مربع قديم على الجانب الجنوبي لأريحا. وعلى بُعد حوالي فرلنغ⁽¹⁾ من هنا خيم الحاكم مع جماعته، وغير بعيد عنهم أقمنا هذه الليلة. الثلاثاء 30 مارس: انطلقنا في الصباح التالي باكراً جداً نحو الأردن حيث وصلناه خلال ساعتين. وجدنا السهل قاحلاً جداً عندما مررنا فيه، وهو لا ينتج شيئاً سوى نوعا من samphire ونباتات بحرية أخرى كهذه. ولاحظت في أماكن كثيرة من الطريق حيث توجد تجمعات مائية، بياضاً على سطح الأرض؛ ولدى التجربة وجدت بأنه قشرة من الملح نجمت عن الماء الذي ينضح من الأرض، وذلك بنفس الطريقة التي تحدث كل سنة في وادي الملح⁽²⁾ قرب حلب بعد فيضان الشتاء. وجدت هذه الترسبات الملحية على بُعد بضعة فراسخ من البحر الميت؛ وهي تبين بأن الوادي بأسره لا بد أن يكون في جميع أنحائه مُشرباً بغزارة بذلك المعدن.

وعلى بُعد حوالي ثمن ميل من النهر وفي ذلك المكان الذي زرناه، توجد كنيسة قديمة مخربة ودير مخصص أيضاً للقديس يوحنا St. John في ذكرى تعמיד سيدنا المبارك. إنه دير مؤسس كما يمكن تخمينه في نفس المكان حيث كان له شرف القيام بتلك المهمة المقدسة وأن يغسله وهو الذي كان أنقى للغاية من الماء نفسه، وعلى الجانب الأبعد للدير السابق ذكره تقع هناك أرض منحدره صغيرة، يمكن أن ندعوها بصورة مناسبة الضفة الأولى والخارجية لنهر الأردن؛ وذلك على مدى ما يُفترض أن يمتد النهر، أو على الأقل كما كان يفيض في بعض الفصول من السنة، أي في زمن المحصول (سفر يوشع، 3: 15) أو كما هو مُعتبر عنه في سفر (أخبار الأيام، 12: 15)

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثمن الميل.

(2) يقصد سبخة الجبّول، وسيذكرها في آخر كتابه.

في الشهر الأول أي في مارس. ولكن حالياً فيما إذا بسبب أن النهر قد حُت مجراه بشكل أعمق مما كان عليه سابقاً بسبب سرعة الجريان، أو فيما إذا بسبب أن مياهه قد حُولت في جهة أخرى، يبدو أنه نسي عظمتة القديمة؛ لأننا لم نتمكن من رؤية إشارة أو احتمال لمثل هذه الفيضانات عندما كان هناك في الثلاثين من مارس وهو الوقت المناسب لهذه الفيضانات، كلا لم يشهد النهر حتى الآن الفيضان، حيث أنه كان يجري على الأقل أخفض بياردن من حافة مجراه.

بعد النزول من الضفة الخارجية، فإنك تمشي حوالي ثمن ميل على شاطئ مستوي وقبل أن تصل إلى الضفة المباشرة للنهر. إن هذه الضفة الثانية محفوفة بالشجيرات والأشجار كالأثل والصفصاف والدُفلى، الخ.. بحيث لا تستطيع أن ترى ماءً حتى تدخل خلالها، وفي هذا الدّغل قديماً وحتى الآن أنواع متعددة من الحيوانات البرية كانت معتادة بأن تلجأ إلى هنا، حيث انتهى أو زال وجودها من هذا الملجأ بفيضانات النهر حيث أعطى فرصة لذلك التلميح في سفر إرميا (49: 19 و 50 و 44): «سوف يصعد كالأسد من ارتفاع نهر الأردن».

بعد وقت ليس قليل وصلنا إلى النهر، فنزلنا لكي نشبع ذلك الفضول والورع اللذين جلبنا إلى هنا، ولكننا جرى إنذارنا من قبل بعض عساكر العرب على الجانب الآخر الذين أطلقوا النار علينا؛ إنما على بُعد كبير جداً بحيث لم تحدث إصابات. وعرفل هذا الإزعاج المتداخل الرّهبان عن القيام بصلاتهم المخصصة لهذا المكان؛ وبدا بأن وضعهم في خوف فظيع على حياتهم بأكثر مما ظهر على باقي المجموعة؛ وبالرّغم من ذلك آخذين بعين الاعتبار حقارة وضعهم الحالي والثواب غير العادي الذي يفتخرون بأن يكون من حقهم في العالم الآخر، فإن المرء يفكر بحق بأنهم من بين جميع الرّجال ينبغي أن يكون لهم أقل سبب ليواجهوا خوفاً كبيراً من الموت، ومحبة جمة لحياة مثل حياتهم.

ولكن هذا الإنذار انتهى قريباً وعاد كل واحد إلى شأنه السابق، بعضهم خلعوا ملابسهم واغتسلوا في النهر؛ آخرون قطعوا أقواساً من الأشجار؛ وكل رجل كان

مشغولاً بطريقة أو أخرى لأخذ تذكّار لهذا النهر المشهور. كانت المياه معكّرة جداً وسريعة للغاية ليسبح فيها. وبالنسبة لعرضه فمن الممكن أنه كان حوالي عشرين يارداً، وبالنسبة لعمقه فإنه تجاوز طولي بكثير. وعلى الجانب الآخر ظهر وجود دغل أكبر بكثير من ذلك حيث كنا؛ لكننا لم نجرؤ أن نسبح لنأخذ أي تقدير معيّن لتلك المنطقة وذلك بسبب خوفنا من العرب؛ وقد أطلقت علينا ثلاث طلقات وذلك فوقنا تماماً، وكما يمكن أن نحزر بموجب تقريرهم كان ذلك قرب النهر.

ولدى إنهاء خطتنا هنا جمعنا الوالي للعودة، وقد قادنا عائداً إلى وسط السهل. وهناك جلسنا تحت خيمته وجعلنا نمرّ أمامه واحداً واحداً بغاية أنه يمكنه أن يأخذ تقديراً أكثر دقة عنا، ولا يخسر شيئاً من رسومه، وبدلاً لنا في هذا المكان بأننا قرب البحر الميت، وكان لدى بعضنا رغبة كبيرة بأن يقتربوا أكثر ويشاهدوا منظر تلك المياه المدهشة الهائلة. ولكن لم يكن بالإمكان محاولة ذلك دون إذن قائدنا. لذلك أرسلنا بطلب إذنه لذهابنا مع حارس ليخدمنا، وقد منحنا هذين الطلبين في الحال، ونفذنا مبتغانا مباشرة.

بمجيئنا خلال حوالي نصف ساعة من البحر، وجدنا الأرض غير مستوية وتغيّرت إلى تلال تشبه تلك الأماكن في إنكلترا حيث كان يوجد قديماً أتونات كلسية. هل يمكن أن تكون هذه هي الحفر التي القى إليها ملوك عمورة Gomorrah وسدوم Sodom من قبل الملوك الأربعة؟ (سفر التكوين، 13: 10) لا يمكنني أن أجزم.

بمسيرنا قرب البحر، مررنا خلال نوع من أجمة ذات شجيرات وقصب؛ وفيها أرانا دليلنا الذي كان عربياً نبهاً ذا ماء عذب، ولا يرتفع أكثر من ثمن ميل من البحر؛ وقد سمّاه ماءً عذباً لكننا وجدناه مالحاً.

والبحر الميت محاط في الشرق والغرب بجبال عالية للغاية؛ وفي الشمال يحده سهل أريحا Jericho وفي هذا الجانب أيضاً يتلقّى مياه نهر الأردن؛ وهو مفتوح في الجنوب ويمتد إلى ما أبعد ممّا تصل إليه العين. ويقال بأن طوله أربع وعشرون فرسخاً، وعرضه ست أو سبع فراسخ.

وجدنا على شاطئ البحيرة نوعاً أسود من الحصى يحترق حالاً فيما إذا وضع على لهيب شمعة، ويعطي دخاناً ذا رائحة نتنة لا يمكن تحملها. وله هذه الخاصية بحيث أنه يفقد شيئاً من وزنه فقط وليس من حجمه لدى حرقه. أما التلال المحيطة بالبحيرة فيقال بأنها تزخر بهذا النوع من الأحجار الكبريتية. رأيت قطعاً منها حول دير القديس يوحنا St. John في البرية بحجم قدمين مربعين. كانت محفورة بنقش بارز ومصقولة بلمعان كبير كالرخام الأسود، وكانت مصممة لتزين الكنيسة الجديدة عند الدير.

والعُرف العام أن الطيور التي تحاول أن تطير فوق هذا البحر تسقط ميتة فيه، وأن الأسماك والأنواع الأخرى من الحيوانات لا يمكنها تحمل هذه المياه المميتة، إن التقرير السابق الذي رأيته هو فعلاً منقوض لأن عدة طيور تطير حول وفوق البحر دون أن يصيبها أي أذى؛ وبالنسبة للتقرير الأخير أيضاً لدي بعض السبب بأن أشك فيه بأنه مزيف حيث لاحظت بين الحصى على الشاطئ صدفتين أو ثلاثة تشبه صدقات المحار. هذه الصدقات كانت قد ألفتها الأمواج على بعد ساعتين من فم نهر الأردن، حيث أذكرها لئلا يُشبه بها بأنها جُلبت إلى البحر بتلك الطريقة.

أما بالنسبة للقار، الذي اشتهر به البحر كثيراً، فلم يكن منه شيئاً في المكان الذي كنا فيه، ولكنه متجمّع قرب الجبال بكميات كبيرة على الجانبين. وقد جُلبت لي عدة كتل منه إلى القدس، وهي تشبه تماماً الرّفّ ولا يمكن تمييزها مباشرة منه، حيث يمكن ذلك من رائحتها وطعمها الكبريتي.

كان ماء البحر صافياً جداً ومالحاً لأعلى درجة؛ وليس مالحاً فقط بل هو أيضاً مرّاً للغاية ويسبب الغثيان، بما أنني كنت أريد أن أقوم بتجربة لقوّته فقد نزلت فيه ووجدته بأنه قد حمل جسمي إلى الأعلى أثناء السباحة بقوة غير عادية، ولكن بالنسبة لتلك المقولة لبعض المؤلفين بأنّ الرجال الذين يخوضون فيه كانوا يطفون إلى الأعلى حالما ينزلون إلى عمق السّرة؛ فلقد وجدت ذلك لدى التجربة غير حقيقي.

وبما أنني كنت راغباً في أن أرى الأطلال، فيما إذا كانت موجودة لتلك المدن القائمة قديماً في هذا المكان، والتي جُعلت مثلاً مخيفاً للانتقام الإلهي، استعرضت

المياه باجتهاد على أبعد ما استطاعت عيني أن تصل؛ لكنني لم استطع أن أرى أية أكوام من الأطلال أو أي دخان يرتفع فوق سطح الماء؛ كما يوصف عادة في كتابات الجغرافيين وخرائطهم. ولكن ينبغي لي ألا أحذف ما أثبتته لي بثقة الأب الحارس ووكيل القدس؛ فكل من الرّجلين حسب الظاهر لا يفتقران للفهم أو الاستقامة، أي أنهما عبر السّنوات قد رأيا مرة فعلاً إحدى هذه الأطلال؛ التي كانت قرب الساحل جداً، والمياه الضحلة جداً في ذلك الوقت، بحيث أنهما ذهبا إليها مع بعض الفرنسيين فوجدا هناك عدة أعمدة وقطع أبنية أخرى. وكان سبب حرماننا من ذلك المنظر، على ما أعتقد، هو ارتفاع الماء.

على الجانب الغربي من البحر يوجد رأس صغير كان يقربه كما أخبرنا أدلاؤنا، يقع النصب التذكاري لزوجـة لوط Lot الممسوخة؛ وقسم منه، فيما إذا أمكن تصديقهم، مائل حتى هذا اليوم. ولكن الفرصة الحالية لا تسمح لنا بأن نذهب ونفحص صدق هذه العلاقة؛ وحتى المناسبة لم تخدمنا فيما إذا استطعنا أن نصدق بصورة كافية تقريرهم ليغرونا بأن نذهب في مثل هذه الخدمة.

وأما بالنسبة لتفاح سدوم Sodom الذي جرى الحديث عنه كثيراً، فإنني لم أر شيئاً ولم أسمع عنه شيئاً في هذه الأماكن؛ ولم يكن يوجد أية شجرة يمكن رؤيتها قرب البحيرة بما يتوقع المرء منها هذا النوع من الفاكهة⁽¹⁾؛ التي تجعلني بأن أصدق بأنه ربما يكون ثمّة خداع أكبر في هذه الفاكهة ممّا يقال عنها عادة، ووجودها نفسه بالإضافة لجمالها هو عبارة عن أسطورة تمّ الحفاظ عليها كما يحافظ اللورد بايكون Lord Bacon على كثير من الأفكار الأخرى الزائفة لأنها تقدّم تلميحاً جيداً، وتساعد الشعراء على المشابهة.

لدى عودتنا من البحر الميت وعلى بعد حوالي ساعة منه وصلنا إلى دير يوناني قديم مخرب، كان لا يزال قسم جيد من كنيسه باقياً مع عدة قطع من الرّسوم الزيتية

(1) راجع:

. Tacit. Hst. Lib. 5. Joseph. Bell. Jud. lib. 5. cap. 5

الباقية؛ وذلك كتماثيل لعدة قديسين يونان، وفوق المذبح تمثيلٌ للعشاء الأخير لسيدنا، مع نصٍّ من الكتب المقدسة مكتوب باليونانية «خُذْ وَكُلْ، الخ» وقد ميّزت في هذه الأنحاء وأيضاً في أماكن أخرى من السهل رائحة عسل وشمع قوية، (كانت الشمس حارة جداً)؛ وكان النحل نشيط جداً حول أزهار وأعشاب الملح التي ينتجها السهل، وخلال ساعة ونصف عدنا إلى خيامنا ورفقتنا، في نفس المكان الذي نمنا فيه الليلة الماضية؛ وقضينا هناك هذه الليلة أيضاً.

رأيتُ من بين منتجات هذا المكان ثمرة جديدة بالملاحظة جداً يسميها العرب الزَّقُوم zacho-ne، إنها تنمو على شجرة ذات أشواك لها أوراق صغيرة؛ وهي بكل من شكلها ولونها تشبه جوزة صغيرة غير ناضجة. وبزررة هذه الثمرة يسحقها العرب في الهاون؛ ثم يضعون اللب في ماء غالي ويقشون الزيت الذي يطفو على الوجه. ويأخذون هذا الزيت داخلياً للرضوض، ويستعملونه خارجياً لتخضير الجروح، ويفضلونه على بلسم جلعاد Gilead. حصلت على زجاجة منه، فوجدت لدى بعض التجارب الصغيرة بأنه دواء شاف جداً.

إن ورود أريحا Jericho لم تكن موجودة في هذا الفصل من السنة.

الأربعاء 31 مارس: تركنا معسكرنا جميعاً في هذا الصباح في الساعة الثانية والنصف، وعدنا بنفس الطريق التي أتينا منها، ووصلنا في حوالي ست ساعات قرب أسوار القدس. ولم تفكر جماعتنا بأنه من الملائم الدخول إلى المدينة، فقرروا الذهاب مباشرة إلى بيت لحم. لذلك نزلنا في وادي يهوشافاط Jehoshaphat؛ وبمرورنا بالمدينة أخذنا الطريق حالاً إلى المكان المقصود.

من القدس إلى بيت لحم مسافة سفر ساعتين فقط. إن الرّيف الذي يمتد الطريق خلاله هو وادي رفائيم Rephaim؛ كما يمكن التذكر من يوسفوس Jos. Ant. lib. iv. cap. 10. وهو وادٍ شهير جداً لكونه مسرح انتصارات داود David ضد الفلسطينيين Philistines (سفر صموئيل الثاني، 5: 23) وفي الطريق فإنك تلقى هذه الأماكن التالية الجديدة بالملاحظة. أولاً: مكان يقال إنه بيت سمعان Simeon ذلك

القديس المسنّ الموقر، الذي أخذ مخلصنا المبارك بين ذراعيه وأنشد ترنيمة *nunc dimittis* في المعبد. ثانياً شجرة الرّاتنج الشهيرة، التي يقال بأن العذراء المباركة قد ارتاحت في ظلها، عندما كانت تحمل المسيح بين ذراعيها لتقدّمه للرّب في القدس، ثالثاً: دير مخصّص للقديس إلياس، حيث طبعة جسمه، يقوم الكهنة اليونان المقيمون هنا بإظهارها في حجر صلب كان عادة يستخدمه كسرير. ويوجد قرب هذا الدير أيضاً بئر حيث يخبرونك بأن النجم ظهر عنده للسّحرة الشّرقيين وذلك لفرحهم المتناهي. رابعاً: ضريح راحيل Rachel؛ وهذا من المحتمل بأن يكون المكان الحقيقي لدفنها المذكور في سفر التكوين (19:35) ولكن الضريح التذكاري الحالي لا يمكن أن يكون ذلك الذي أقامه يعقوب Jacob، لأنه يبدو ببساطة بأنه بناء تركي حديث.



لدى وصولنا إلى بيت لحم قمنا مباشرة بزيارة دائرية لجميع الأماكن المقدّسة العائدة لها، ولنسّمها وهي: المكان الذي يقال بأن سيدنا المبارك قد ولد فيه؛ المعلف الذي يقال بأنه وضع فيه؛ معبد القديس يوسف St. Joseph والده المفترض؛ مكان البريئين Innocents؛ مواضع القديس إيرونيموس St. Jerome والقديسة بولا Paula وإستوخيوم Eustochium، ومكان يوسيبوس Eusebius من كريمونا Cremona. وأخيراً مدرسة القديس إيرونيموس Jerome. ويكفي لجميع هذه الأماكن بأن يذكر اسمها.

رأينا من أعلى الكنيسة منظرًا واسعًا للريف المجاور، وأكثر الأماكن الجديرة بالملاحظة على مدى النظر كانت تقوْع Tekoah الواقعة على جانب تلة تبعد حوالي تسعة أميال نحو الجنوب، عيمن جدي Engedi التي تبعد حوالي ثلاثة أميال شرقاً؛ وعلى بعد مسافة بنفس الطّريق توجد تلة عالية منحدرّة تسمّى جبل الفرنج Mountain of the Franks لأن مجموعة من الصّليبيين ظلّت تحميه أربعين سنة بعد فقدان القدس.

الخميس 1 أبريل: ذهبنا هذا الصّباح لنرى الأماكن الجديرة بالملاحظة في جوار بيت لحم، وكان المكان الأول الذي توجهنا إليه هو تلك الينابيع والبرك والحدائق

المشهوره، التي تبعد حوالي ساعة وربع عن بيت لحم جنوباً، والتي يقال بأنها كانت من ابتداء ومتعة الملك سليمان Solomon، ومن المفروض أن هذا الملك الجليل قد أشار إلى هذه الأعمال وأماكن المتعة (سفر الجامعة، 2: 5، 6) حيث أنه من بين الأمثلة الأخرى لعظمته كان يحصي حدائقه وكرومه وبحراته.

أما بالنسبة للبرك، فعددها ثلاثٌ وهي واقعة على صف واحدة فوق الأخرى؛ وهي مرتبة بشكل بحيث أن مياه العليا تنزل إلى الثانية ومياه الثانية تنزل إلى الثالثة. إن شكل هذه البرك مربع الجوانب؛ وعرضها هو نفسه في جميعها يصل إلى حوالي تسعين خطوة؛ وبالنسبة لأطوالها فيوجد بعض الفرق بينها؛ إذ يبلغ طول الأولى حوالي مئة وستين خطوة، والثانية مئتين، والثالثة مئتين وعشرين، وجميعها مبطنّة بجدار ومطيّنة، وتحتوي على عمق كبير من الماء.

وقريباً من البرك توجد قلعة أنيقة ذات بناء حديث؛ وعلى بعد حوالي مئة وأربعين خطوة منها يوجد النبع الذي يأخذون منه مياههم بشكل رئيسي. هذا وإن الرّهبان ينبغي أن يكونوا ذلك النبع المختوم الذي تشبهه الزّوجة المقدّسة (سفر نشيد الأنشاد، 4: 12)، وتثبيتاً لهذه الفكرة يتظاهرون بعُرفٍ بأن الملك سليمان Solomon قد أغلق هذه الينابيع، وختم بابها بختمه؛ وذلك بغاية أن يحافظ على المياه لشربه بعدزوبتها ونفائها. وهكذا لم يكن من الصّعب تأمينها، فهي ترتفع تحت الأرض وليس لها ممرٌ إليها سوى ثقب صغير إلى فم بئر ضيق. وعبر هذا الثّقب فإنك تنزل مباشرة إلى الأسفل ولكن ليس بدون بعض الصّعوبة، وذلك حوالي أربعة ياردات؛ ومن ثم تصل إلى غرفة مقبّبة طولها خمس عشرة خطوة وعرضها ثمانى خطوات؛ وتتصل بها غرفة أخرى بنفس الثّمط، ولكن نوعاً ما أقل. هاتان الغرفتان كلاهما مغطى بأقواس حجرية أنيقة وقديمة جداً. ربما من عمل سليمان Solomon نفسه.

وإنك تجد هنا أربعة أماكن التي ينبع منها الماء: ومن هذه الينابيع المنفصلة ينتقل الماء بواسطة سواقٍ صغيرة إلى نوع من حوض، ومن هناك يُنقل بواسطة ممرٍ تحت الأرض إلى البرك. وفي طريقها قبل أن تصل إلى البرك توجد قناة ذات أنابيب فخّارية

تستلم جزءاً من الجدول وتحمله عبر تعاريج كثيرة حول الجبال إلى القدس.

تحت البرك يمتدّ هنا إلى الأسفل وادٍ صخري ضيق محاط على الجانبين كليهما بجبال عالية، هذا وان الرّهبان ينبغي أن يكونوا الحديقة المغلقة المشار إليها في نفس مكان الأناشيد المذكورة سابقاً: (حديقة مغلقة هي أختي، زوجتي؛ نبع مغلق وعين مختومة). لا يمكنني إطلاقاً أن أقول ما مدى الصدق الذي يمكن أن يكون في هذا التخمين بالنسبة للبرك فمن المحتمل جداً بأن تكون نفسها برك سليمان Solomon؛ ولم تكن كخزان لماء نبع بغاية الجودة الذي يمكن إيجاده في كل أنحاء فلسطين، ولكن بالنسبة للحداثق فيمكن للمرء أن يؤكد بأمان بأنه إذا كان سليمان Soloman قد صنعها في الأرض الصخرية التي هي الآن مخصصة لهم، فهو يبيّن قوة وثروة أكبر في إنهاء تصميمه ممّا استعمل الحكمة في انتقاء المكان لها.

ومن هذه الأبنية التذكارية العائدة لسليمان، عدنا لبيت لحم ثانية لكي نزور بعض الأماكن الأقرب للبيت، وكانت الأماكن التي رأيناها: الحقل الذي يقال بأن الرّعيان كانوا فيه يراقبون قطعانهم عندما تلقوا بشرى ولادة المسيح، وغير بعيد عن الحقل وعن القرية التي كانوا يقطنونها وقليلًا إلى اليمين من القرية يوجد دير راهبات قديم وخرّب بنته القديسة بولا St. Paula وجُعل تذكاريًا أكثر بموتها فيه، جميع هذه الأمكنة هي ضمن حوالي نصف ميل من الدير شرقاً؛ وبهذه الأماكن أنهينا عملنا لهذا الصّباح.

بعد أن رأينا ما يُزار عادة في جنوب وشرق بيت لحم، خرجنا شرقاً بعد العشاء لنرى ما هو جدير بالملاحظة في ذلك الجانب. وكان أول مكان جرى توجيهنا إليه بثر داوود David، وقد سمي بذلك لأنه يعتقد بأنه هو نفس البثر الذي عطش داوود بشدة بعده (سفر صموئيل الثاني، 23: 15). وهو بثر أو بالأحرى خزان يُزوّد بالماء من المطر فقط دون أية جودة طبيعية في مياهه لتكون مرغوباً بها. ولكن يبدو بأن روح داوود كان لها قصد أبعد.

وحوالي ربع ميل بعد هذا البثر يمكن رؤية بعض بقايا قناة قديمة كانت تنقل المياه قديماً من برك سليمان إلى القدس. ويقال إن هذه هي الأثر الأصلي لسليمان، ويمكن

السّماح لها بأن تكون حقيقية من أن تكون مزعومة. وهي تمتد على طول وجه الأرض، وتتألف من أحجار مثقبة لصناعة القناة. وتدمك هذه الأحجار ببعضها مع عصبية تلف حول الثقب لمنع التسرّب، وهي مثبتة ببعضها بملاط قوي جداً ولكنها أحياناً تتكسر بالرّغم من نوع الرّخام الخشن الذي يتحمّل التفكك. وكان هذا الخط من الأحجار مغطى لضمانة أكبر بطبقة من الأحجار الأصغر موضوعة فوقه بملاط قوي جداً. ويبدو كامل العمل منفذاً بقوة مطلقة، كم لو أنه صُمم إلى الأبد، ولكن الأتراك قد أظهروا بهذا المثال بأنه لا شيء مصنوع بهذه الجودة إلا ويمكنهم تحطيمه، لأنه بالنسبة لهذه القناة القوية التي امتدت سابقاً لمساحة خمسة أو ستة فراسخ بكلفة وعمل كبيرين، لا ترى الآن هنا وهناك إلا مجرد قطع باقية.

وبرجعنا من هذا المكان ذهبنا لنرى أديرة يونانية وأرمنية، وهي مجاورة لتلك التابعة للاتينيين، ولكل منها أبوابها المتعددة التي تفتح على كنيسة المعلق المقدّس، وكان المكان التالي الذي ذهبنا لرؤيته كهف العذراء المباركة، وهو على بعد ثلاثين أو أربعين يارداً من الدّير، وهو محترم بسبب التقاليد. حيث أن العذراء المباركة اختبأت هنا مع طفلها اللاهوتي من غضب هيرود Herod وذلك لبعض الوقت قبل مغادرتهما إلى مصر.

الجمعة 2 أبريل: وفي الصّباح التالي قدمنا للوالي هدية من أجل مجاملاته لنا، وغادرنا بيت لحم مصمّمين فقط على أن نزور البريّة ودير القديس يوحنا المعمدان St. John Baptist ومن ثم نعود إلى القدس.

من هذه المرحلة اخترقنا أولاً جزءاً من ذلك الوادي الشّهير الذي يقال بأن فيه قام الملاك Angel في إحدى الليالي بعمليات قتل هائلة في جيش سنّحريب Sennacherib. ولدى سفرنا حوالي نصف ساعة وصلنا إلى قرية تدعى بيت جالا Booteshallah تتعلق بما يربطونه بهذه الممتلكات الجديرة بالملاحظة بأنه ما من تركي يستطيع أن يعيش فيها أكثر من ستين، وبفضل هذا الرّغم سواء كان حقيقياً أم مزيفاً، يحتفظ المسيحيون بهذه القرية لأنفسهم دون تدخل، ولا يريد أي تركي أن

يخاطر بحياته لاختبار مدى صدق ذلك.

وفي حوالي أقل من ساعة وصلنا إلى النبع حيث أخبرونا، بصورة مغلوطة، بأن فيليب Philip عمّد الخصيّ الحبشي Aethiopian. إن الممرّ هنا صخري وغير مستوٍ بحيث أن الحجاج يجدون مدى صعوبة هذا الطريق لراكب حصان وحيد. فهم يتألون لأن يفكروا بأنه من المستحيل لعربة كالعربة التي ركبها الخصيّ (أعمال الرّسل، 8: 28) أنها استطاعت أن تذهب في هذا الطريق. ولكن ينبغي أن لا نحكم على الحالة التي كان بها الطريق في الأزمنة القديمة وذلك بما فعله إهمال الأتراك له. لأنني لاحظت مكاناً غير بعيد من النبع حيث جرت إزالة الصّخر بعد قطعه في الزّمن القديم وذلك لفتح طريق جيد. والذي به من الممكن أن نفترض بأن نفس العناية قد جرى استخدامها على طول هذا الممرّ، بالرّغم من أن الزّمن والإهمال الآن قد أزالاً ثمرة وعلامات مثل هذا العمل.

وصلنا بعد هذا النبع بقليل إلى ما يدعونها قرية القديس فيليب St. Philip التي صعدنا عندها تلة منحدره جداً ووصلنا إلى برّية القديس يوحنا wilderness of St. John وقد سمّيت بالبرّية لأنها صخرية وجبلية جداً، ولكنها مزروعة بشكل جيد وتنتج كثيراً من القمح وأشجار العنب والزيتون. وبعد سفر ساعة كاملة في هذه البرّية وصلنا إلى الكهف والنبع حيث كما يقولون قام المعمدان Baptist بمعارضاته الشديدة المنسوبة إليه (إنجيل متى، 3: 4) ولا تزال تنمو بالقرب من هذا الكهف بعض أشجار الخرنوب القديمة؛ والنصب التذكارية لجهل الأزمنة الوسطى. ويؤكد الرّهبان بأن هذه هي نفس التي قدمت قوتاً للمعمدان Baptist وراح الحجاج البابويّون الذين لا يجروّون بأن يكونوا أعقل من أدلاء عميان، يجمعون الفاكهة ويحملونها بعيداً بولاء كبير.

لدى انتهائنا من هذا المكان، اتجهنا نحو دير القديس يوحنا St. John الذي هو على بعد حوالي فرسخ شرقاً. وفي طريقنا مررنا على جانب واحد من وادي ايلاه Elah حيث قتل داود David ذلك العملاق المزدري لجيش إسرائيل، (سفر صموئيل

الأول، الأصحاح 17) وكانت أيضاً في موقع بصرنا مودون⁽¹⁾ Modon وهي قرية على رأس تلة عالية، وهي مكان دفن أولئك المدافعين الأبطال عن بلدهم المكابيين Maccabees.

ولدى مجيئنا قرب الدّير اقتدنا قليلاً خارج الطريق لنزور مكاناً يدعونه بيت إليصابات Elizabeth أم المعمدان Baptist وهذا كان في السابق ديراً أيضاً؛ ولكنه الآن عبارة عن كومة من الأنقاض، وهو المكان الوحيد الجدير بالملاحظة وبقي فيه كهف يقال بأنه كان المكان الذي حيّت فيه العذراء المباركة إليصابات، وتلت ترنيمتها اللاهوتية (إنجيل لوقا، 1: 46).

والدّير الحالي للقديس يوحنا St. John الذي هو مسكون الآن، يقع على بعد ثلاثة أثمان الميل من بيت إليصابات، ومن المعتقد بأنه بني في المكان الذي ولد فيه القديس يوحنا.

إن دير القديس يوحنا قد أعيد بناؤه من الأرض خلال هذه السنين الأربع، وهو الآن بناء مربع كبير متساوٍ ومتقن في جميع أنحائه، ولكن الشيء الجميل بوضوح للغاية فيه هو كنيسته. وهي تتألف من ثلاثة ممرّات ولها في الوسط قبة أنيقة يوجد تحتها رصيف من الموزاييك يساوي أو يفوق أرقى أعمال القدامى بالنسبة لهذا النوع. وفي النهاية العليا للممرّ الشمالي تنزل سبع درجات رخامية إلى مذبح رائع مبني فوق نفس المكان حيث يقولون بأن المعمدان Baptist قد ولد. ولا يزال هنا صنّاع مستخدمون لإضافة جمال وتزيين أكثر لهذا الدّير، ومع ذلك لا يزال عملاً مكلفاً يتكفّل به الرّهبان أنفسهم، وما من حجر جرى تركيبه فيه إلا وكلّفهم دولاراً. وينبغي الأخذ بعين الاعتبار المبالغ الكبيرة المفروضة من قبل الأتراك من أجل الرّخصة للبدء ببناء من هذه الطّبيعة، وأيضاً ابتزازهم المستمرّ وطلباتهم الشّهوانية فيما بعد، بالإضافة إلى الرّسم الضروري للبناء، يمكن السّماح لها بتجاوز الإغراق الباهظ.

(1) لعله يعني هيروديون Herodium التي تعرف بالعربية بتل الفريديس.

وبعدتنا من دير القديس يوحنا نحو القدس وصلنا خلال ثلاثة أرباع الساعة إلى دير ليونان يكتسب اسمه من الصليب المقدس. إن هذا الدير مرتب جداً بينائه وبوضعه البهيج، ولكن الذي يستحق الملاحظة فيه هو السبب بتسميته وتأسيسه لأن التربة هنا هي التي غذت الجذر الذي حمل الشجرة التي قدمت الخشب الذي صنع منه الصليب، ونرى تحت المذبح العالي حفرة في الأرض حيث كانت تنتصب أرومة الشجرة التي تستقبل كثيراً من الزوار، وكان يوجد أرومات أكثر بكثير منها نفسها بحيث تنحني لها. إن هذا الدير لا يبعد أكثر من نصف ساعة من القدس وقد رجعنا إليه هذا المساء، وكان اليوم الخامس منذ مغادرتنا هناك.

ودُعينا إلى الدير بعد عودتنا ليُصار إلى غسل أقدامنا، وذلك طقس من الطقوس التي يقوم بها الأب الحارس نفسه لكل حاج. وتحلق حوله كل الجماعة يغنون بعض الترنيمات اللاتينية طوال الوقت الذي يقوم فيه الأب الحارس بأداء مهمته. وعندما يكون قد انتهى من ذلك يدخل كل راهب بانتظام ويقبّل قدمي الحاج، وكانوا يقومون بذلك كله بانتظام ووقار كبيرين، وكان ذلك إما ليشهد خشوعاً مخلصاً ومبرة فيهم، أو ليثبت تلك النعم في الآخرين، ويمكن أن يجري من أجل احتفاء مفيد.

السبت 3 أبريل: ذهبنا حوالي منتصف النهار لنرى احتفال «النار المقدسة»، وهذا عبارة عن احتفال يقيمه اليونان والأرمن بالقناعة بأنه في كل ليلة عيد فصح توجد شعلة معجزة تهبط من السماء إلى الضريح المقدس وتشعل كل المصابيح والشموع هناك، كما أحرقت الضحية في صلوات إيليا Elijah (سفر الملوك الأول، الأصحاح 18).

وبمجيئنا إلى كنيسة الضريح المقدس وجدناها مكتظة بجمهور متعدد ومضطرب، يقوم بصخب قبيح غير مناسب أبداً لذلك المكان المقدس، ومن الأجدر أن يكونوا (سكّيرين) لا مسيحيين. وبشيء من المقاومة استطعنا المرور خلال هذا الحشد والصعود إلى الرواق على ذلك الجانب من الكنيسة المتاخمة للدير اللاتيني، حيث استطعنا رؤية جميع ما حدث في هذا الهيجان الديني.

بدؤوا تشويشهم بالركض حول الضريح المقدس بكل قوتهم وسرعتهم يصيحون

أنشاء ذهابهم: «هويّا!» *Huia* التي تعني «هذا هو» أو «هذه هي»؛ وهو تعبير يؤكدون به صحة الديانة المسيحية. وبعد أن أداروا رؤوسهم وأشعلوا جنونهم بهذا الدوران المدوّخ والزّعيق، بدؤوا القيام بحيل وأوضاع مضحكة جداً بألف شكل من التشويش. وأحياناً سحب بعضهم البعض الآخر على طول الأرض، وفي جميع أنحاء الضريح؛ وأحياناً وضعوا رجلاً قائماً على أكتاف رجل آخر، وبهذا الوضع جعلوا يدورون؛ وأحياناً أمسكوا برجال وأكعابهم إلى الأعلى وداروا بهم بسرعة على هذا الوضع بطريقة عديمة الحشمة إطلافاً؛ وأحياناً تدرجوا حول الضريح على نفس الطريقة التي يقوم بها المتدحرجون على المسرح. وبالاختصار لا شيء يمكن تصوّره أكثر وقاحة ومجوناً ممّا جرى القيام به في هذه المناسبة.

وتابعوا بهذا الهزل الصّاحب والمجنون من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الرابعة؛ وكان السّبب لهذا التأخير قضية كانت عندئذ موضوع نقاش أمام القاضي بين اليونان والأرمن؛ بحيث أن المذكورين أولاً يسعون لحرمان المذكورين لاحقاً من أية حصة في هذه الأعجوبة. كلا الفريقين قد صرفوا، كما جرى إعلامي، خمسة آلاف دولاراً فيما بينهم، في هذه المجادلة السّخيفة؛ وأخيراً أعطى القاضي حكمه بأنهم يجب أن يدخلوا الضريح المقدّس سوياً «كما كان عادة» في الأزمنة السّابقة. وقد أعطى الحكم في الساعة الرابعة، وتابعت الأمتان كلتاهما باحتفالهما. فانطلق اليونانيون أولاً بموكب حول الضريح المقدّس ومباشرة خلفهم لحقهم الأرمن. وبهذا الترتيب أحاطوا بالضريح المقدّس ثلاث مرات، مظهرين كل تأنقهم للأعلام والزّيات والصّلبان، وعادات التطريز في هذه المناسبة.

ونحو نهاية هذا الاحتفال أتت حمامة ترفرف في القبة فوق الضريح؛ ولدى النظر إليها كانت صرخة وصياح أكبر من ذي قبل. وأخبرنا اللاتين بأن هذا الطّير تركه اليونان يطير عمداً ليخدعوا الناس بفكرة أنه كان هبوطاً مرثياً للروح القدس.

وبانتهاء الموكب كان معاون البطريك اليوناني في القسطنطينية، فاقترب المطران الأرمني إلى باب الضريح، وبعد قطع الخيط الذي كان مثبتاً الباب وخاتمه دخل غالقاً

الباب بعدهم؛ وكانت كل الشموع والمصابيح في الدّاخل قد أطفئت سابقاً بحضور الأتراك وشاهدين آخرين. وتضاعفت الهتافات عندما اقتربت المعجزة من الإنجاز. وضغط الناس بشدة نحو باب الضريح بحيث لم يكن بوسع الأتراك الموضوعين لحراسته إبعادهم بأشدّ الضربات. وسبب ضغطهم بهذه الكيفية هي رغبتهم الكبيرة لإشعال شموعهم بالشعلة المقدّسة حال إخراجها أولاً من الضريح؛ حيث أنها تعتبر الأكثر قداسة ونقاوة بما أنها آتية مباشرة من السّماء.

لم يمكث بائعو المعجزات في الضريح المقدّس بأكثر من دقيقة عندما جرت رؤية لمعان النار المقدّسة، أو جرى التّخيل بظهورها عبر بعض شقوق الباب؛ وبالتأكيد فإن مستشفى المجانين نفسه لم ير أبداً تولّها كالذي جرى سريانه لدى عامة الناس عند هذا المنظر.

وبعد ذلك مباشرة خرج الكاهنان وبأيديهما شعلتان ملتهبتان حيث رفعاهما عند باب الضريح، فتزاحم الناس بشوق لا يمكن التعبير عنه؛ كل فرد يجاهد للحصول على جزء من الشعلة الأولى والأنقى. وفي هذه الثّناء راح الأتراك يضربونهم بالهراوات الضخمة دون رحمة؛ ولكن كل هذا لم يستطع أن يردّهم، وجعلتهم كثرة تحرّكهم لا يشعرون بالألم. وأولئك الذين حصلوا على النار استعملوها مباشرة على لحاهم ووجوههم وصدورهم متظاهرين بأنها سوف لا تحرقهم كلهيب أرضي؛ ولكنني رأيت ببساطة أن ما من واحد منهم استطاع أن يتحمّل هذه التجربة لمدة كافية ليثبت ذلك التّظاهر.

لقد جرى استخدام أيدي كثيرة، ويمكنك أن تتأكد بأن لن يمض وقت طويل حتى تُشعل شموع لا يمكن عدّها. كل الكنيسة والممرّات وكل مكان بدا حالاً مشتعلاً، وبهذه الإضاءة انتهى الاحتفال.

ينبغي الاعتراف بأن هذين الاثنين داخل الضريح قاما بدورهما بسرعة ومهارة كبيرتين؛ ولكن سلوك الأوباش في الخارج كذّب الأعجوبة كثيراً جداً. إن اللاتين يتلقّون مقداراً كبيراً من الآلام ليعرضوا هذا الاحتفال، حيث أنه تدجيلٌ معيب جداً

وفضيحة للديانة المسيحية؛ وربما بسبب الحسد فإن الآخرين ينبغي أن يكونوا أسياداً لعمل مريح كهذا، ولكن اليونان والأرمن يثبتون اعتقادهم بذلك، ويقومون بحجّهم بصورة رئيسية بناء على هذا الدّافع؛ ولَمّا كانت تعاسة كهنتهم المؤسفة قد سبق وقامت بهذه الخدعة لمدة طويلة جداً، فإنهم مجبرون الآن للتمسك بها خوفاً من مخاطرة جحود جماعتهم.

لدى الخروج من الكنيسة وبعد انتهاء التجمهر وإغلاق الرّاحة، رأينا عدداً من الناس قد تجمعوا حول حجر المسحة المقدّسة وكان معهم مخزون جيد من الشّموع التي جرى إشعالها بالنار المقدّسة، وكانوا مشغولين بدهن قطع من الكتان بفتائلها والشّمع الذائب؛ حيث صُمّمت هذه القطع من الكتان للّف الشّراشف؛ وفكرة هؤلاء الناس الفقراء بأنهم يستطيعون الحصول على السعادة بأن يُدفنوا بكفن مسفوح بهذه النار الإلهية، فإنه بالتأكيد سيحيمهم من نيران جهنم.

الأحد 4 أبريل: كان هذا اليوم عيد فصحننا، فلم نخرج لزيارة أية أمكنة، وكان الوقت يتطلب استخدامه بطبيعة أخرى.

الاثنين، 5 أبريل: ذهبا في هذا الصّباح لنرى أكثر من الغرائب التي لم نقم بزيارتها بعد. وكان المكان الأول الذي وصلنا إليه ما يسمّونه بسجن القديس بطرس St. Peter الذي كان خلاصه منه من قبل الملاك Angel (أعمال الرّسل، الأصحاح 12). وهذا السّجن قريب من كنيسة الضريح المقدّس، ولا يزال يخدم لاستعماله البدائي. وبعد حوالي ثمن ميل من هناك وصلنا إلى كنيسة قديمة يُعتقد بأنها قامت ببنائها هيلينا Helena في المكان الذي كان يقع فيه بيت زبدي Zebedee. وهذا بأيدي اليونانيين الذي يقولون بأن زبدي كان صياد سمك وكان معتاداً بجلب السمك من يافا Joppa إلى هنا، وبيعه في هذا المكان حيث كما يقولون تقع قديماً البوّابة الحديدية التي فتحت لبطرس Peter من تلقاء نفسها. وعلى بعد عدة خطوات تقع الكنيسة الصّغيرة المبنية فوق بيت مرقص Mark الذي وجّه إليه الحوارى Apostle اتجاهاه بعد خلاصه الأعجوبي من السّجن. إن السّريان الذين يملكون هذا المكان بحمايتهم يتظاهرون بأن

يبينوا لك نفس النافذة التي نظرت من خلالها رودا⁽¹⁾ Rhoda بينما قرع الباب بطرس Peter. ويظهرون لك في الكنيسة نسخة مخطوطة سريانية من العهد الجديد في طلحية ورق، وبدا بأن عمرها ثمانمئة واثنان وخمسون سنة، وجرن العماد الحجري الصغير الذي استعمله الحواريون أنفسهم بالتعميد.

وعلى بعد حوالي مئة وخمسين خطوة في نفس الطريق يوجد ما يسمونه بيت القديس توما St. Thomas الذي جرى تحويله سابقاً إلى كنيسة ولكنه الآن مسجد. وبعد خطوات ليست بالكثيرة يوجد شارع آخر يخرق الشارع السابق ويؤدي بك على الجانب الأيمن إلى المكان حيث يقال بأن سيدنا ظهر بعد قيامه للمريمات الثلاث (إنجيل متى، 28: 9). ويخبرك الرهبان بأنهن ثلاث مريمات، بالرغم من أن ذلك مكان القديس متى St. Matthew فإن الرّمم المذكور اثنتان فقط. ويؤدي بك نفس الشارع على الجانب الأيسر إلى الدير الأرمني. وللأمر هنا مساحة كبيرة جداً وسارة من الأرض، ويحتل ديرهم وحديقتهم كامل ذلك القسم من جبل صهيون Mount Sion الذي هو ضمن جدران المدينة. إذ كنيسةهم مبنية فوق المكان حيث يقولون، بأن القديس يعقوب أخا يوحنا قد أُعدم (أعمال الرّسل، 12: 2).

وفي دير صغير على الجانب الشمالي من الكنيسة يظهر نفس المكان الذي ضرب فيه عنقه. ويوجد في هذه الكنيسة مذبحان ببهاء غير عادي مزخرفان بتيجان غنية وقلانس مطرزة وصلبان فضية وزهية وتيجان وكؤوس وأوانٍ كنائسية أخرى لا تُعدّ. ويوجد في منتصف الكنيسة منبر مصنوع من درقات السلاحف والصّدف مع قبة جميلة فوقه من نفس الصّناعة. ودقات السلاحف والصّدف متداخلة بصورة فذة ومنزلة بعضها ببعض بحيث أن قيمة الشّغل تفوق المواد. وبما يشبه القلالي المواجهة لهذه الكنيسة، توجد على أحد جوانب المذبح ثلاثة أحجار كبيرة خشنة تعتبر ثمينة جداً؛ حيث أنّ واحداً منها كان الحجر الذي ألقي عليه موسى اللوحين عندما كسرها غاضباً لدى عبادة بني إسرائيل للأوثان. وقد جلب الحجاران الآخران، واحد منهما من

(1) رودا الجارية في بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس، انظر: أعمال الرّسل، 12: 13.

مكان عمادة سيدنا، والآخر من تجلي المسيح.

وبمغادرة هذا الدّير وبعد مسافة قليلة وصلنا إلى كنيسة صغيرة أخرى كانت أيضاً في أيدي الأرمن. ومن المفروض بأن هذه قد أُسّست في المكان الذي كان يقع فيه بيت حتّان Annas. ويظهر ضمن الكنيسة وغير بعيد عن الباب ثقب في الجدار يدلّ على المكان حيث بادر أحد موظفي الكاهن الأكبر إلى لطم مخلصنا المبارك (إنجيل يوحنا، 18: 22). إنه الموظف الذي بيده غير التّقية قد كال تلك اللطمة، والكهنة ينبغي أن يكونوا نفس مالکوس Malchus الذي شفا سيدنا أذنه. ويوجد في السّاحة قبل هذا الدّير شجرة زيتون قيل عنها بأن المسيح قد رُبط إليها بالسلاسل لفترة من الوقت بأمر من حتّان Annas ليضمّنه من الهرب.

وجرى توجيهنا من بيت حتّان خارج بوّابة صهيون Sion التي تجاور ما يسمّونه بيت قيافا Caiaphas. حيث يوجد دير صغير آخر يخصّ الأرمن أيضاً. ويقولون لنا بأن هنا تحت المذبح يوجد نفس ذلك الحجر الذي وُضع لإغلاق باب ضريح مخلصنا (إنجيل متى، 27: 60). ولقد حُفظ لوقت طويل في كنيسة الضريح، ولكن الأرمن منذ سنوات ليست بالكثيرة سرقوه من هنا بحيلةٍ وحولوه إلى هذا المكان. وطول الحجر يبلغ ياردين وربع وارتفاعه يارد واحد وعرضه نفس ارتفاعه. وهو مطلي في جميع أنحائه ما عدا خمسة أو ستة مواضع صغيرة حيث تُركت عارية لتلقي القبلات المباشرة وصلوات الحجاج. وهنا يرى الزوّار أيضاً زنزانة صغيرة يقال بأنها كانت سجن سيدنا، حتى الصّباح عندما جرى حمله من هناك إلى أمام بيلاطس Pilate؛ وأيضاً المكان حيث تمّ إنذار بطرس Peter بأنه سيُنكر سيّده.

وأبعد قليلاً خارج البوّابة تقع كنيسة العليّة Coenaculum التي يقال بأن المسيح تناول عشاءه الأخير فيها. إنها الآن مسجد ولا يمكن للمسيحيين رؤيتها. ويوجد قريب منها بئر يقال بأنه يحدّد المكان الذي تفرّق الحواريون فيه بعضهم عن بعض ليذهب كل رجل إلى وجهته المختلفة، وقريب من البئر توجد أنقاض بيت من المعتقد أن العذراء المباركة قد لفظت فيه أنفاسها الأخيرة. وبالذهاب شرقاً والنزول قليلاً على

التلة أرونا المكان الذي أوقف فيه يهوديٌ جثة العذراء المباركة عندما كانت محمولة إلى قبرها، بسبب الافتراض غير التقي بأن تلك اليد التي أمسكت بالنعش قد ذوت. وبالنزول كثيراً في وسط التلة أرونا الكهف الذي فيه قد بكى القديس بطرس St. Peter بمرارة بسبب تقلبه نحو سيده.

لم نمدد دورتنا هذه المرة بشكل أبعد، ولكننا دخلنا المدينة ثانية لدى بوابة صهيون Sion وحالما دخلنا استدرنا نحو اليمين، وبالذهاب حوالي ربع ميل قريباً من سور المدينة توجهنا نحو حديقة تقع في أسفل جبل مورياه Mount Moriah على الجانب الجنوبي. وهنا أرونا عدة سرايب كبيرة ملاصقة للجبل من هذا الجانب؛ وتمتد خمسين يارداً على الأقل تحت الأرض. وقد بُنيت في ممرّين مقبّين في الأعلى بحجر صلب هائل، وحُملت بأعمدة طويلة يتألف كل منها من حجر فردي واحد قطره ياردان. ومن الممكن أن هذا بعض أعمال تحت الأرض التي صُنعت لتكبير مساحة المعبد. (Ant. Jud. Lib. xv. cap. ult.)

وعدنا من هذه السرايب نحو الدير. وفي طريقنا مررنا عبر الأسواق التركية وأخذنا نظرة للبوابة الجميلة للمعبد. ولكننا استطعنا أن نراها أثناء مرورنا فقط، حيث لم يكن من المأمون أن نبقي طويلاً هنا، بسبب تشاؤم الأتراك.

الثلاثاء 6 أبريل: وفي الصباح التالي قمنا بتقدّم آخر حول المدينة. فخرجنا لدى بوابة بيت لحم. وبالتفاننا على اليسار تحت حصن البيزيين Pisans وصلنا بعد حوالي ربع ميل إلى ما يسمونه بركة بتشبع Bathsheba. وهي في أسفل جبل صهيون Mount Sion، ومن المفروض أن تكون نفس البركة التي اغتسلت فيها بتشبع عندما تلصّص عليها داوود من سطح قصره. ولكن آخرين يشيرون إلى هذا الحادث ببركة أصغر في حديقة، وذلك ضمن بوابة بيت لحم؛ وربما كان كل من الرأيين على صواب بالتساوي.

و قليلاً تحت هذه البركة يبدأ وادي هنّوم Hinom؛ وعلى جانبه الغربي يقع المكان المسمّى قديماً حقل الخزّاف، وبعد ذلك حقل الدّم وسمّي بذلك لأنه اشترى بقطع الفضة التي كانت ثمن دم المسيح؛ ولكن حالياً أخذ الاسم من ذلك الوقار الذي ناله

المسيحيون، فدعي بالحقل المقدس «كامبو سانكتو» Campo Sancto. وهو عبارة عن بقعة أرض صغيرة طولها لا يزيد عن ثلاثين يارداً وعرضها حوالي نصف طولها. ونصفها يشغله بناء مربع ارتفاعه اثنا عشر يارداً بُني من أجل حجرة للموتى. ويجري تنزيل الجثث إليها من الأعلى، حيث توجد خمس فتحات تُركت مفتوحة لذلك الغرض. وبالنظر إلى الأسفل عبر هذه الفتحات استطعنا رؤية جثث كثيرة وصلت إلى درجات متعددة من التآكل؛ ويمكن أن يُخمن من ذلك بأن هذا القبر لا يقوم بذلك التحلل السريع للجثث العائدة له. إن الأرمن يسيطرون على مكان الدفن هذا، حيث يدفعون من أجله إيجاراً للأتراك قدره سيكويناً Sequin واحداً يومياً⁽¹⁾. والتراب في الجوار ذو مادة حوارية.

وقليلاً تحت الحقل المقدس «كامبو سانكتو» Campo Sancto يوجد كهف متداخل أو ضريح يتألف من عدة غرف واحدة ضمن الأخرى. حيث يقال بأن الحوارين خبؤوا أنفسهم فيه عندما هجروا سيدهم وهربوا. ويدلّ مدخل الكهف على إشارات بأنه كان مزينة بلوحة زيتية في الأزمنة القديمة.

وأبعد بقليل ينتهي وادي هنوم Hinnom، حيث يمتدّ وادي يهوشافاط Jehosiahphat عبر بدايته. وعلى طول أسفل هذا الوادي الصغير يجري جدول أو نهر قدرون Cedron؛ وهو يكون نهيراً في وقت الشتاء، ولكن دون أية قطرة من الماء فيه كل الوقت عندما كنا في القدس.

وفي وادي يهوشافاط أول ما يسترعيك فيه هو بئر نحمياه Nehemiah؛ ويسمّى هكذا لأنه متعارف على كونه نفس المكان الذي استعاد منه مصلح بني إسرائيل نار المذبح وذلك بعد الأسر البابلي Babylonish (سفر المكابيين الثاني، 1: 19). وقليلًا أعلى في الوادي وعلى الجانب الأيسر تصل إلى شجرة من المعتقد أنها تحدّد المكان حيث كان إشعيا Isaiah النبي التوراتي قد نُشر مشطوراً. وفوق حوالي مئة خطوة على الجانب نفسه تقع بركة سلوان Siloam. وكانت قديماً قد كُرمّت بكنيسة فوقها؛ ولكن

(1) السيكوين عملة ذهبية استعملت سابقاً في تركيا وإيطاليا.

عندما كنا هناك لم يتردد دباغ في دبغ جلوده فيها. وبالذهاب حوالي ثمن ميل أبعد على نفس الجانب تصل إلى نبع العذراء المقدسة، وسمي هكذا لأنها كانت معتادة، كما يقال، أن تتردد إلى هنا لتسحب الماء؛ ولكن ليس من المتفق عليه بعد متى كان ذلك وفي أية مناسبات.

فوق ومقابل هذا النبع وعلى الجانب الآخر من الوادي توجد قرية تدعى شيلوح Siloe. يقال بأن سليمان Solomon أسكن فيها زوجاته الغريات؛ ويوجد فوق القرية تلة تسمى جبل الإساءة *Mountain of Offence* لأنه بنى سليمان هناك الأماكن العالية المذكورة (سفر الملوك، 11: 7)، وضللت زوجاته قلبه الحكيم ليتابعن ضلالهن الوثني في أواخر حياته. وعلى نفس الجانب وغير بعيد عن شيلوح Siloe أرونا «أكلداما» Aceldama أي حقل الدّم؛ وقد سمي هكذا لأن يهوذا Judas هناك بالقضاء العادل للإله لقي موته المقدّر، (أعمال الرّسل، 18: 19؛ إنجيل متى، 27: 5). وأبعد قليلاً على نفس الجانب من الوادي أرونا عدة نصب تذكارية يهودية. وبين الباقي يوجد قطعتان أثريتان جليلتان يدعونهما: ضريح زكريا Zachary وعمود أبسالوم Absalom. وقرية من الأخير يوجد ضريح يهوشافاط Jehoshaphat الذي نسبة إليه أخذ الوادي بأسره اسمه.

وعلى طرف التل على الجانب المقابل للوادي يمتدّ سور المدينة بخط مباشر. ويوجد قرب زاويته نهاية قصيرة لعمود تبرز من الجدار. ولدى الأتراك تقليد بأن على هذا العمود سيجلس محمّد⁽¹⁾ للحكم يوم الحشر؛ وسيجتمع سوية جميع العالم في أسفل الوادي ليسمعوا حكمهم من فمه. وأبعد قليلاً نحو الشمال تقع بوابة المسجد وهي في الوقت الحاضر محاطة بجدار، لأن لدى الأتراك هنا تنبؤ بأن خرابهم سيدخل عبر تلك البوابة، ويحاولون لإتمام هذا الإثبات منعه بهذه الوسيلة. ويوجد تحت هذه البوابة في أسفل الوادي حجر عريض وقاس، تظهر عليه عدة طبقات يخيّل لك أنها آثار أقدام. ويخبرك الكهنة بأن هذه الطبقات صنعتها أقدام مخلصنا المبارك، وذلك

(1) رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد القبض عليه أرسل بعنف إلى محكمة معذبيه العطاش للدم.

ومن هنا بعد السكون في أسفل الوادي تصل في بضعة خطوات إلى مكان يدعونه ضريح العذراء المباركة، وثمة نزول كبير إليه وهو سبع وأربعون درجة؛ وعندما تنزل وعلى الجهة اليمنى ضريح القديسة حنة St. Anna الأم، وعلى اليسار ضريح القديس يوسف St. Joseph زوج العذراء المباركة.

وبعد انتهاء زيارتنا لهذا المكان صعدنا التلة نحو المدينة. وأرونا على جانب هذا الصعود حجراً عريضاً لقي عليه، كما يقولون، القديس اسطفانوس St. Stephen الشهادة؛ وغير بعيد منه يوجد كهف يخبرونك عنه بأن المتعصبين اليهود الفجرة ألقوا بجسمه فيه بعد أن أشبعوا غضبهم منه. وذهبنا مباشرة من هنا إلى بوابة القديس اسطفانوس St. Stephen حيث سميت بذلك لقربها من مكان معاناة اسطفانوس أول الشهداء. وهكذا عدنا إلى مكان إقامتنا.

الأربعاء 7 أبريل: وفي الصباح التالي انطلقنا ثانية لكي نرى المعابد والأماكن الأخرى المريئة على جبل الزيتون Mount Olivet. وخرجنا عند بوابة القديس اسطفانوس، ولدى اختراقنا وادي يهوشافاط Jehoshaphat بدأنا مباشرة بصعود الجبال. وعندما صعدنا إلى حوالي ثلثي الطريق وصلنا إلى كهوف معينة منحوتة بتعريجات متداخلة ومغاور تحت الأرض، وهذه تدعى قبور الأنبياء. وأعلى بقليل يوجد اثنا عشر سرداباً تحت الأرض مغطاة بأقواس وتقع جنباً إلى جنب. وقد جرى بناؤها في ذكرى الحوارين الاثني عشر الذين يقال إنهم تلقوا إيمانهم في هذا المكان. وبارتفاع ستين خطوة تصل إلى المكان الذي يقال بأن المسيح تلقظ عنده بنبوته فيما يتعلق بالخراب الأخير للقدس (إنجيل متى، 2: 4). وقليلاً إلى اليمين يقع المكان حيث يقال بأنه فرض للمرة الثانية على حواريه الصلاة الربانية (إنجيل لوقا، 11: 1، 2).

ويوجد أعلى قليلاً كهف القديسة پيلاجيا St. Pelagia؛ وبنفس المسافة أعلى من ذلك يوجد عمود يعرف المكان حيث أعطى ملاك العذراء المباركة تحذيراً بموتها

بعد ثلاثة أيام. وفي أعلى التلة تصل إلى مكان صعود سيدنا المبارك. وكانت هنا قديماً كنيسة كبيرة بنيت على شرف ذلك النصر المجيد؛ ولكن كل الذي بقي الآن منها قبة مثمثة الجوانب قطرها حوالي ثمانية ياردات تقع كما يقال، فوق نفس المكان الذي كانت فيه آثار الأقدام الأخيرة له هنا في الأرض. وداخل القبة يرى كما يقال؛ طبعة إحدى قدميه على حجر قاس. وهنا كانت أيضاً طبعة قدمه الأخرى منذ بعض الوقت؛ ولكن جرت إزالتها من هنا من قبل الأتراك إلى داخل المسجد الكبير على جبل مورياه Moriah. ودير الصعود هذا يقوم الأتراك بحفظه ويستعملونه كمسجد. وتوجد أماكن مقدسة أخرى عديدة حول القدس، يتظاهر الأتراك بأنهم يعيرونها الاحترام بالتساوي مع المسيحيين. وبموجب هذا التظاهر يأخذونها بين أيديهم. ولكن فيما إذا كانوا يفعلون هذا بتقوى حقيقي أو من أجل الكسب، بغرض أنه يمكنهم فرض أموال على المسيحيين للدخول إليها، فإنني لا أستطيع تحديد ذلك.

حوالي ثماني ميل من هذا المكان شمالاً يقع أعلى قسم من جبل الزيتون Mount Olivet؛ وفوق ذلك جرى قديماً بناء برج عالٍ في ذكرى ظهور الملكين على الحواريين وذلك بعد صعود سيدنا المبارك. (أعمال الرسل، 1: 10، 11) ومنه أعطى البرج نفسه اسمه وهو *Viri Galilaei*. وبقي هذا الصرح التذكاري القديم حتى ستين عندما هدمه تركي كان قد اشترى الحقل الذي كان فيه البرج؛ ولكن مع ذلك لا يزال لك من الارتفاع الطبيعي للمكان منظر كبير للقدس والريف المجاور وللبحر الميت، إلخ... ونزلنا الجبل من هذا المكان ثانية عبر طريق آخر. وفي حوالي نصف الطريق نزولاً يُظهرون لك المكان الذي رأى منه المسيح المدينة وبكى عليها (إنجيل لوقا، 19: 41).

وأخفض بحوالي عشرين يارداً يُظهرون لك جثسَمَني Gethsemane وهي قطعة أرض منبسطة ليست أكثر من سبعة وخمسين يارداً مربعاً، وتقع بين أسفل جبل الزيتون وجدول قِدرون Cedron. وهي مزروعة بشكل جيد بأشجار الزيتون القديمة جداً بحيث أنها من المعتقد قد وُجدت هنا في زمن مخلصنا المبارك. وبسبب هذا الاعتقاد

فإن الزيتون وبذر الزيتون والزيت المنتج أصبح سلعة ممتازة في إسبانيا. ولكن لا يمكن لهذه الأشجار بأن تكون قديمة لدرجة ما يزعمون وذلك واضح من ما يصرح به يوسيفوس (Josephus (Lib. 7. Bell. Jud. Cap. 15)، وفي أماكن أخرى، أي أن تيطوس Titus في حصاره للقدس قطع جميع الأشجار ضمن حوالي ثلاثة عشر ميلاً من القدس؛ وأجبر الجنود بأن يجلبوا الخشب من هذه المسافة لعمل أكوامهم عندما هاجموا المعبد.

وفي الزاوية العليا من الحديقة توجد حافة منبسطة وعارية من الصخر، يشيع بأنها المكان الذي نام فيه الحواريون بطرس Peter ويعقوب James ويوحنا John أثناء احتضار سيدنا. ويوجد بعد عدة خطوات من هنا كهف يقال بأنه المكان الذي تلقى فيه المسيح ذلك الجزء المرير من عذابه.

وحوالي ثماني خطوات من المكان حيث نام الحواريون، توجد قطعة أرض صغيرة طولها اثنا عشر يارداً وعرضها يارد واحد، من المعتقد بأن تكون نفس الممر الذي صعد فيه الخائن يهوذا Judas إلى المسيح قائلاً: السلام عليك يا سيّد، وقتله. وهذا الممر الضيق مفصول بجدار عن وسط الحديقة كأرض ملعونة؛ وهو عمل جدير بالملاحظة وقد قام به الأتراك بالإضافة للمسيحيين الذين يُغضون نفس الأرض التي جرت بها هذه الخيانة المشهورة.

ومن هنا اخترقنا جدول قدرون، قريباً من الضريح المشهور للعدراء المباركة. ولدى دخولنا بوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen عدنا ثانية إلى الدير.

الخميس 8 أبريل: ذهبنا لرؤية قصر بيلاطس⁽¹⁾ Pilate، أعني المكان حيث يوجد الآن بيّت تركي عادي فيه غرفته. إنه غير بعيد من بوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen ويجاور المعبد في الجانب الشمالي. ومن سطح هذا البيت ترى جيداً كل المكان حيث يقع المعبد، وهو حقاً المنظر الوحيد الجيد الذي يُسمح لك منه؛ لأنه

(1) بيلاطس هو الحاكم الروماني لمقاطعة اليهودية الذي سمح لليهود بصلب عيسى عليه السلام.

لا يمكنك الذهاب داخل حدوده دون أن تخسر حياتك، أو وهو الأسوأ، أن تخسر دينك. ولم يكن ممكناً في جميع أنحاء العالم أن تجد مكاناً أنسب من هذه المنطقة لبناء معبد. إنه يقع في أعلى جبل مورياه Moriah مقابل جبل الزيتون Olivet، ووادي يهوشافاط Jehoshaphat يقع بين الجبلين. وحسبما استطعت أن أحسب بالمشي حوله من الخارج، وجدته خمسمئة وسبعين خطوة من خطواتي طولاً، وثلاثمئة وسبعين خطوة عرضاً؛ ويمكن للمرء أن يرى حتى الآن علامات العمل الكبير الذي تمّ لقطع الصخر القاسي وإزالته، ولتسوية منطقة واسعة كهذه على جبل صلد جداً. وفي وسط المنطقة يقع حالياً مسجد ذو شكل مثنى حيث كان يقع قديماً قدس الأقداس Sanctum Sanctorum. إنه ليس بارزاً بالنسبة لكبره ولا لبنائه؛ ولكن ما يجعله شكلاً جليلاً جداً هي المزية الوحيدة لموقعه.

في هذا البيت المزعوم لبيلاطس Pilate نرى الغرفة التي جرى الاستهزاء فيها بالمسيح من قبل ضباط الملكية واللكم من قبل الجنود، وبالخروج من البيت يوجد نزول حيث كانت قديماً الدّرجات المقدّسة Scala Sancta. وعلى الجانب الآخر من الشارع (الذي كان قديماً جزءاً من القصر أيضاً) توجد الغرفة التي يقال بأنه جرى فيها جلد سيدنا، وقد كانت تُستعمل مرةً كل صطبل من قبل ابن أحد باشاوات القدس؛ ولكن في الوقت الحاضر ولدى هذا الامتهان يقولون بأنه أتى وباء مميت بين خيوله ممّا أجبره على أن يتخلى عن المكان، وبذلك جرى خلاصه من ذلك الاستعمال الوضيع؛ ولكن مع ذلك عندما كنا هناك لم يكن أحسن من دكان حائك.

ولدى عودتنا من قصر بيلاطس مررنا على طول طريق الآلام Dolorous الطريق المحزن حيث أرونا في هذه المسيرة بالترتيب: أولاً، المكان حيث جلب بيلاطس سيدنا ليقدمه للناس بقوله الخفي «هو ذا الرّجل!» ثانياً، حيث أغمي على المسيح ثلاث مرات وذلك تحت وزن صليبه؛ ثالثاً، حيث أغمي على العذراء المباركة بسبب هذا المشهد المفجع؛ رابعاً، حيث قدّمت له القديسة فيرونيقا St. Veronica المنديل ليمسح جبهته الدّامية؛ خامساً، حيث أجبر الجنود شمعون القيريني Simon the

Cyrenian ليحمل صليبه. وأنا أقتصر هنا على تسمية هذه الأماكن.

الجمعة 9 أبريل: ذهبنا لنلقي نظرة على تلك البركة التي يدعونها بركة بيت حسدا Bethesda. وطولها مئة وعشرون خطوة وعرضها أربعون، وعمقها على الأقل ثماني خطوات. ولكنها فارغة من الماء. ولدى نهايتها الغربية تظهر بعض القناطر القديمة، وهي الآن مسدودة. وعند بعض هذه ينبغي أن تكون الأروقة الخمسة التي غصّت بذلك الجمهور من العرجان والخرسان والعميان (إنجيل يوحنا، الأصحاح 5). ولكن ما يدعو إلى الخيبة هو أنه عوضاً عن وجود خمسة يوجد منها ثلاثة فقط. وهذه البركة مجاورة على جانب واحد لبوابة القديس اسطفانوس St. Stephen وعلى الجانب الآخر مجاورة لمنطقة الهيكل.

ذهبنا من هنا إلى الدير أوبيت راهبات القديسة حنة St. Anne. إن الكنيسة هنا كبيرة وكاملة وهكذا أيضاً قسم من المساكن؛ ولكن كلاهما مخرب ومهجور. وفي كهف تحت الكنيسة أرونا المكان الذي كما يقال وُلدت فيه العذراء المباركة. وقرب هذه الكنيسة أرونا بيت المنافقة، حيث عرضت مريم المجدلّية Mary Magdalen تلك الأدلة البارعة لشعور التّدم نحو مخلصنا؛ «حيث غسلت قدميه بدموعها ومسحتهما بشعرها» (إنجيل لوقا، 7: 38)، ولقد عظم هذا المكان قديماً بأبنية مقدّسة ولكنها الآن مهجورة.

كان هذا شغلنا في الصّباح. وذهبنا بعد الظهر لنرى جبل جيحون Gihon والبركة التي بذات الاسم. وهي تقع على بُعد حوالي ربع ميل خارج بوابة بيت لحم غرباً. إنها بركة جليلة طولها مئة وست خطوات وعرضها سبع وستون خطوة. وهي مبطنّة بجدار وملاط. وكانت عندما كنا هناك مملوءة جيداً بالماء.

السبت 10 أبريل: ذهبنا لنودّع الضريح المقدّس؛ وكانت هذه المرة الأخيرة التي يكون فيها مفتوحاً في هذا الاحتفال.

ولدى يوم الانتهاء هذا واللييلة التالية، سمح الأتراك بدخول مجاني لجميع الناس

دون طلب أي رسم للدخول كما هو الحال في الأوقات الأخرى، ويدعونه يوم الإحسان.

الأحد 11 أبريل: وبدأ الآن عيد الأثراك Byram أي العيد⁽¹⁾ الذي يحتفلون به بعد صومهم الذي يسمونه رمضان. وفي هذا الوقت يحصل هرج ومرج كبيران بين عامة الناس. وفكرنا أنه من الحكمة أن نحصر أنفسنا في أماكن إقامة لفترة من الوقت بغرض أن نتجنب هذه الفورة التي هي عادية في مثل هذا الوقت من الاحتفالات الشعبية. إن اعترنا كان أقل إزعاجاً، لأنه لم يكن تقريباً أي شيء إما في المدينة أو حولها الذي سبق لم نقم بزيارته.

الاثنين 12 أبريل - الثلاثاء 13 أبريل: بقينا قريبين من أماكن سكننا، ولكن على كل حال دون بطالة فقد حان الوقت الآن لندبر ونجهز أشياء لمغادرتنا. وكان لنا قصة من جميع الجهات، حيث كانت البلد منزعة أكثر فأكثر بسبب العرب. وهذا الذي جعلنا إلى حد ما لا نقرر أية جهة وطريقة نتبع لعودتنا. ولكن أثناء توقفنا جرى إخبارنا بأن المتسلم mosolem كان مثلنا يتأهب ليعود إلى سيده پاشا طرابلس؛ وعند هذا الخبر قررنا إن كان ممكناً بأن ننضم إلى جماعته.

الأربعاء 14 أبريل: ذهبنا وبأيدينا هدية صغيرة لزيارة المتسلم لكي نستفسر عن وقت مغادرته وإعلامه برغبتنا في الذهاب تحت حمايته، فأكد لنا انطلاقه في الصباح التالي؛ ولهذا استأذناه مباشرة مودعين لتحضير أنفسنا لمرافقته.

كنت أريد قبل مغادرتنا قياس محيط المدينة؛ وهكذا أخذت معي أحد الكهنة وخرجت بعد الظهر لكي أقيس الجدران حولها. وخرجنا لدى بوابة بيت لحم وتابعنا نحو اليمين حتى وصلنا نحو البوابة الثانية. فوجدت بأن محيط كامل المدينة يبلغ 4630 خطوة، وقد حسبته كالتالي:

(1) يقصد عيد الفطر، وهو بالتركية: بيرم.

| خطوات | |
|-------|--|
| 400 | من بَوَّابة بيت لحم إلى الزَّاوِية على اليمين |
| 680 | من تلك الزَّاوِية إلى بَوَّابة دمشق |
| 380 | من بَوَّابة دمشق إلى بَوَّابة هيرود Herod |
| 150 | من بَوَّابة هيرود إلى سجن إرميا Jeremiah |
| 225 | من سجن إرميا إلى الزَّاوِية التالية لوادي يهوشافاط |
| 385 | من تلك الزَّاوِية إلى بَوَّابة القديس اسطفانوس St. Stephen |
| 240 | من بَوَّابة القديس اسطفانوس إلى البَوَّابة الذهبية |
| 380 | من البَوَّابة الذهبية إلى زاوية الجدار |
| 470 | من تلك الزَّاوِية إلى بَوَّابة الزَّبل Dung gate |
| 605 | من بَوَّابة الزَّبل إلى بَوَّابة صهيون Sion |
| 215 | من بَوَّابة صهيون إلى زاوية الجدار |
| 500 | من تلك الزَّاوِية إلى بَوَّابة بيت لحم |
| 4630 | |

يمكن إنقاص خطواتي إلى ياردات بطرح عشر جزء، بحيث أن عشرة من خطواتي تساوي تسع ياردات؛ وبهذا الحساب فإن 4630 خطوة تساوي 4167 يارداً، وهذه تساوي ميلين ونصف فقط.

* * *

الخميس 15 أبريل: في هذا الصُّباح قُدِّم لنا دبلوما سيونا من قبل الأب الحارس ليؤكد لنا بأننا قد زرنا جميع الأماكن المقدَّسة. وقَدَّمنا للدير خمسين دولاراً لكل رجل كهبة مقابل أتعابهم، بالنسبة للخدمات التي قضيناها فيما بيننا وعقب ذلك قمنا بتوديعهم.

انطلقنا سوية مع المتسلَّم mosolem، وتابعنا في نفس الطريق الذي أتينا منه، وبتنا

في الليلة الأولى في خان لبنان Kane Leban. ولكن المتسلّم تركنا هنا وتابع مشواره حتى نابلس Naplosa؛ وهكذا لم نره بعد ذلك. كان الفلاحون يحرقون في كل مكان في الحقول لكي يزرعوا القطن، وكان من الملاحظ بأنهم استعملوا في حرائقهم محارث ذات قياس غير عادي، ولدى قياس عدة منها وجدتها حوالي ثمانية أقدام طولاً؛ وفي نهايتها الكبرى كان محيطها ستة إنشات. وفي نهايتها الصغرى كانت مسلحة بمنخاس حاد لسوق الثيران، وكان في نهايتها الأخرى رفش صغير أو مخباط حديدي قوي وجسيم وذلك لتنظيف المحراث من الغضار الذي يعيقه في تشغيله. ألا يمكننا أن نخمن من هنا بأنه بمنخاس كهذا قام شمغار Shamgar بمذبحته الهائلة؟ (سفر القضاة، 3: 31)، إنني واثق من أن أي شخص يرى إحدى هذه الأدوات سيحكم عليها بأنها سلاح ليس أقل ملاءمة، وربما أكثر ملاءمة من سيف لمثل هذا القتل. ومناحس من هذا النوع رأيتُه يُستعمل دائماً في هذه الأماكن، وفي سوريا أيضاً؛ والسبب لذلك أن نفس الشخص الوحيد يقوم بكل من قيادة الثيران والإمساك بالمحراث وإدارته، مما يجعله من الضروري استعمال منخاس كهذا كما هو موصوف أعلاه، لتجنّب استعمال أدواتين.

الجمعة 16 أبريل: بمغادرتنا خان لبنان تابعنا ولا نزال في طريقنا السابق؛ وبمرورنا في نابلس Naplosa والسامرة Samaria وصلنا إلى نبع سيلة الظهر Selee. وهناك أقمنا هذه الليلة.

السبت 17 أبريل: تابعنا في الصباح التالي في نفس الطريق الذي سافرنا فيه عندما كنا متجهين للخارج، حتى وصلنا إلى كفر عرب Caphar Arab. وفي هذا المكان تركنا طريقنا السابق، وعوضاً من أن نستدير إلى اليسار للذهاب إلى عكا Acra حافظنا على طريقنا مستقيماً إلى الأمام مقررّين أن نخترق مباشرة بانحراف سهل إسدرايلون⁽¹⁾ Esdraelon ونزور الناصرة Nazareth.

وبتقدّمنا في الطريق من كفر عرب، وصلنا في حوالي نصف ساعة إلى جنين Jeneen.

(1) هذه التسمية يونانية ويقابلها في العربية: مرج ابن عامر.

وهذه مدينة قديمة كبيرة على أطراف إسداريلون؛ وفيها قلعة قديمة ومسجدان، وهي السكن الرئيسي للأمير شبلي Chibly. وهنا جرى توجيهنا بأمر من الأمير بالانتقال أبعد من ذلك، حتى يأتي هو شخصياً ليتسلم منا إتاوته. كانت تلك أخباراً غير مرحب بها لنا، حيث كان قد قابلنا بتجربة للطفه من قبل. ولكن على كل حال لم يكن لدينا علاج لذلك، وهكذا فكرنا أنه من الأحسن أن نتقيد بقناعة بقدر ما استطعنا. وبقينا معلقين هكذا من الساعة الثانية صباحاً حتى غروب الشمس، وعندئذ استلمنا أمراً من الأمير بأن تُدفع الإتاوة إلى الضابط الذي أرسله ليتسلمها ويصرفنا.

وبتسلمنا هذه الرخصة أسرعنا بقدر ما استطعنا لإرسال الإتاوة ولتخلص من هؤلاء العرب، ولكن على رغم كل اجتهدنا كان الوقت قريباً من منتصف الليل قبل أن تمكنا من الانتهاء. وبعد ذلك غادرنا، ولدى دخولنا مباشرة إلى سهل إسداريلون سافرنا فيه كل الليل، وخلال سبع ساعات وصلنا إلى جانبه الآخر. وهنا واجهنا صعوداً منحدر جداً وصخري؛ ولكن على كل حال سيطرنا عليه خلال نصف ساعة، ووصلنا إلى الناصرة.

الأحد 18 أبريل: الناصرة في الوقت الحاضر مجرد قرية غير كبيرة، تقع في نوع من وادٍ مدور ومقعر على رأس تلة عالية. وجرى إكرامنا في الدير المبني فوق مكان البشارة. ويوجد في هذا المكان الذي كان مسوراً سبعة أو ثمانية آباء لاتين يعيشون حياة ذليلة حقاً، حيث أنهم دائماً يخوف من العرب الذين هم الأسياد المطلقون للبلد.

ذهبنا بعد الظهر لزيارة معبد هذا المكان، تقع كنيسة الناصرة في كهف من المعتقد بأن يكون المكان الذي تسلمت فيه العذراء المباركة تلك الرسالة المفرحة للملاك: «السلام عليك يا ممتلئة نعمة إلخ..» (إنجيل لوقا، 1: 28) فهي تشبه شكل الصليب. إن ذلك القسم منها الذي يقع لدى شجرة الصليب يبلغ أربع عشرة خطوة طولاً وست خطوات ارتفاعاً؛ ويمتد مباشرة إلى الكهف، وليس له قوس آخر فوقه من الأعلى، سوى الذي من الصخر الطبيعي؛ والقسم المعاكس للصليب يبلغ تسع خطوات طولاً وأربع خطوات عرضاً، وهو مبني مقابل فم الكهف.

وتاماماً في قسم الصليب يوجد مُركباً عمودان من الغرانيت كل منهما محيطه قدمان وإنش واحد، ويبعد الواحد عن الآخر حوالي ثلاثة أقدام. ومن المعتقد بأنهما موجودان في نفس المكانين: المكان الأول حيث كان الملاك، والمكان الآخر حيث وقفت العذراء المباركة عند وقت البشارة. والعمود الذي في أقصى الدّاخل كان عمود العذراء المباركة، وقد كسره الأتراك لتوقعهم بوجود كنز تحته؛ وهكذا فإن ثمانية عشر إنشاً من طوله قد ذهب بين العمود وقاعدته. ومع ذلك فهو لا يزال منتصباً، وبالرغم من ذلك لا أستطيع أن أُميّز بأي فن هو محمول. فأعلاه يلامس السقف ومن المحتمل أنه معلق عليه؛ هذا ما لم تأخذ كلام الكهنة عنه، أي أنه مدعوم بأعجوبة.

وبعد ذلك ذهبنا لرؤية بيت يوسف Joseph، وهو نفسه كما يخبرونك بأن المسيح سكن فيه لمدة ثلاثين عاماً تقريباً (إنجيل لوقا، 2: 51). وغير بعيد من هنا يظهر لك كنيسة لليهود حيث بشر سيدنا المبارك بتلك الموعظة (إنجيل لوقا، الأصحاح 4) التي أثار بها جداً أهل بلده. وهذان المكانان كلاهما يقعان شمال غربي الدّير، وكانا قديماً مكرّمين كلاً منهما بكنيسة أنيقة؛ ولكن هذه الأبنية الأثرية لتقوى الملكة هيلينا Helena هي الآن خراب.

الإثنين 19 أبريل: قررنا في هذا اليوم زيارة جبل تابور Tabor الذي يقع بمفرده في سهل إسدرايلون Esdraelon حوالي ربع ميل داخل السهل.

وبكونه واقعاً بهذا الشكل المنفصل قد استمال معظم المؤلفين بأن يستنتجوا بأن هذا يجب أن يكون ذلك الجبل المقدّس (كما يحدّده القديس بطرس - رسالة بطرس الثانية، 1: 18) الذي كان مكان تجلّي سيدنا المسيح المبارك. والمنسوب إلى (إنجيل متى، الأصحاح 17؛ وإنجيل مرقس، الأصحاح 9). وهناك تقرأ بأن المسيح «أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا إلى جبل كلاً على حدة»، وهم يستنتجون من هذا الوصف بأن ذاك الجبل الذي جرى الحديث عنه لا يمكن أن يكون غير تابور.

ووصلنا بعد صعود متعب جداً استغرق قرابة ساعة، إلى أعلى قسم من الجبل، حيث له منطقة سهل في الأعلى خصبة ونضرة للغاية ذات شكل بيضوي تمتدّ حوالي

ثمن ميل عرضاً وربع ميل طولاً. وهذه المنطقة محاطة بأشجار على جميع الجهات ما عدا نحو الجنوب. وكانت قديماً مطوقة بجدران وخنادق وتحصينات أخرى تُعرض منها بقايا كثيرة في هذا اليوم.

توجد في هذه المنطقة في عدة أماكن خزانات ماء جيد؛ ولكن تلك التي تُقصد بالزيارة بورع أكثر من سواها ثلاثة كهوف متجاورة حيث صُنعت لتمثل المظلات الثلاث التي اقترح القديس بطرس St. Peter بأن تقام، وذلك بالدهشة التي تملكته بمجد تجلّي المسيح. «يقول السيد، إنه من الجيد لنا بأن نكون هنا؛ ودعونا نصنع ثلاث مظلات؛ واحدة لك، إلخ...».

لا أستطيع أن أمتنع أن أذكر في هذا المكان ملاحظة واضحة جداً لجميع الذين يزورون الأرض المقدسة، وهي أن تقريباً كل العبارات والتواريخ الواردة في الإنجيل معبّر عنها ويجري بها التعهد ببيان أين تمّ حصول كل شيء، حيث أن معظمها جرى عمله في كهوف؛ وحتى في أحوال كهذه حيث أن شرط وظروف الأعمال نفسها تبدو بأنها تتطلب أماكن ذات طبيعة أخرى.

وهكذا إذا كنت تريد رؤية المكان حيث ولدت القديسة حنة St. Anne العذراء المباركة، فإنك تُساق إلى كهف؛ وجميع الأماكن التالية هي أيضاً كهوف: مكان البشارة، المكان الذي حيّت فيه العذراء المباركة إليصابات Elizabeth؛ مكان المعمدان، مكان ميلاد مخلصنا المبارك، مكان الاحتضار؛ مكان توبة القديس بطرس St. Peter، المكان الذي صنع فيه الحواريون دستور الإيمان، مكان تجلّي المسيح. وبكلمة واحدة حيثما تذهب تجد تقريباً كل شيء يتمثل عمله تحت الأرض. وبالتأكيد فإن الكهوف كانت قديماً تُستمسك باحترام عظيم؛ وإلا لم يكن من الممكن لها أبداً بأن تُخصص، بالرغم من جميع الاحتمالات، للأماكن التي جرت فيها أعمال متعدّدة وكثيرة جداً. وربما كانت طريقة الزّهاد للعيش في كهوف من القرن الخامس أو السادس وفيما بعد، ممّا جعلها منذ ذلك الحين بهذه الشهرة الكبيرة جداً.

ومن أعلى جبل تابور Tabor تتلقّى منظرًا يكافئ تماماً جهد تسلقه. إنه من

المستحيل لعيون بشرية أن تُبصر مكافأة أعلى من هذه الطبيعة. وإنك ترى في الشمال الغربي وعلى مسافة البحر الأبيض المتوسط، كما وإنك في جميع الأنحاء حولك ترى سهول إسدرايلون⁽¹⁾ Esdraelon والجليل Galilee الفسيحة الجميلة التي تقدّم لك منظر كثير من الأماكن الشهيرة لملجأ وأعاجيب المسيح.

وتقع في أسفل جبل تابور غرباً الدّبورّة Daberah، وهي قرية صغيرة كما يعتقدونها البعض بأنها قد أخذت اسمها من ديورا Deborah تلك القاضية الشهيرة ومخلصة إسرائيل. وقرب هذا الوادي يقع وادي نبع قيشون Kishon .

وإنك ترى على بعد عدة فراسخ شرقاً جبل حرمون Hermon (الشيخ)؛ حيث تقع نائين Nain في أسفله وهي مشهورة لتربية سيدنا لابن الأرملة هناك (إنجيل لوقا، 7: 14)؛ كما تقع إندور Endor وهي المكان حيث سكنت الساحرة التي استشارها شاول Saul. وباتجاهك قليلاً نحو الجنوب فإنك ترى جبال جلبوع Gilboa العالية المميّنة لشاول Saul وأبنائه.

وإنك تكتشف نحو الشرق بحر طبريّة Tiberias، وهو يبعد حوالي رحلة يوم واحد؛ وقريباً من ذلك البحر أرونا جبلاً منحدرًا، وفي أسفله ركضت الخنازير وماتت في المياه (إنجيل متى، 8: 32).

ويظهر بعد بضعة نقاط نحو الشمال ذلك الذي يسمونه جبل الطوبى *Mount of the Beatitudes*؛ وهو مرتفع صغير ألقى منه مخلصنا مواعظته وذلك في الفصول الخامس والسادس والسابع من إنجيل القديس متى St. Matthew. وغير بعيد من هذه التلة تقع المدينة صفد Saphet التي من المفروض أن تكون بيثوليا Bethulea القديمة. وهي تقع فوق جبل عالٍ وواضح جداً، ويُرى من بعيد وقريب. ومن المعتقد بأن المسيح يشير إلى هذه المدينة بتلك الكلمات لموعظته (إنجيل متى، 5: 14) «مدينة واقعة على تلة لا يمكن إخفاؤها؟» التخمين الذي يبدو الأكثر احتمالاً، لأن سيدنا كان معتاداً في

(1) هذه التسمية يونانية ويقابلها في العربية: مرج ابن عامر.

عدة أماكن أن يبين في حديثه مقارنات مأخوذة من أشياء كانت آتخذ حاضرة أمام أعين مستمعيه. كما عندما يأمرهم «انظروا طيور الهواء (الأصحاح 5: 16) وزنابق الحقل» (الأصحاح 6: 28).

وترى من جبل تابور Tabor كذلك منظر المكان الذي سيخبرونك بأنه كان دوتائم Dothaim حيث جرى بيع يوسف Joseph من قبل إخوانه؛ وأيضاً الحقل الذي قد أطعم فيه مخلصنا المبارك الناس أرغفة قليلة وسمكاً أقل.

* * *

لما بلغنا حدّ الاكتفاء الكبير بمنظر هذا الجبل رجعنا إلى الدّير بنفس الطريق الذي أتينا منه. وبعد العشاء قمنا بجولة صغيرة أخرى لكي نرى ذلك الذي يدعونه جبل السّرعَة Moutoin of Precipitation؛ أي جانب التل الذي ألقى منه الفتيان المنذورون للرّب (عند قدماء الإسرائيليين) Nazarites مخلصنا المبارك، حيث أُثير سخطهم بموعظته التي جرى تبشيرها إليهم (إنجيل لوقا، الأصحاح 4). ويعد هذا الأحودور على الأقل نصف فرسخ عن النّاصرة جنوباً. وبالذهاب إليه فإنك أولاً تجتاز فوق الوادي حيث تقع النّاصرة. ومن ثم بالنزول حوالي ربع ميل في شق ضيق بين الصّخور، فإنك هناك تتسلق طريقاً قصيراً ولكنه صعب على الجانب الأيمن؛ وفي أعلاه تجد حجراً كبيراً يقع على حافة الأحودور الذي يقال بأنه نفس المكان حيث قُدّر على سيدنا بأن يلقى إلى الأسفل من قبل جيرانه السّاخطين لولا أنه لم يحم بهرب أعجوبي من بين أيديهم. ويرى في هذا المكان خزانان أو ثلاثة خزانات لحفظ الماء، بالإضافة إلى بضعة أنقاض؛ وهذا كل ما يبقى من بناء ديني أسسته الإمبراطورة هيلينا Helena.

الثلاثاء 20 أبريل: غادرنا النّاصرة في الصّباح التالي، وقَدّمنا للحارس مبلغ خمسة عن كل شخص لإزعاجه وأجرته لضيافتنا. وتوجهنا نحو عكاّ Acra؛ بذهابنا أولاً شمالاً، واخترقنا التلال التي كانت تحيط بوادي النّاصرة على ذلك الجانب. واستدردنا بعد ذلك غرباً، وجُلنا بنظرنا على قانا Cana التابعة للجليل Galilee؛ وهو المكان

المشهور ببداية معجزات المسيح (إنجيل يوحنا، 2: 11). وخلال ساعة ونصف وصلنا إلى صفورية Sepharia؛ وهي مكان مبارك لكونه السكن الشهير ليوachim Joachim وحنة Anna أبوي العذراء المباركة. وكانت تسمى سابقاً ديوقيصريّة Diocesaria، وكانت مكاناً ذا شهرة جيدة؛ ولكنها الآن انحدرت إلى قرية فقيرة، وتبدو هنا وهناك بضعة أطلال فقط لتؤكد وضعها القديم الذي كان أحسن. وعلى الجانب الغربي للمدينة يقع قسم جيد لكنيسة كبيرة بُنيت في نفس المكان حيث يقال كان يقع بيت يواخيم وحنة؛ وطوله خمسون خطوة وعرضه قابل للتناسب.

وفي صفورية يبدأ سهل زبولون Zabulon بالغ النَّضرة. واستغرقتنا في اجتيازه ساعة ونصف؛ وبعد ساعة ونصف أخرى مررنا بقرية خربة على اليمين واسمها سَتيرا Satyra. وبعد نصف ساعة دخلنا سهول عكا Acra. وبعد ساعة ونصف أخرى وصلنا إلى ذلك المكان. وكان مشوارنا في هذا اليوم أقل من سبع ساعات، وكان يمتدّ غرباً وشمالاً وعبر ريفٍ بهيجٍ وخصب جداً بما يفوق التصور.

الأربعاء 21 أبريل: وفي عكا عاملنا القنصل الفرنسي والتاجر بمعاملة كبيرة جداً، كما عوملنا عندما كنا متجهين خارجاً. وبعد إقامتنا ليلةً واحدةً غادرنا عائدين بنفس طريق الساحل الذي وصفته من قبل؛ ووصلنا في الليلة الأولى إلى محل إقامتنا القديمة لدى خزانات سليمان Solomon، وفي الليلة الثانية وصلنا إلى صيدا Sidon.

الخميس 22 أبريل: وعلى بعد ثلاث ساعات من صيدا رافقنا القنصل الفرنسي لنرى مكاناً مررنا به ولم نأخذه بعين الاعتبار في رحلتنا للخارج؛ بالرغم من أنه يستحق جيداً جداً ملاحظة المسافرين.

فعلى بعد حوالي ميل من البحر، كان يمتدّ جبل صخري عالٍ؛ وعلى جانبه عدد كبير من الكهوف المنحوتة وجميعها صغيرة جداً وتختلف عن بعضها؛ ولها مداخل تبلغ حوالي قدمين مربعين. وتجد في الدّاخل في معظمها أو في جميعها غرفة مساحتها حوالي أربعة ياردات مربعة وعلى جانبها الباب، وعلى الثلاثة الأخريات توجد حجيرات صغيرة كثيرة وهي مرتفعة حوالي قدمين فوق الأرض. ويوجد من

هذه الكهوف التحت أرضية، كما أُخبرت من قِبَل الذين قاموا بعَدها، مَتَّين منها. وهي تسمّى باسم الكهوف الذي هو ⁽¹⁾_____.

والشك الكبير بخصوصها هو فيما إذا كانت معمولة للأموات أو للأحياء. والشئ الذي يجعلني أشك هو أنه بالرغم من أن جميع القبور القديمة في هذا البلد تشبه كثيراً هذه الكهوف؛ فمع ذلك فيها شيء غريب يغري المرء بأن يعتقد بأنها من الممكن قد صُمِّمت لإيواء الأحياء؛ لأن عدداً من الحجيرات في الدّاخل كانت ذات شكل غير ملائم لاستقبال الجثامين لتودع فيها حيث كانت مساحة الواحدة حوالي يارد مربع، بعضها أكثر وبعضها أقل من ذلك، وتبدو بأنها صنعت لاستعمالات عائلية. وأمام باب كل حجرة توجد قناة محفورة لتصريف الماء الذي يمكن أن يُزعج الغرف بالداخل. كذلك لأن الحجيرات بعضها أعلى وبعضها أخفض في جانب الصّخر، كما توجد هنا درجات محفورة لتسهيل الاتصال بين المناطق العليا والسفلى. ويوجد أيضاً في أسفل الصّخر عدة خزانات لتخزين الماء. ويمكن الاستنتاج من جميع المجدالات، مع الاحتمال على الأقل، بأن هذه الأماكن قد ابتُدعت لاستعمالها للأحياء وليس للأموات. ولكن ماذا كان نوع الناس الذي سكنوا هذه المدينة التّحت أرضية، أو منذ متى عاشوا هنا، إنني لا أستطيع أن أقرر.

الجمعة 23 أبريل: تابعنا هذا اليوم في صيدا Sidon، وجرت معاملتنا من قبل أصدقائنا من الأمة الفرنسية بكرم كبير.

السبت 24 أبريل: غادرنا هذا الصّباح القنصل الفرنسي الفاضل وبقية أصدقائنا الآخرين من تلك الأمة، لكي نذهب إلى دمشق.

تقع دمشق باتجاه قريب شرقاً من صيدا، وتقدر عادةً المسافة برحلة ثلاث أيام، ويمتدّ الطّريق فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية.

(1) فراغ في الأصل بجميع الطبقات مقدار كلمة، وأظن المقصود مغاور عدلون التي بها آثار تعود إلى عصور البيزنطيين والفينيقيين وعصور ما قبل التاريخ.

وبذهابنا حوالي نصف ساعة عبر مزارع الزيتون وصلنا إلى أسفل جبل لبنان. وخلال ساعتين ونصف أخرى وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى كفر ملكي Caphar Milkei. وإلى هذا الحد كان صعودنا سهلاً؛ ولكن الآن بدأ يصبح أكثر انحداراً وصعوبة؛ وقد جاهدنا فيه ساعة وثلاث إضافيّة، ومن ثم وصلنا إلى نبع جديد يدعى Ambus Lee؛ حيث خيمنا لهذه الليلة. وكان كامل مشوارنا لمدة أربع ساعات وثلاث واتجاهنا نحو الشرق.

الأحد 25 أبريل: تابعنا صعودنا في اليوم التالي لمدة ثلاث ساعات كاملة، ثم وصلنا إلى أعلى مرتفع للجبل حيث كان الثلج ممتداً قريباً من الطريق. وبدأنا مباشرة النزول ثانية على الجانب الآخر، وخلال ساعتين وصلنا إلى قرية تدعى مشغرة Mashgarah، حيث كان هناك يندفع خارجاً فوراً من جانب الجبل جدولٌ غزيرٌ يسقط نازلاً إلى وادٍ في الأسفل ليصنع نهيراً رقيقاً، وبعد جريانٍ حوالي فرسخين يتلاشى في نهر يدعى الليطاني.

وفي مشغرة يوجد رسم⁽¹⁾ يطلبه الدروز الذين يملكون هذه الجبال. وكنا لبعض الوقت مرتبكين بالطلب المفرط الذي فرضه علينا موظفو الرسوم، ولكن لما وجدونا عنيدين كفوا عنا.

ولدى ذهابنا لمدة ساعة واحدة بعد مشغرة تخلصنا من الجبل ودخلنا في وادٍ يسمى البقاع Bocat. والبقاع هذا يبدو بأن يكون نفسه بقعة أون Bicat Aven المذكور في (سفر عاموس، 1: 5) سويةً مع عدن ودمشق؛ لأنه يوجد مكان قريب منه جداً في جبل لبنان يسمى إهدن⁽²⁾ Eden حتى هذا اليوم. ومن الممكن أيضاً أن يكون اسم أون Aven أي الغرور Vanity قد أعطي له من العبادة الوثنية لبعل Baal التي كانت تجري في بعلبك Balbeck أو هيليوپوليس Heliopolis، التي تقع في هذا الوادي. وعرض الوادي حوالي ساعتين وطوله يمتد لرحلة عدة أيام ويمتد من الشمال الشرقي

(1) حاشية للمؤلف: نصف لكل إفرنجي وربع لكل خادم.

(2) من الواضح أنه لا علاقة لغوية ما بين اسم عدن وإهدن.

إلى الجنوب الغربي. وهو محاط بالجانبين كليهما بجبلين متوازيين يشبه بعضهما الآخر تماماً؛ الواحد هو الذي مررنا فوقه مؤخراً بينه وبين صيدا Sidon والآخر مقابله نحو دمشق. وأعتقد بأن الأسبق هو جبل لبنان الحقيقي Libanus والآخر جبل لبنان المقابل (1) Antilibanus؛ وهذان الجبلان ليسا في أي مكان آخر متمايزين بصورة جيدة كما هما في هذا الوادي.

وفي أسفل الوادي يجري هناك نهر كبير يدعى الليطاني Letane. وهو ينبع من بُعد حوالي رحلة يومين باتجاه الشمال، وغير بعيد من بعلبك؛ ويحافظ على مجراه حتى أسفل الوادي، وأخيراً يصبّ في نهر كازيمير (2) Casimeer.

وحتى الآن فإن اتجاهنا قد أصبح شرقاً، ولكننا هنا انحرفنا بعض النقاط نحو الشمال. وباجتيازنا بصورة مائلة فوق الوادي وصلنا خلال نصف ساعة إلى جسر فوق نهر الليطاني، يتألف من خمسة أقواس حجرية ويدعى القرعون Kor Aren عند قرية على بُعد قليل لها نفس الاسم. وقطعنا النهر عند هذا الجسر، وبعد سفرنا حوالي ساعة ونصف على ضفته نصبنا خيامنا هناك لهذه الليلة. وكان كامل مشوارنا لمدة ثماني ساعات.

الإثنين 26 أبريل: في الصباح التالي تابعنا مسيرتنا المتعرجة في وادي البقاع Bocat. وفي ظرف ساعة واحدة مررنا قرب من قرية صغيرة تدعى جبّ جنين Jib Jeneen، وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى سفح جبال لبنان الشرقية. وهنا كان الارتقاء سهلاً، ثم في غضون نصف ساعة مررنا على جهة اليمين بقرية تدعى عزّة Uzzi. وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى عيتا (3) Ayta، وهي قرية للمسيحيين من مذهب الرّوم. وبدأ الطريق في هذا المكان الأخير يصبح صخرياً وشاقاً للغاية، فسرنا عليه لمدة ساعة، ووصلنا إلى غدير صغير يسمّى عين ينطا Ayn Yentloe. وهنا دخلنا

(1) أي سلسلة جبال لبنان الشرقية، والأولى Libanus هي سلسلة جبال لبنان الغربية.

(2) كازيمير هو ذاته نهر الليطاني المعروف في جنوب لبنان.

(3) هي عيتا الفخار، من قرى البقاع قضاء راشيا.

صدعاً ضيقاً بين جبلين صخريين، وبعد اجتياز هذا الصدع وصلنا في غضون أربع ساعات إلى الدّيماس Demass وكنا ننحدر برفق طوال الطريق. وعند الدّيماس يفرض تحصيل خفارة صغيرة caphar (مقدارها ربع على كل فرد) حيث دفعناها وتابعنا طريقنا مجدداً، ولكننا لم نمض أكثر من ساعة ونصف حتى حلّ الظلام، فاضطررنا للتوقف في مكان قاحل جداً، ولكنه كان أحسن ما استطعنا العثور عليه، ولم يكن فيه أي عشب لخيولنا، أو أي ماء سوى ما يكفي لتكاثر الضفادع، التي راحت تتحفنا بنقيقتها طوال الليل⁽¹⁾.

الثلاثاء 27 أبريل: في الصباح التالي باكراً غادرنا هذا الموضع غير المريح، ووصلنا خلال ساعة تقريباً إلى نهر بردى Barrady، وبقي طريقنا ينحدر نزولاً. وهذا هو النهر الذي يسقي دمشق ويضفي عليها النضارة بكل وفرتها ورونقها. ولا يبلغ عرضه أكثر من عشرين يارداً، ولكنه ينصبّ نازلاً من الجبال بسرعة كبيرة وبكميّة وافرة من المياه، التي تمتدّ بغزارة جميع البساتين الظمأى، ومدينة دمشق.

قطعنا فوق نهر بردى عند جسر جديد مقام فوقه يسمّى دُمّر Dummar. وعلى الجانب الآخر راح طريقنا يرتقي صعوداً، وخلال نصف ساعة أفضى بنا إلى أعلى حافة خانق عال يجري النهر في أسفله، والجبل هنا منفرج في أسفله ليوفر له مدخلاً إلى السهل في الأدنى.

هذا ويوجد على ذروة الخانق بناء صغير يشبه ضريح شيخ⁽²⁾، يروي حوله الأتراك القصة التالية: أن نبهم عندما أتى إلى دمشق توقف في ذلك المكان لبعض الوقت لكي يرى المدينة، ويتأمله لجمالها الخلاب ورونقها لم يركن إلى دخولها، لكنه عاد عنها ليقينه بأن ثمة جنة واحدة أعدت للإنسان، وبالنسبة له فإنه لن يرضى بالجنة الأرضيّة هذه.

(1) استخدم الكاتب هنا تعبيراً لطيفاً للوصف: by which we were serenaded all night أي:

تغنّينا السيريناد، وهي أغاني عاطفية تصاحبها الفيتارة، تغنى تحت شباك المحبوبة.

(2) المقصودة قبة السيّار المعروفة إلى اليوم بأعلى عقبة دُمّر. ومنظر دمشق من القبة جميل جداً. وهذا الدرب كان يسلكه الرّحالون الأجانب دوماً إلى دمشق، فطريق الربوة لم يكن سالكاً.

ولا ريب حقاً أنك من هذا الخائق بوسعك رؤية أروع مشهد لدمشق. وبالتأكيد لا يمكن لأي مكان في العالم بأن يقدم للناظر عن بُعد مشهداً أبهى ولا أروع. ودمشق تقع في سهل مستوٍ فسيح الامتداد، بحيث أنك بالكاد تستطيع رؤية الجبال التي تحيط بها في الأفق البعيد. والمدينة تقع في الجانب الغربي من السهل، على بُعد لا يتجاوز الميلين من المكان الذي ينبثق فيه نهر بردى من بين الجبلين⁽¹⁾. وتمتد جناثه إلى المدينة ذاتها تقريباً.

وأما المدينة ذاتها فلها شكل طويل مستقيم، ونهاياتها تتجه تقريباً إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي. وهي نحيفة جداً في الوسط، ولكنها تتفلطح في نهايتها وخاصة عند النهاية المتجهة نحو الشمال الشرقي. وبالنسبة لطولها حسبما أمكنني أن أقدر بنظري، فهي تمتد حوالي الميلين. وهي مكتظة بالجوامع والقباب، التي هي الطابع المألوف للمدن التركية. وتحقيق بها البساتين التي تمتد حسب التقدير العام لا أقل من ثلاثين ميلاً، وهذا يجعلها تبدو كمدينة فخمة في غابة فسيحة. والبساتين تحفل بكثافة بأشجار الفاكهة من جميع الأنواع، والتي تحافظ على نضارتها ويناعتها مياه نهر بردى. وتلاحظ فيما بينها كثيراً من القباب والدور الصيفية التي تطلّ مراراً من بين الأجمات الخضر، وهي تضيف للمنظر رونقاً وبهاءً غير قليل. وعلى الجانب الشمالي لهذه الغابة الفسيحة مكان يدعى الصالحية Solhees، حيث توجد أجمل الدور الصيفية والبساتين.

إن الجانب الأعظم من هذه النضرة والخصوبة ناتج كما أسلفت عن مياه بردى التي تمدّ كلاً من البساتين والمدينة بوفرة كبيرة من المياه. وهذا النهر حالما ينبثق من خانق الجبل المذكور أعلاه إلى السهل، ينقسم مباشرة إلى ثلاثة جداول يجري الأوسط والأكبر منها مباشرة إلى دمشق عبر حقل كبير مكشوف، يدعى [باللاتينية] «مرج دمشق» Ager Damascenus ويتم توزيعه إلى جميع صهاريج المدينة وسبلانها، وأما

(1) أي عند خانق الزبوة، في الجهة الغربية من دمشق. وهذه المنطقة تعرف بالمقسم، حيث ينقسم فيها النهر إلى فروعه السبعة: بردى والقنوات وبانياس وثورا ويزيد والمزوي والذيراني.

الفرعان الآخرين (اللذان أظنهما صنعين) فيتم سوقهما، أحدهما إلى الجهة اليمنى، والآخر إلى الجهة اليسرى، على حواف البساتين. حيث يُجريان إليها لدى مرورهما بسواقٍ صغيرة، وهكذا يتم توزيعهما في جميع أرجاء الغابة الواسعة⁽¹⁾، بحيث لا يوجد حديقة واحدة إلا ولها ساقية لطيفة جارية تناسب خلالها، وهذا لا يخدم ليس فقط لسقاية المكان، ولكنه يتحوّل أيضاً إلى نوافير وأشغال مائية أخرى بهيجة جداً، بالرّغم من أنه غير مبتدع بتلك النوعية من الفن الراقي الذي يشيع في العالم الغربي.

من خلال وصف نهر بردى على هذا النحو، فإنه يتم استهلاكه بشكل كامل تقريباً بين أرجاء المدينة والبساتين. وأما الجزء البسيط الذي يفضل منه فإنه يتجمّع كما قيل لي في قناة واحدة مرّة أخرى في الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة، وبعد حوالي مسافة ثلاثة أو أربعة ساعات يتلاشى في مستنقع هناك⁽²⁾، دون أي يصل أبداً إلى البحر.

هذا ولقد كان اليونان، ومن بعدهم الرّومان، يطلقون على هذا النهر اسم «خريسورواس»⁽³⁾ Chrysorroas. أمّا حول اسمي «أبانا» Abana و«فرفر» Pharpar نهري دمشق، كما هما مذكوران في العهد القديم (سفر الملوك الثاني، 5: 12) فلم أستطع العثور على من يعرفهما، أو على تسمية باقية تنطبق عليهما⁽⁴⁾. وينبغي بدون شك أن يكونا مجرد فرعين لنهر بردى، وربما كان واحد منهما نفس النهر الذي يجري الآن عبر Ager Damascenus، ويتجه رأساً إلى المدينة، ويبدو من جريانه المتعرج أنه

(1) هذه الغابة التي يذكرها ما هي إلا غوطة دمشق الممتدة في جهتها الشرقية، وأراضي المرح في جهتها الجنوبية الشرقية، وبساتين الصالحية والتّيرب في جهتها الغربية.

(2) هي بحيرة العتبية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وجنوبيها بحيرة المرح مثنى الأعوج.

(3) ومعنى هذا الاسم باليونانية: مجرى الذهب.

(4) لا ريب أنّ تسمية نهر أبانا التي ينفرد بذكرها العهد القديم تدلّ على فرع نهر بردى الذي يختصّ بمعبدها الوثني القديم، وهذا الفرع سمّاه الإغريق بأنّاس Bannas (أي نهر الحمام) نسبة إلى معبد حوريات الماء الذي لا تزال آثاره ماثلة إلى جنوب الجامع الأموي اليوم. وأما تسمية نهر فرفر التي ينفرد أيضاً بذكرها العهد القديم فهي (كما أعتقد) التسمية الكنعانية القديمة 𐤕𐤏𐤔𐤏𐤃 لنهر الأعوج الذي ينبع من سفح جبل الشيخ. وثمة جبل يعرف بجبل بَرَبَر. ومعنى التسمية الكنعانية: الفراشة، كناية عن توابل ماء هذا النهر عند منبعه.

قناة طبيعية. أمّا بالنسبة للآخر فإنني لا أعرف تماماً أين يوجد، ولكن لا عجب لكونهم قد حرفوا مسار النهر على هواهم.

تابعنا فوق الخانق لمدة من الوقت لمشاهدة منظر المدينة، وإنه حقاً لأمر عسير ترك مكان يقدّم لك منظرأ طبيعياً فتاناً. فهو يصوّر لك الجنة في الأسفل كمكان جميل وبهيج للغاية. ومع أنه لا يتركك تنصرف عنه للذهاب إليها، فهو يدعوك حالاً إلى النزول إلى المدينة، وذلك من خلال البهجة التي يبدو بأنه يعدك بها، ثم يمنعك عن النزول بسبب جمال المنظر من فوق.

لدى نزولنا التلة إلى السهل تلقانا إنكشاري من الدير أرسل ليصبحنا إلى المدينة. ولقد رأى أنه من غير المناسب بأن يُدخلنا من البوّابة الغربية (التي كانت الأقرب وبمتناول اليد) لكي نعبر المدينة بكاملها إلى دير اللاتين⁽¹⁾ حيث من المفروض أن نقطن هناك، وذلك خوفاً من أن يتزعج الدمشقيون الذين يكثر فيهم الناس المتعصبون وذوو العنجهيّة، عند رؤية عدد كبير من الفرنجة كما كنا. ولتجنب هذا الخطر اقتادنا حول البساتين قبل أن نصل إلى البوّابة، وجدران⁽²⁾ البساتين ذات بناء غريب جداً، فهي مبنية من قطع كبيرة من التراب، ومصنوعة على شكل لبنات مقسّاة في الشمس. وأبعاد هذه القطع تبلغ ياردين لكل قطعة طويلاً وتقريباً أكثر من يارد واحد عرضاً وبسماكة نصف يارد. وصفان من هذه القطع موضوعان على حفتيهما واحد فوق الآخر ليصنعا جداراً رخيصاً وسريعاً، ومستديماً في هذا البلد الجاف.

ولدى مرورنا بين البساتين لاحظنا أيضاً طريقتهم في تنظيف أفنية الماء، فهم يضعون غصن شجرة كبير في الماء ويربطون عليه فدّاناً من الثيران، ويجلس على الغصن هناك شخص جيد الوزن وذلك ليضغطه إلى الأسفل وليسوق الثيران، وبهذا الجهاز فإن الغصن يُجرّ على طول القناة ويخدم حالاً لكل من تنظيف قاع القناة ولتعزيز الماء بالطمي وذلك لزيادة نفعه للبساتين.

(1) يقع دير اللاتين بداخل جادة باب توما.

(2) تعرف هذه الأسوار القديمة بالذّك، جمعها دكوك.

دخلنا الباب الشرقي وذهبنا مباشرة إلى الدّير، فتمّ استقبالنا بحفاوة كبيرة من قبل الأب الحارس رافائيل الذي يعود أصله إلى مايوركما Majorkine بالولادة، بالإضافة إلى شخص آخر بالرّغم من أنه خصص نفسه لحياة التأمل، فهو مع ذلك قادر على أيّ شأن من شؤون الحياة.



الأربعاء 28 أبريل: خرجنا في هذا الصّباح لنأخذ نظرة للمدينة، وكان أول مكان ذهبنا لزيارته بيت رجل تركي⁽¹⁾ رفيع الشأن. إن الشوارع هنا ضيقة، كما هي العادة في البلدان الحارة، وجميع البيوت مبنية من الخارج بمواد ليست خيراً من الآجر محروق بالشمس أو جدار فلمنكي، مليس كلياً بطريقة خشنة كما هو الحال في أقبح الأكواخ. ومن هذه الطريقة الوسخة للبناء فإن لهم هذا من بين انزعاجات أخرى بحيث لدى سقوط أية أمطار غزيرة تصبح كامل المدينة بسبب غسيل البيوت كما لو كانت أرض مغراق.

ومن المستغرب ماحمل الناس بأن يقوموا بالبناء بهذه الطريقة الأساسية، في حين لديهم في الجبال المجاورة كمية كبيرة من الحجر الجيد لبناء أجمل، وغني لا أستطيع أن أعطي سبباً لذلك، إلا أن أولئك اللذين استوطنوا هنا أولاً وجدوا الوضعية لذينة جداً، فكانوا بعجلة ليصلوا إلى الاستمتاع بها، ولذلك أقاموا بسرعة تلك المساكن المؤقتة، لكونهم كانوا غير راغبين بتأجيل سرورهم لمدة طويلة، بينما كان بإمكانهم أن يقيموا أبنية أروع لتكون مثلاً مبدئياً لخلفائهم حيث اتبعوها منذ ذلك الحين.

ولكن وعلى كل حال فإنك تجد في هذه الجدران الطينية البوابات والأبواب مزينة بفتحات رخامية محفورة ومنزلة بجمال وتنوع كبيرين، إنه شيء مفاجئ حقاً بأن ترى الطين والرخام، الأبهة والحقارة ممتزجين سوية.

(1) ذكرنا أعلاه أنّ الرحالين الأوروبيين آنذاك كانوا يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السلطنة، سواء كانوا من التّرك أو العرب أو غيرهم.

أمّا في الداخل فتكشف لك البيوت وجهاً مختلفاً جداً مما تراه في الخارج، فتجد هنا عموماً باحة مربعة كبيرة، مجملّة بعدد من الأشجار العطريّة، ونوافير رخامية، وهي محاطة بغرف وأواوين رائعة. والأواوين مبلّطة ومزينة الجوانب بتشكيلة من الصّدف ممزوجة بعقد من الموزاييك والخطوط المتشابكة.

أمّا السقوف والأقواس فمدھونة ومذهبة بغنى وفق الطريقة التركية، ولها بصورة عامة نوافير اصطناعية تغور أمامها في فسقيّات رخامية، أما بالنسبة للسجاد والوسائد فهي مفروشة إلى أعلى درجات الرفاهية. وهناك من هذه الأواوين بصورة عامة عدد على جميع جوانب الباحة مقامة باتجاهات مختلفة، بحيث أنه يمكنك دائماً في أحدها أو سواه الحصول على الظل أو الشمس أيهما يسرك.

على هذا النّحو الذي وصفته كان البيت الذي ذهبنا إليه لنراه، وقيل لي بأن باقي البيوت لها الوصف ذاته.



أمّا المكان التالي الذي ذهبنا لرؤيته فكان كنيسة القديس يوحنا المعمدان St. John Baptist التي حوّلت الآن إلى مسجد⁽¹⁾، ويحظّر على النصارى دخوله، أو حتى النظر إلى داخله. لكن على أيّ حال ظفرنا بثلاث نظرات قصيرة إليه وذلك من خلال أبوابه الثلاثة. وأبوابه كبيرة بشكل واسع ومكسوّة بالنحاس ومختّمة بالكامل بكتابات عربية وفي عدة أماكن بكأس، من المفترض أن يكون الرّمز أو الشعار القديم للماليك⁽²⁾.

ويوجد في الجانب الشمالي للمسجد باحة فسيحة والتي لم أستطع أن أختمّن بأنها أقل من مئة وخمسين يارداً طولاً وثمانين أو مئة يارد عرضاً. وهذه الباحة مبلّطة

(1) يعني الجامع الأموي بالطبع، وقد بنى الكنيسة الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول الذي حكم بين 379-395 م.

(2) هذا صحيح، فالكأس على أبواب الأموي رنك السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق. وله أيضاً مثال آخر على الواجهة الشمالية للقلعة، وعلى قنطرة قريبة من مسجد الصحابي أبي الدرداء في الجهة الشمالية من القلعة. انظر صورها بآخر هذا المبحث.

بأكملها، وفي الجهة الجنوبية منها حرم المسجد، وفي الجهات الثلاث الأخرى أروقة مزدوجة، تقوم على صفين من الأعمدة الغرانيئية ذات الطراز الكورنثي، وهي مرتفعة وجميلة جداً.

أمّا في الجانب الجنوبي فإنّ المسجد يحاذي الأسواق، ومن هنالك تمكّننا من الفرجة إلى داخله. وهو في الداخل فسيحة وعالية، ومبني بثلاث أروقة يوجد بينها صفوف من الأعمدة المصقولة ذات جمال مدهش، هذا ما لم نكن بالغنا في تقيّمنا قليلاً لما كان ممنوعاً علينا استطلاعاه.

ويحفظ في هذا المسجد رأس القديس يوحنا وبعض البقايا الأخرى التي تعدّ مقدّسة جداً، حيث أنّ من يتجرأ بالدخول ولو كان تركياً إلى الغرفة التي تُحفظ فيها، يكون عقابه الموت. وروى لنا أحد الأتراك كلاماً متواتراً بأنّ المسيح ينزل على هذا المسجد عند قيام الساعة، كما ينزل محمّد على مسجد القدس. أمّا ما هو أساس هذا الاعتقاد فلا أدريه.



ذهبنا من المسجد إلى القلعة، التي تقع على بعد حوالي ربع ميل نحو الغرب. إنها بناء جيد على الطريقة الريفية، وبلغ طولها ثلاثمئة وأربعين خطوة وعرضها أقل بعض الشيء. تمّ إدخالنا إنما فقط عند البوابة⁽¹⁾، حيث رأينا مخزناً لأسلحة ودروع قديمة وغنائم من المسيحيين في العصور السالفة. ومن بين قطع المدفعية يوجد منجنيق روماني قديم. ولكن هذا المكان لا يجوز إطالة النظر فيه من قبل أشخاص مثلنا⁽²⁾.

(1) وهي البوابة الشرقية، التي يُفضى إليها عبر جسر متحرّك فوق الخندق. انظر وصف ماتريك ودارفيو في كتاب «رحلات في برّ الشام بالقرن السابع عشر». وهي ماثلة اليوم قبالة سوق العسرونية.

(2) من الملاحظ تشابه نص موندول مع نص دارفيو الذي سبقه في زيارة دمشق بمدة 37 سنة، فيبدو أن الشائع آنذاك بخصوص السياح الأجانب زيارة تلك الأماكن. ولا يمكن أن نفترض كونه نقل عن دارفيو أو اطلع عليه، لأن كتابه لم يُنشر إلا في عام 1735 م.

وفي النهاية الشرقية للقلعة تتدلى في منتصف الجدار سلسلة قصيرة محفورة في الحجر، ولا أعلم ما الفائدة منها غير التفاخر بمهارة الصّانع.

وبمغادرة هذا المكان ذهبنا لنرى الأسواق التي وجدناها مكتظة بالناس، ولكنها خالية من أي شيء آخر جدير بالملاحظة.



الخميس 29 أبريل: ذهبنا باكراً جداً في هذا الصّباح لرؤية الموكب الفخم الكبير السنوي للحجاج الذين ينطلقون في حجّهم إلى مكة. ولقد عُيّن أوستان باشا⁽¹⁾ حاكم طرابلس أميراً لهم أو محافظاً لهذا العام. وللحفاظ على أمننا من غائلة المتشدّدين، استأجرنا دكاناً في أحد الأسواق التي سيمرون عبرها.

وفي هذا الركب الذائع الصّيت أنى أولاً ست وأربعون دليلاً أي أولياء، يحمل كلّ منهم راية حريرية مختلطة الألوان إما أحمر وأخضر أو أصفر وأخضر، وبعد هؤلاء أتى ثلاث فرق من السكبان⁽²⁾ Segmen (الذي هو صنف من العسكر لدى الأتراك)، وأتى بعدهم بعض جنود السباهية Spahees (وهو صنف آخر من العسكر)، وتبعهم ثمانية فرق من المغاربة Megrubines (وهكذا يسمّي الأتراك البربر Barbaroses)، مشياً على الأقدام. وهؤلاء ذوو مظهر رائع جداً، وهم معدّون للتمركز في حامية للأتراك في مكان ما في صحراء جزيرة العرب، ثم يسرّحون كل سنة مقابل رجال جدد. وفي وسط المغاربة مرّت ست قطع صغيرة من المدفعية.

وفي أعقابهم أتى جنود قلعة دمشق مشاةً، مسلّحين بشكل مذهل بدروع ورايات

(1) هكذا يكتب موندل الاسم، والصّواب أنه أرسلان باشا المَطرَه جي، الذي ولي طرابلس في عام 1693، ثم في عام 1697 نُقل من إيالة طرابلس إلى إمارة الحج (كما يذكر موندل هنا)، وعُيّن مكانه أخوه قیلان باشا. ثم في عام 1698 عاد أرسلان باشا مرة ثانية على ولاية طرابلس، ونُقل أخوه قیلان باشا إلى صيدا. وبقي أرسلان باشا في منصبه حتى 1704 على الأقل.

(2) السكبان صنف من العسكر الأدنى شأنًا في أنظمة العسكرية العثمانية، ومصدر التسمية من الفارسية: سك - بان، أي ماسك الكلب.

وقطع أخرى من الدروع القديمة. وتبعهم جنود من الإنكشارية مع الآغا العائد لهم، وكانوا جميعهم على صهوات الخيل. وبعد ذلك مرّ طوخا⁽¹⁾ البابا بصحبة آغا البلاط العائد له⁽²⁾. وبعد الطوخين مرّت ستة خيول مقودة، وجميعها ذوات هيئة بديعة ومجهزة بفخامة، وكان فوق السرج لكل حصان حزام ومجنّ فضي مذهب.

بعد هذه الخيول أتى المحمل، وهو سُرادق كبير من الحرير الأسود مركوز على ظهر جمل كبير جداً وتمتد ستائره من جميع أنحاء الجمل فتصل إلى الأرض. والسُرادق مزين في الأعلى بكرة ذهبية وبكنايش ذهبية. والجمل الذي يحمله لا ينقصه أيضاً ترينيات المسابح الكبيرة والأصداف وذيول الثعالب، وزينة أخرى خيالية كهذه معلقة فوق رأسه ورقبته وقوائمه.

وجميع هذا مصمّم لمقام القرآن Alcoran الذي يوضع باحترام كبير تحت السُرادق، حيث يركب باحتفال إلى مكة ثم يعود منها. وتُرفق بالقرآن ستور جديدة نفيسة كالسجادة يرسلها السلطان كل عام لكسوة ضريح محمد⁽³⁾، ويستردّ السجادة القديمة عوضاً عنها، والتي تُقدّر بثمن لكونها لمدة طويلة مجاورة لجسد النبي. والبعر الذي يحمل هذا الحمل المقدّس له ميزة إعفائه من أية حمولات أخرى طوال حياته. وأتى بعد المحمل جنود آخرون ومعهم البابا نفسه، كما أتى آخر الجميع عشرون جمل موسقاً بالأحمال، حيث انتهى بهم الموكب الذي استغرق مروره ثلاثة أرباع الساعة.

وبعد مشاهدتنا ما استطعنا من هذا العرض (الذي ربما لم يشاهده الفرنجة من قبل)، ذهبنا لدى بعض الأمور الأخرى اللافتة للانتباه. وكان المكان الأول الذي وصلنا إليه

(1) الطوخ في التركية ذيل الحصان، وكان بمثابة شعار يدلّ على رتبة البابا، فمنهم من كان له طوخان ومنهم ثلاثة. أما السلطان ذاته فكانت له سبعة أطواخ.

(2) أي الكيخيا (الكتخدا) في المصطلح الإداري العثماني لذلك العصر.

(3) معلومات موندل مغلوطة، فالكسوة ترسل إلى الكعبة المشرفة، وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس فيها كما يظن، بل بالمدينة المنورة.

المرج الذي فيه مجرى النهر Ager Damascenus وهو مرج⁽¹⁾ طويل جميل، يقع بظاهر المدينة مباشرة، على الجانب الغربي منها. وهو منقسم في الوسط بذلك الفرع لنهر بردى الذي يمد المدينة. وله شهرة كبيرة بسبب مقولة شائعة هنا، هي أن آدم قد خلّق من تراب هذا المرج.



وجوار هذا المرج مستشفى⁽²⁾ كبير، بداخله باحة مربعة ممرعة، يحدها في الجانب الجنوبي مسجد جليل، ومحاطة على جوانبها الأخرى بأروقة ومساكن ذات بناء مُعتبر ليس بالقليل.

لدى رجوعنا من هنا نحو مسكننا، أرونا على الطريق حماماً جميلاً جداً، وغير بعيد عنه مقهى يستوعب أربعمئة أو خمسمئة شخص، وأعلاه مظلل بالأشجار أو الحصر عندما تقصر الأغصان عن التظليل. وله جانبان لاستقبال الضيوف، أحدهما مناسب للصيف، والآخر للشتاء. والمخصص للصيف بينهما عبارة عن جزيرة صغيرة يحفّ بها جدول كبير سريع الجريان، وهي مظلة من الأعلى بالحُصر والأشجار. وجدنا هنا جمعاً كبيراً من الأتراك على الدواوين يمتعون أنفسهم في هذا المكان المبهج، إذ لا شيء يمتنعهم بقدر الخُصرة والماء، اللذين إن أضيف إليهما وجهٌ حسن، اكتمل بذلك لديهم قول مأثور يشير إلى أنّ هذه العناصر معاً تشكّل خير توليفة ضدّ الحزن.

بعد الظهر، ذهبنا لزيارة البيت الذي يقولون بأنه كان مسبقاً بيت حنانيا Ananias الذي أعاد البصر إلى القديس بولس (سفر أعمال الرسل، 9: 17)، والمكان الذي يتّوه لنا (وفق المقولة القديمة) هو كهف أو قبر صغير ليس فيه ما يستحق الملاحظة، ما عدا أنه يوجد فيه مذبح مسيحي ومُصلّى تركي موجودان قرب بعضهما بشكل لا يتوافق مع طبيعة أماكن كهذه.

(1) هذه التسمية اللاتينية تنطبق على ما عُرف في تاريخ دمشق الإسلامي بالميدان الأخضر أو المرج، أو حتى عام 1951: مرجة الحشيش. ثم قام مكانها معرض دمشق الدولي.
(2) يعني بذلك تكتية السلطان سليمان القانوني، التي بنيت في القرن العاشر الهجري 962 هـ.

مشوارنا التالي كان الخروج من الباب الشرقي لكي نرى المكان الذي يقال بأنه مكان رؤيا القديس بولس⁽¹⁾، والأماكن الأخرى الجديرة بالملاحظة في ذلك الجانب. يبعد مكان الرؤيا حوالي نصف ميل من المدينة شرقاً، وهو قريب من جانب الطريق وليس له بناء لتمييزه، ولا أعتقد أن كان له قديماً. لا يوجد سوى صخرة صغيرة أو كومة من الحصى تفي بالإشارة إلى المكان.

وعلى بعد حوالي ربع ميل أقرب إلى المدينة يوجد بناء خشبي يشبه قفص بلدة ريفية، ويوجد في داخله مذبح مقام، ويقال بأن الحوارى المقدس استراح هناك لبعض الوقت في طريقه إلى هذه المدينة بعد رؤيته (أعمال، 9: 8).

ولدى رجوعنا إلى المدينة، أرونا البوابة التي أدلى عندها القديس بولس بسلة (أعمال الرسل، 9: 25). وهذه البوابة حالياً مسدودة، بسبب قربها من الباب الشرقي الذي يجعلها ذات فائدة قليلة.

وبدخولنا ثانية إلى المدينة، ذهبنا لنرى البطريك الكبير القاطن في هذه المدينة. كان شخصاً يبلغ من العمر حوالي أربعين عاماً، ومسكنه زريّ، وشخصيته وحديثه لم يميّز بأي شيء غير عادي. ولقد أخبرني بأنه يوجد أكثر من ألف ومئتي نسمة من طائفة الرّوم في تلك المدينة.



الجمعة 30 أبريل: ذهبنا في اليوم التالي لزيارة البساتين ولقضاء يوم هناك. ويبعد المكان الذي وصلنا إليه حوالي ميل خارج المدينة. وفيه دارة صيفية ممتعة ذات جدول غزير من الماء يعبر خلال. وكان البستان مزروعاً بكثافة بأشجار الفاكهة، إنما بغير أي فن أو ترتيب. وهكذا كهذه الحديقة كان وضع جميع الحدائق في هذه النواحي. وبهذا الاختلاف فقط فإن لبعضهم دارات صيفية أبهى من سواها، ذات مياه مهينة بنوافير ذات تنوّع أكبر.

(1) في قرية كوكب التابعة لجديدة عرطوز قضاء قطنا، إلى الجنوب الغربي من دمشق.

لدى زيارة هذه البساتين، يُجبر الفرنج على المشي أو على ركوب الحمير، لأن عنجهية الأتراك لا تسمح لهم بأن يركبوا على ظهر الخيول. ولخدمتهم في هذه الظروف يوجد هنا حمير للأجرة تقف دائماً جاهزة ومجهزة للاكتراء. وعندما تتركب فإن صاحب الحمار يلحق حيوانه إلى المكان الذي ترغب بالذهاب إليه، وينخسه من الخلف بعضاً مدببة حادة تجعله ينطلق بسرعة أكبر.

وقد يعتمد أحياناً إلى إعطاء بعض الإسمتزاز للمسافر الكريم، بأن يكيل له أفعال ازدراء كهذه⁽¹⁾، إنما لا حلّ لهذا. وإذا كان المسافر يأخذ بنصيحتي فإن خير ما يفعله هو أن يمتطي حماره بقناعة ورضى، وأن يحول الإساءة إلى دافع للفكاهة كما فعلنا. وبعد قضاء يومنا في البستان رجعنا مساءً إلى الدير.



السبت 1 مايو: قضينا اليوم التالي في بستان آخر غير بعيد عن سابقه، ولكنها تتجاوزها كثيراً في جمال دارتها الصيفية والتنوع في نوافيرها.



الأحد 2 مايو: ذهبنا مع عدد منا كانوا ميالين للذهاب إلى صيدنايا، وهي دير للروم يبعد حوالي أربع ساعات من دمشق باتجاه الشمال أو الشمال الشرقي. إن الطريق جيد جداً ماعدا ارتفاعين قاسيين، وفي هذا المشوار مررنا على قريتين، الأولى تدعى التل Tall والثانية منين Meneen. وعلى مسافة لا بأس بها على اليمين توجد تلة عالية جداً يقال بأنها هي التي قدّم عليها قابيل وهايل قرابتهما، وأيضاً حيث قتل الأول أخاه ووضع أول مثال لإراقة الدم في العالم.

تقع صيدنايا Sydonaiia في الجانب الأبعد لوادٍ كبير على رأس صخرة، وهي منحوتة بدرجات على كامل المسافة إلى الأعلى، ودونها لا يمكن الوصول إليها. وهي محاطة على جميع جوانبها في الأعلى بجدار قوي يحيق بالدير. وهو مكان ذو

(1) أي أن ينخس الفرنجي أحياناً بالعصا، وأهل دمشق كانوا مغرمين بتعذيب الرخالين الفرنج.

بناء هزيل جداً ولا يحوي شيئاً غير عادي، سوى الخمر المصنوع هنا والذي هو فعلاً رائع جداً. ولقد أُسس هذا المكان أولاً وأوقفه الإمبراطور جوستينيان Justinian.

والدير حالياً في عهدة عشرين راهباً من الرّوم، وأربعين راهبة، يبدو أنهم يعيشون معاً بشكل مختلط، دون أيّ نظام أو فصل فيما بينهم.

هنا وعلى هذه الصّخرة وضمن محيط صغير حولها يوجد ما لا يقل عن ست عشرة كنيسة أو مصلى مكرّسة لعدة أسماء: الأولى للقدّيس يوحنا، والثانية للقدّيس بولس، والثالثة للقدّيس توما، والرابعة للقدّيس بايلاس، والخامسة للقدّيسة بربارة، والسادسة للقدّيس خريستوفر، والسابعة للقدّيس يوسف، والثامنة للقدّيس إلغازر، والتاسعة للعدراء المباركة، والعاشر للقدّيس ديميتريوس، والحادية عشرة للقدّيس سابا، والثانية عشرة للقدّيس بطرس، والثالثة عشرة للقدّيس جرجس، والرابعة عشرة لجميع القدّيسين، والخامسة عشرة للصعود، أمّا السادسة عشرة فلتجلّي سيدنا المسيح. ويمكننا أن نستنتج من كل ذلك بأن هذا المكان قد حظي قديماً بشهرة غير قليلة من القدسيّة. ولقد زرت فعلاً كثيراً من هذه الكنائس، لكنني وجدتها مخربة ومهجورة بشكل لم يحتمسني على الذهاب إليها جميعاً.

وفي القلاية التي يستخدمها أهل الدير لصلاتهم اليوميّة، يزعمون بأنّ أعجوبة عظيمة حصلت منذ عدّة سنوات، هذا وصفها نقلاً عنهم:

يقولون بأنه كان لديهم في الكنيسة قديماً أيقونة للعدراء المباركة، يقصدها المؤمنون بالزيارة، وتشتهر بشفاء الكثير من الأمراض وببركتها تلقاء زيارتهم ودعائهم. وحدث أنّ شخصاً خبيثاً تجرّأ على سرقة هذه الصّورة العجائبيّة، لكنه لم يكد يحتفظ بها مدّة حتى وجدها تستحيل لحماً حياً. فروّعه هذه المعجزة واستبدّ به النّدم فحمل الأيقونة الثمينة إلى أصحابها، معترفاً بذنبه وطالباً المغفرة على ما جتته يداه. فلمّا استردّ الرّهبان هذه الدرّة الثمينة، ولخوفهم من كارثة ضياعها في المستقبل، فلقد رأوا إيداعها في صندوق حجري صغير. ثم قاموا بوضعها في فجوة صغيرة بالجدار خلف المذبح الكبير، وجعلوا أمامها شبكاً حديدياً، بغية حمايتها من أية محاولة دنيئة لسرقتها.

وعلى الشبك عُلق العديد من الدُمى والحلى الصّغيرة، هي تقدمات من المؤمنين عرفاناً بقبول صلواتهم عند هذا المقام. وتحت الصّندوق الذي أودعت فيه الأيقونة المتجسّدة، يحتفظون على الدّوام بحوض صغير من الفضة، بغية جمع قطرات زيت مقدّس يزعمون أنه صادر عن الصّورة المخبوءة، وأنّ له مفعولاً عجيباً في شفاء الآفات، وبخاصّة ما يصيب منها العيون⁽¹⁾.

وعلى الجانب الشرقي من الصّخرة مدفن قديم مجوّف في الحجر الصّلب، وتبلغ مساحة الغرفة حوالي ثمانية ياردات مربعة، وتحوي على جوانبها (كما أذكر) اثني عشر ناووساً. ويوجد فوق المدخل ستة تماثيل محفورة بالحجم الطبيعي⁽²⁾، تقع في ثلاث كوى في الحائط، كل تماثيل في كوة واحدة. وعلى قواعد التماثيل يمكن رؤية بضعة كلمات باليونانية، ها هو ذا بيانها كما تمكنت من نقله في وضعها الحالي ضمن الظلمة:

| | | |
|-------------------------|--------------------------|------------------------------|
| ΕΤΟΥΣΙΦ-- | I[ΟΥ]ΛΑΦΙ[ΑΙ] | ΙΟΥΛΑΦΔΗΜΗ |
| ΙΟΥΛΑΦΑΡΤε | Π] ΠΙΚΟC | ΤΡΙΟC ΚΑ[Ι Α[ΡΙ] |
| υΙΔΙΡΟC ΚΑΙ | [Κ]ΑΙ ΔΟΜΝCΙΝΑ | ΑΔΝΗ ΓΥ[ΝΗ] |
| ΠΡΕΙΓΚΥ ΓΥΝΗ | ΓΥΝΗ | ΠΑΝΤΑC ΕΠΟΙΟΥ[Ν] |
| <i>Under the first.</i> | <i>Under the second.</i> | <i>Under the third nich.</i> |

كان لي ولرجل برافتنا سبب وجيه لتذكّر هذا المكان، وذلك لنجاتنا فيه من الموت. كان ثمة جندي إنكشاري ثمل يمرّ تحت النافذة حيث كنا، فصادف أنّ وقعت نقطة خمر على سترته، ومن جرّاء هذه الفورة العصيّة إذا به يوجّه مسدسه تجاهنا عبر النافذة.. فلو قام بإطلاقه لكان ذلك مميتاً لأحدنا أو لكلينا، وكنا بالضبط في مواجهته. لكن الله قدّر بأن يكبح غضبه.

وفي هذا المساء رجعنا ثانية إلى دمشق.

(1) راجع ما ذكره الرّحالة الفلورنسي ليوناردو فريسكو بالدي عام 1384 م (نشرناه مؤخراً).
(2) هناك في صيدنايا كثير من الآثار الوثنية القديمة، منها اكتشفت في 2002 نقشاً للإلهة عشتار.

الإثنين 3 مايو: ذهبنا هذا الصّباح لنرى الطريق المستقيم (أعمال، 9: 11). ويبلغ طوله حوالي نصف ميل⁽¹⁾، وهو يمتدّ من الشرق إلى الغرب عبر المدينة. ولكونه ضيقاً والبيوت تبرز في عدّة أماكن على جانبيه، فلا يمكنك بأن ترى منظرًا واضحاً لطوله واستقامته. ويظهر في هذا الطريق بيت يهوداه⁽²⁾ Judas حيث سكن معه القديس بولس، وفي نفس البيت يوجد ضريح قديم يقال بأنه ضريح حنانيا Ananias، ولكن كيف حدث بأن يدفن هنا، لم يستطيعوا بأن يخبرونا ولا نحن فهمنا، إذ أرونا بيته الخاص في مكان آخر⁽³⁾. وعلى كل حال فإن الأتراك يجلبون هذا الضريح ويحافظون على قنديل يشعل دائماً فوقه.

بعد الظهر، وبعد أن دفعنا رجال الدير عشرة لكل منهم لحسن أستقبالهم لنا، غادرنا دمشق وبدأنا اتجاهنا نحو طرابلس، وصمّمنا بأن نرى على الطريق بعلبك وأرز لبنان. ولأجل ذلك رجعنا بنفس الطريق التي أتينا منها، وباخترنا نهر بردى ثانية عند جسر دُمّر Dummar، وصلنا بعد قليل إلى قرية بنفس الاسم وبتنا فيها الليلة، ولقد سافرنا بعد ظهر هذا اليوم ثلاث ساعات.

(1) بل يبلغ امتداده من باب الجابية إلى الباب الشرقي 1500 متر، أي قرابة الميل.

(2) حول يهوداه وحنانيا انظر ما علقنا به بالتفصيل على رحلة دارفيو في كتاب «رحلات في برّ الشام بالقرن السابع عشر».

(3) ذاك قرب الباب الشرقي مصلاه وليس كنيسة، وأما وجود قبره في بيت يهوداه فهو أمر منطقي. وينبغي ألا يخلط القارئ بين يهوداه هذا والحواري الخائن (يهودا بالعربية نقلاً عن الآرامية)، فيهوداه صاحب البيت كان كما يتضح من أعمال الرّسل واحداً من أفراد المجتمع النصراني التوحيدى العائد إلى كنيسة القدس التوحيدية الأولى، التي كان من أهم أركانها إخوة المسيح (عليه السلام) أنفسهم: يعقوب وشمعون ويهوداه، وكان منهم بارنابا اليهودي القبرصي. وثمة فرضية لي أقول بها إن لمجتمع دمشق النصراني التوحيدى الأول كل الأهمية في توضيح العقيدة النصرانية الصحيحة، بعيداً عن التثليث البوليني والنيقاوي. وما شاع في أوروبا على يدي بولس وقسطنطين غريب عن عقيدة المسيح.

ومن الغريب أنّ بيت يهوداه هذا وقبر حنانيا المفترض قد زالت آثارهما تماماً من أذهان مسيحيي دمشق، وقد فصلت موقعه بمحلة مثذنة الشحم ضمن نصّ الرحالة الفرنسي دارفيو، انظر: «رحلات في برّ الشام بالقرن السابع عشر».

الثلاثاء 4 مايو: تركنا هذا الصّباح طريقنا القديم وأخذنا طريقاً آخر يتجه شمالاً أكثر. وخلال ساعة ونصف أتينا إلى قرية تدعى بسّيمة Sinie، ويوجد قريباً منها بناء قديم على رأس تلة عالية يُفترض أن يكون ضريح هايبيل، وبأنّ المنطقة المجاورة قد حملت في الأزمنة القديمة اسم آبيلا Abilene لهذا السبب. ويقال أيضاً على ذمة البعض بأن قتل الأخ قد ارتكب في هذا المكان.

ويبلغ طول الضريح ثلاثين يارداً، ومع ذلك فإنه من المعتقد هنا بأنه كان متناسباً مع قامة الشخص الذي دُفن فيه. وهنا ولجنا في قناة ضيقة بين جبلين صخريين منحدرين، ونهر بردى يجري بينهما في الأسفل. وكان على الجانب الآخر من النهر عدّة أعمدة طويلة أثارت فضولنا لنذهب ونتمكن من رؤيتها عن كثب. فوجدناها جزءاً من واجهة صرح قديم ورائع جداً، لكننا لم نستطع أن نخمّن ماهيته.

تابعنا طريقنا على ضفاف بردى Barrady، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى قرية تدعى مضايا Maday، ثم بعد ساعتين وصلنا إلى نبع يدعى عين حور Ayn il Hawra، حيث بتنا هناك. وكان كامل مشوارنا نوعاً ما أقل من سبع ساعات، وكان اتجاهنا قريباً من الشمال الغربي.



الأربعاء 5 مايو: وفي هذا الصّباح مررنا بنبع بردى؛ فوصلنا خلال ساعة وثلاثي السّاعة إلى قرية تُدعى سرغايا Sargauih. وتركنا في هذا المكان الوادي الضيّق الذي سافرنا فيه منذ الصّباح السّابق، وصعدنا الجبل على الجهة اليسارية. ولدى قضاء ساعتين باختراقه وصلنا للمرة الثّانية إلى وادي البقاع Bocat؛ وباتجاهنا شمالاً وصعوداً من الوادي وصلنا خلال ثلاث ساعات إلى بعلبك. وكان مشوارنا في هذا اليوم سبع ساعات تقريباً واتجاهنا نحو الغرب.

ولدى بعلبك ضربنا خيامنا في مكان يبعد أقل من نصف ساعة عن المدينة شرقاً، قرب نبع غزير ونضر حيث يتحوّل مباشرة إلى جدول؛ وبجريانه نزولاً إلى بعلبك فهو

يضيف إلى لمكان ملائمة وسروراً ليسا بقليلين.

وبعد الظهر مشينا خارجين لنرى المدينة. ولكن فكّرنا بأنه من الأنسب قبل دخولنا أن نحصل على ترخيص من الوالي وأن نتوجّه بكل حذر. وقد علّمنا هذا الحرص الضروري قدوة بعض السادة الإنكليز الأفاضل من معملنا، الذين زاروا هذا المكان في عام 1689 وذلك لدى عودتهم من القدس، وبتوقعهم عدم الإزعاج فقد خدعهم الناس هنا بدناءة. وأُجبروا على أن يُنقذوا حياتهم بمبلغ كبير من المال.

ومن المعتقد بأن بعلبك هي مدينة الشّمس القديمة هيليوپولس Heliopolis؛ ولذلك فهذا ما تدل عليه الكلمة. إن اسمها الحالي عرب Arab الذي هو ربما أقدم اسم لها، يميل إلى نفس الأهمية. وبالرّغم من أن كلمة بعل Baal تدلّ على جميع الأوثان عامة، فهي على الأرجح تُنسب إلى الشّمس التي هي الوثن الرئيسي لهذا البلد.

وتتمتّع المدينة بوضع مبهج ومريح جداً على الجانب الشرقي لوادي البقاع. وهي ذات شكل مربع محاطة بجدار جيد معتدل يوجد فيه أبراج في جميع أنحائه بمسافات متساوية. وهو يمتدّ حسبما استطعت أن أخمّن بالعين المجردة حوالي ربع ميل على أحد الجوانب. وبيوته في داخلها من أردأ أنواع البناء كما يُرى عادة في القرى التركية.

ويوجد على الجانب الجنوبي الغربي للمدينة أثر جليل، وهو التحفة الوحيدة التي يُزار هذا المكان من أجلها. وكان قديماً معبداً وثنياً؛ سوية مع أبنية أخرى تخصّه، وجميعها حقاً نفيسة؛ ولكن في الأزمنة الأخيرة رُفعت هذه الأبنية القديمة وُجمعت مع عدة أبنية أخرى وحُولت جميعها إلى قلعة حيث تحت لا تزال تحمل هذا الاسم في هذا اليوم. والأبنية التي أضيفت ليست ذات هندسة رديئة، ولكنها مع ذلك يمكن تمييزها بسهولة عمّا هو أكثر قدماً.

وبالقدوم إلى هذه الأطلال، فإن أول شيء تقابله كومة صغيرة مستديرة من بناء جميعه من الرّخام. وهو محاط بأعمدة من النظام الكورنشي؛ جميل جداً ويدعم كورنيشاً يمتدّ حول جميع البناء وهو ليس بحالة عادية وجميلة. وهذا القسم الباقي

منه حالياً بحالة متضعضة جداً، ولكن لا يزال اليونان يستعملونه ككنيسة؛ وكان من الأحسن لو أن خطر السقوط، الذي يهدّد دائماً، استطاع جعل أولئك الناس يستعملوا حماسة أكبر في صلواتهم مما يقوموا به بصورة عامة؛ واليونان حسب الظاهر غير ورعين ومهملون كثيراً في صلاتهم اللاهوتية، وذلك أكثر من أي نوع من الناس في العالم المسيحي.

ومن هذا الأثر تصل إلى كومة كبيرة متماسكة لبناء بالرغم من أنه عال جداً ومؤلف من أحجار كبيرة مربّعة، فإنني مع ذلك أعتبره جزءاً من العمل المضاف منذ ذلك الحين؛ لأن المرء يرى في الدّاخل بعض الحطامات لصور في الجدران والأحجار مع أحرف رومانية موضوعة عليها بطريقة خاطئة. وعبر هذه الكومة فإنك تمرّ في ممشى أو رواق جليل مقبّب طوله مئة وخمسون خطوة، يقودك إلى المعبد.

والمعبد عبارة عن ساحة مستطيلة عرضها اثنان وثلاثون يارداً وطولها أربعة وستون يارداً، ومنها ثمانية عشر يارداً مأخوذة من قبل الجهة المقابلة للمعبد والتي هي هابطة الآن؛ والأعمدة التي كانت تدعمها مكسّرة. وجسم المعبد القائم الآن محاط برواق فاخر مدعوم بأعمدة من النظام الكورنثي؛ وقياس محيط كل منها ستة أقدام وثلاثة إنشات وارتفاعه تقريباً حوالي خمسة وأربعين قدماً ويتألف كل منها من ثلاثة أحجار. وبُعد الأعمدة بعضها عن بعض وعن جدار المعبد عبارة عن تسعة أقدام. ويوجد من هذه الأعمدة أربعة عشر على كل جانب من المعبد وثمانية في نهايته، مع عدّ أعمدة الزوايا في كل من العديدين.

وعلى رؤوس الأعمدة تمتدّ هناك حولها كلياً عارضة جلييلة وكورنيش منقوش بجمال، والزّواق مغطى بأحجار كبيرة مجوّفة على شكل أقواس تمتد بين الأعمدة وجدران المعبد. ومنقوش في وسط كل حجر رقم أحد الآلهة أو الآلهة الوثنية أو الأبطال. وغطاء كامل البناء محطّم كلياً، ولكن مع ذلك ينبغي أن أقول بالنسبة للجميع كما هي قائمة الآن، بأنها تؤثر على العقل بجو من العظمة يفوق أي شيء رأيته قبلاً في حياتي، وهو دليل واضح على عظمة الهندسة القديمة.

ويوجد على بعد حوالي خمسين يارداً من المعبد صفّ من الأعمدة الكورنثية Corinthian وهي عظيمة وعالية جداً؛ مع عارضة وكورنيش جليلين في الأعلى. وهذه تتكلم عن نفسها بأنها كانت جزءاً من بناء كبير وجميل جداً، ولكن ما يراه المرء الآن منه هو مجرد كافٍ ليعث الأسى بأنه لم يبق منه الكثير.

وتوجد هنا تحفة أخرى لهذا المكان حيث كان على الإنسان بأن يكون متأكداً تماماً من اعتقاده، قبل أن يتجرأ ويُحدّث لثلاثينغني أن يفكر به بأن يُصفي امتياز المسافرين إلى حدّ بعيد. والذي أعنيه هنا قطعة كبيرة من الجدار القديم الذي كان يحيط بجميع هذه الأبنية الموصوفة أخيراً. وثلاثة من الأحجار التي كانت أكبر من الباقية تحملنا عناء قياسها فوجدناها تمتد واحداً وستين يارداً طولاً؛ أحدها واحد وعشرون يارداً والآخران كل منهما عشرون يارداً، وكان عمق كل منها أربع ياردات وعرضه نفس القياس. وتقع هذه الأحجار الثلاثة في الصفّ الواحد نفسه، نهاية لنهاية. وباقي الجدار مصنوع أيضاً من أحجار كبيرة، وأظن أنه لم يكن أيّ منها كبيراً كهذه. وكان الذي أضاف إلى دهشتنا هو أن هذه الأحجار جرى رفعها إلى الجدار أكثر من عشرين قدماً من الأرض.

وعلى جانب ارتفاع بسيط على الجانب الشرقي للمدينة كان يقع عمود مفرد قديم من النظام التوسكاني ارتفاعه حوالي ثمانية عشر أو تسعة عشر يارداً ومحيطه يارد ونصف. وعلى جانبه من الأسفل إلى الأعلى، له قناة محفورة قدّرنا بأنها حُفرت من أجل رفع الماء.



لدى رجوعنا إلى خيامنا كنا مرتبكين قليلاً مع خدّام المتسلّم حول دفع رسمنا. وأخيراً كنا مقتنعين بأن نحكم بعشرة للفرنجي وخمسة للخادم، عوضاً عن أن نخوض بنزاع طويل في مكان كهذا المكان.

وقرب المكان الذي أقمنا فيه كان يوجد مسجد قديم، ونافورة نفيسة كما قلت

سابقاً. وهذه الأخيرة قد جرى تجميلها قديماً ببعض الأعمال الحجرية حولها، وهي الآن خربة تقريباً.

الخميس 6 مايو: وغادرنا بعلبك باكراً في هذا الصّباح متجهين باستقامةٍ عبر الوادي. ولدى مرورنا بجدران المدينة لاحظنا أحجاراً كثيرة مكتوباً عليها أحرف وأسماء رومانية؛ ولكن كانت جميعها مرتبكة وبعضها مقلوبة؛ وهذا يبيّن بأن مواد الجدران كانت جميعها من خرابات المدينة القديمة.

وخلال ساعة واحدة مررنا بقرية تُدعى ايعات Yelad؛ وخلال ساعة أخرى ذهبنا لنرى عموداً تذكاريّاً كان يبعد قليلاً على الجهة اليمنى من الطريق. كان ارتفاعه تسعة عشر يارداً ومحيطه خمسة ياردات، وهو من النظام الكورنثي. وكان له لوحة كتابية على جانبه الشّمالي، ولكن الأحرف الآن ممسوحة تماماً. وخلال ساعة أخرى وصلنا الجانب الآخر للوادي، وذلك في أسفل جبال لبنان الشرقية.

صعدنا الجبل مباشرة، ووصلنا خلال ساعتين إلى تجويف كبير بين التلال وفي أسفله كانت توجد بحيرة تُدعى باسمها اليوناني القديم، اليمّونة Limone، ومساحة سطحها حوالي ستمئة يارد، وتنال مياهها من الثّلج الذائب. وكان أدلاؤنا يرغبون بأن يبقى كل الليل بجانب هذه البحيرة؛ وهم يؤكدون لنا بأننا إذا صعدنا لمسافة أعلى في الجبال فسنكون مجبرين بأن ننام وسط الثّلج؛ ولكننا غامرنا بأن فضّلنا إقامة باردة على إقامة غير صحيّة. ووصلنا إلى الثّلج بعد صعودنا ساعة واحدة؛ وتابعنا وسط الثّلج لمدة تزيد عن ساعة ونصف، ثم اخترنا مكاناً دافئاً بقدر ما استطعنا أن نجد في منطقة عالية كهذه؛ وأقمنا هناك هذه الليلة على قمة جبل لبنان. وكان مشوارنا الكلي في هذا اليوم لمدة سبع ساعات ونصف.

وجبل لبنان في هذا الجزء خالٍ من الصّخور ويرتفع وينخفض فقط بتموجات صغيرة وسهلة وذلك لمدة ركوب ساعات متعددة؛ ولكنه مجذب وقاحل تماماً. والأرض حيث كانت غير محجوبة بالثلج بدت بأنها مغطاة بنوع من الألواح البيضاء الرّقيقة والناعمة. ومنفعتنا الرّئيسية هي أنها بارتفاعها البالغ تبرهن بأنها حافظة لوفرة

من الثلج الذي يذوب بحرارة الصيف ليقدم إمدادات من الماء للأنهار والينابيع في الوديان أدناه. ورأينا في الثلج طبقات أقدام وحوش برية التي هي الأصحاب الوحيدين لهذه الأجزاء العالية من الجبال.

الجمعة 7 مايو: وفي الصباح التالي مشينا لمدة أربع ساعات بصورة دائمة تقريباً على ثلج عميق، وبما أنه كان متجمداً فقد حملنا نحن وخيولنا؛ ومن ثم وبعد نزولنا لمدة حوالي ساعة وصلنا إلى نبع يسمى على اسم قرية مجاورة عين الحداد Aynil Haddede. ووصلنا بهذا الوقت إلى منطقة أحسن وأكثر اعتدالاً.

وعند هذا المكان هنا ينبغي لنا أن نخرج عن الطريق لكي نذهب إلى قنوبين Canobine والأرز. فذهب بعضنا حسب هذا الترتيب، بينما اختار الآخرون الذهاب مباشرة إلى طرابلس؛ وللوصول إليها لم يكن لدينا الآن أكثر من أربع ساعات. أخذنا معنا دليلاً تظاهر بأنه على معرفة جيدة بالطريق إلى قنوبين؛ ولكنه برهن على أنه دليل جاهل؛ وبعد أن قادنا في المنطقة لعدة ساعات في متاهات معقدة وغير مطروقة بين الجبال وجدناه ضائعاً تماماً، واضطررنا لترك زيارتنا المقصودة بالنسبة للوقت الحاضر، وتوجهنا مباشرة إلى طرابلس؛ حيث وصلنا متأخرين ليلاً. وجرى الاحتفاء بنا ثانية من قبل أصدقائنا الجديرين القنصل مستر هيستينغز Hastings ومستر فيشر Fisher بصدقائهما وكرمهما المعتادين.

السبت 8 مايو: بعد الظهر أخذنا السيد القنصل هيستينغز Hastings لنرى قلعة طرابلس. وهي واقعة بصورة مبهجة على تلة تطل على المدينة؛ ولكن لم يكن فيها أسلحة ولا ذخيرة، وهي تخدم نوعاً ما كسجن وليس كحصن عسكري. وكان محبوساً فيها في هذا الوقت سجين مسيحي فقير يدعى الشيخ يونس. وهو ماروني، وكان شخصاً قد ترك دينه سابقاً وعاش لمدة سنوات كثيرة في الديانة المحمدية (الإسلامية)؛ ولكن لدى تقدمه في السن عاد فسحب ارتداده عن الإيمان ومات ليكفر عن ذلك؛ حيث خوزق بأمر من الباشا بعد يومين من مغادرتنا طرابلس.

تنفذ عقوبة الخوازيق هذه بصورة شائعة بين الأتراك لجرائم من الدرجة العليا؛

وهي بالتأكيد إحدى أكبر الفظائع والوحشية التي يمكن أن تقدّم للطبيعة الإنسانية. ويجري الإعدام بهذه الطريقة: يأخذون عموداً ثخنه حوالي ثخن ساق الإنسان وطوله ثمانية أو تسعة أقدام ويجعلونه مديباً وحاداً جداً في إحدى نهايتيه، ويضعونه على ظهر المجرم، ويجبرونه على حمله إلى مكان الإعدام، وذلك تقليداً للعادة الرومانية التي تُجبر المجرمين على حمل صليبهم. ولدى الوصول إلى المكان المميت يدخلون العمود في دُبر الشخص المُدان التّيس بهذا الهلاك. ثم يمسكونه من ساقيه ويسحبون جسمه عليه حتى يظهر رأس العمود عند كتفيه. وبعد ذلك يقيمون العمود ويثبتونه في حفرة حُفرت في الأرض. ويجلس المجرم عليه في هذا الوضع فلا يبقى حياً فقط بل ويشرب ويدخن ويتكلم كشخص واع تماماً، حتى أن البعض قد لبثوا لمدة أربع وعشرين ساعة. ولكن بصورة عامة بعد أن يبقى الشقي المعذب في هذه الحالة المؤسفة والمشيئة لمدة ساعة أو ساعتين يُسمح لأحد المتفرجين بأن يسدّد إليه طعنة الرّحمة في قلبه، وهكذا يضع نهاية لتعاسته التي لا توصف.

الأحد 9 مايو: ليأسنا من آية فرصة أخرى، قمت بمحاولة أخرى هذا اليوم لأرى الأرز وقنوبين Canobine. وبذهابي لمدة ثلاث ساعات عبر سهل طرابلس وصلت إلى أسفل جبل لبنان؛ ومن هناك وبصعودي بصورة مستمرة، لم يكن بغير تعب كبير؛ وصلت خلال أربع ساعات ونصف إلى قرية صغيرة تُدعى إهدن Eden، وخلال ساعتين ونصف إضافيتين وصلت إلى الأرز.

تنمو الأشجار الفخيمة وسط الثلج قرب القسم الأعلى من جبل لبنان؛ وهي جديرة بالملاحظة أيضاً لعمرها وكبرها، وذلك حسب تلك الشذرات الواردة عنها في كلمة الله. وبعضها قديمة جداً وذات جسم هائل؛ وأخرى أفتى وذات حجم أصغر. وبالنسبة للأوليات استطعت أن أعدّ ست عشرة فقط، ولكن الأخريات عديدة جداً. قمت بقياس واحدة من الكبريات فوجدت محيطها اثني عشر يارداً وستة إنشات ولا تزال سليمة؛ وامتداد أغصانها يبلغ سبعة وثلاثين يارداً. وعلى ارتفاع حوالي خمسة أو ستة ياردات من الأرض كانت مقسّمة إلى خمسة فروع حيث كان كل منها

وبعد حوالي نصف ساعة قضيناها بمسح هذا المكان، بدأت الغيوم تتكاثر وتتطاير على طول الأرض؛ بحيث جعلت الطريق غامضاً، وكان دليلي عاجزاً للغاية عن أن يجد طريق عودتنا ثانية. فتجولنا لمدة حوالي سبع ساعات وكنا حيارى، وهذا أصابني بخوف غير قليل بأن أجبر لقضاء ليلة أخرى في جبل لبنان. ولكن أخيراً وبعد مكابدة طويلة من الآلام والصبر وصلنا إلى الطريق الذي يصل إلى قنوين؛ لكن الوقت كان ظلاماً، وتلقيت استقبلاً لطيفاً مواتياً للحاجة الكبيرة التي كانت لدي بعد إرهاق طويل.

أما دير قنوين فهو دير للموارنة ومجلس البطريك الذي هو الآن الأب اسطفانوس الإهدني⁽¹⁾ F. Stephanous Edenensis، وهو شخص ذو علم وإنسانية كبيرين. وبناء الدير بسيط جداً، لكن مركزه جد ملائم للخلوة والعبادة؛ لأنه يوجد شرخ عميق جداً على جانب جبل لبنان يمتد على الأقل سفر سبع ساعات مباشرة لأعلى الجبل. وهو على الجانبين منحدر للغاية وعالٍ، ومغطى بخضرة عطرة من الأعلى حتى الأسفل، وهو منتعش في كل مكان بالينابيع النازلة من بين الصخور بمساقط ماء مبهجة؛ من عمل الطبيعة البارِع. وتتجمع هذه الجداول كلها في الأسفل لتؤلف تياراً سريعاً يُسمع خريره الممتع في كل الأنحاء فيضيف إليها رونقاً ليس بالقليل.

يقع دير قنوين على الجانب الشمالي لهذا الشق على انحدار الجبل، وذلك في حوالي المنتصف بين الأعلى والأسفل. وهو يقع على مدخل كهف كبير وله بضعة غرف صغيرة تنجه نحو الخارج بحيث تتمتع بنور الشمس؛ والغرف الباقية جميعها تحت الأرض. وكان مؤسسه الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius الكبير، وبالرغم من أنه قد أُعيد بناؤه عدة مرات، فمع ذلك أكّد لي البطريك بأن الدير كان ذا أساس بدائي. ولكن أياً كان الذي بناه فإنه بناء بسيط، ولا يُضفي على مؤسسه أيّ فخر كبير. إنه يقع في الكهف ولكن باتجاهه نحو الخارج يتلقى نوراً ضئيلاً من ذلك الجانب.

(1) هو البطريك اسطفان الدويهي الإهدني ذائع الصيت في تاريخ لبنان، (1670-1704)، يصفه الموارنة بالكبير، كان مؤرخاً بارعاً وحبراً علامة.

وفي نفس الجانب كان يوجد أيضاً جرسان صغيران معلقان على الجدار لنداء الرهبان لصلواتهم؛ وهي مزينة غير مسموح بها في أي مكان آخر في هذا البلد؛ ولا يُطبق عليهما هنا الحظر لأن الأتراك بعيدون بشكل كافٍ بأن يسمعوها.

كان وادي قتبوين قديماً، كما يستحق تماماً، يتم اللجوء إليه كثيراً جداً للعزلة الدينية. وما زلت ترى هنا صوامع وأكواخاً وأديرة يكاد لا ينالها عد ولا حصر. ولا يوجد أي جزء صغير من الصخر يبرز على جانب الجبل إلا وترى بصورة عامة بعض البناء الصغير عليه، وذلك لاستقبال الرهبان والنساك؛ بالرغم من أن بعضها فقط أو ولا واحد منها مسكون الآن.

الإثنين 10 مايو: استأذنت بعد العشاء من البطريك ورجعت إلى طرابلس. اتخذت طريقي نزولاً في ممّر مائل ضيق محفور بجانب الكسر، ووجدته استغرق ثلاث ساعات حتى تخلصت من الجبل، وثلاث ساعات أخرى فيما بعد قبل أن أصل إلى طرابلس.

الثلاثاء 11 مايو: وفي هذا اليوم استأذنا من أصدقائنا الطرابلسيين الأفاضل، لكي نعود إلى حلب. وتناقشنا بين بعضنا فيما إذا كان ينبغي لنا أن نأخذ نفس الطريق الذي أخذناه لدى مجيئنا، أو أن نأخذ طريقاً جديداً عبر حمص Emissa أو Hempse وحماة Hamal. ولكننا علمنا ببعض الشغب في هذا الطريق الأخير، وهكذا أقنعنا أنفسنا بالعودة في نفس الطريق الذي أتينا منه؛ حيث أخذنا حتى هذا الوقت الكفاية من كل من متعة السفر ووعثائه، وكنا نريد أن نضع نهاية لكليهما، بالطريقة الأقرب والأسرع. وكل الذي لفت نظرنا مجدداً في أيام السفر هذه، كانت تلك الطريقة الغربية التي يستعملها الرّيفيون لجمع حنطتهم؛ حيث كان الآن وقت الحصاد. فقد راحوا يقتلعونه بملء أيديهم من الجذور؛ تاركين الحقول المثمرة عارية جداً كما لو أنها لم يُزرع فيها شيء من قبل. كانت هذه طريقتهم في جميع أماكن الشرق التي رأيتها؛ والسبب في ذلك هو لثلا يفقدوا شيئاً من تبهم الذي هو بصورة عامة قصير جداً وضروري لقوت أبقارهم؛ وهم هنا لا يصنعون العشب المجفف. إنني أذكر هذا الشيء لأنه كما يبدو

يقدم تفسيراً لذلك التعبير لمنشئ المزامير «الذي يذبل قبل قطافه» (مزامير داود، 79: 6) حيث لم تكن الإشارة واضحة لهذه العادة.

ولذلك، فبرجوعنا بطريقنا السابق لم نلاحظ أي تغيير أو حدث، ووصلنا خلال ثماني ساعات إلى خان العسل؛ الذي وجدنا فيه كثيراً من أصدقائنا الحلبيين الذين لما سمعوا باتجاهنا نحو مكان إقامتنا أتوا لملاقاتنا والترحيب بنا في بيتنا. وبعد أن تناولنا العشاء سوية وهنأنا بعضنا البعض بجمع الشمل السعيد توجهنا في ذاك المساء إلى حلب.

وهكذا برحمة الله وحمايته اللامتناهية قد جرت إعادتنا جميعاً بأمان إلى مساكننا الخاصة بنا. وهنا وقبل أن أختتم، لا يسعني إلا أن ألاحظ شيئاً آخر ينبغي لي أن أوصي به بنزاهة للتذكر المخلص والممتن لكل شخص اشترك في هذه الحجة. أي أن من بين مجموعة كبيرة كما كنا، وسط كثرة كهذه من الأخطار والحوادث، وتنوع كهذا من الأطعمة والأجواء والمساكن، التي في غالبية الوقت لم تكن من الأحسن، لا يوجد واحد منا أصيب بأي عارض مرضي خلال أسفارنا كلها؛ غير أن واحداً سقط مريضاً بنتائج الرحلة بعد عودتنا. وهذا ما اعتبره التخفيض الأقل لرحمة غريبة جداً بخصوص أن من بين كثير جداً من أصدقائي الأعزاء وزملائي المسافرين حدث بأن يكون من نزيبي أن أكون أنا المصاب.

المجد لله

ملحق

بما أن الكتاب كان قد جرى طبعه فإن الرّسالتين التاليتين المتعلقتين بنفس الموضوع، قد جرى إيصالهما من قبل السيّد أوزبورن المحترم عضو كلية إكستر Exeter College؛ إلى الذي كانتا مرسلتين إليه من قبل المؤلف، جواباً على بعض الأسئلة المقترحة من قبله.

سيدي،

استلمت كتابك المؤرّخ في 27 يونيو 1698، وأعدت إليك جواباً عليه باختصار منذ حوالي ثلاثة أشهر؛ واعدت بأن أقدم ما كان مطلوباً عندئذ لدى فرصة أخرى؛ وسأحقق هذا الوعد الآن. لقد رغبت بمقال عن الأتراك وعن الطريقة التي عشنا فيها بينهم. بالنسبة للشقّ الأول عن الأتراك فإن ذلك يملأ مجلداً لأكتب أفكارى كاملة عنهم.

وسأخبرك الآن فقط بأنني أفكر بأنهم بعيدون جداً عن تلك الصّفة التي تُعطى عنهم في المسيحية؛ وخاصة بالنسبة لعدلهم الصّارم واستقامتهم والفضائل الأخلاقية الأخرى؛ وبالتحدث عنها فإنني سمعتهم أحياناً يذكرون ذلك بشيء مسرف جداً؛ وبأنهم تجاوزوا كثيراً الأمم المسيحية. لكنني يجب أن أعترف بنفسى بفكرة أخرى عن الدّيانة المسيحية، وكم نحن نعيش أدنى من الرّوح الحقيقية لها ولسموها. ولا يزال يجب أن يُسمح لنا بأن نكتشف قوة كثيرة حول أفكار أساتذتها، بحيث نرفعها أعلى بكثير من مستوى الفضيلة التركية.

إنه الحدّ الأعلى الذي غالباً ما سمعته من تجارنا وذلك بأن التركي يغشّ دائماً عندما يستطيع أن يجد فرصة لذلك. وإنّ الصّداقة والكرم والفهم، حسب الفكرة الإنكليزية،

والحديث البهيح وكل صفات الرّوح الصّافية والمخلصة، كلها غريبة لعقولهم؛ غير أنهم في التجارة والتعاملات الدنيوية شديدون إلى حدّ كافٍ؛ وهم قادرون على أن يقوموا بحسابات تجارة كبيرة برؤوسهم دون مساعدة الدّفاتر، وذلك بحسابات طبيعية محسّنة بالعادة والضرورة.

ودينهم مهتاً للحفاظ على ثقى وخشوع خارجي كبير دون انتاج أقل لون جيد من الحكمة أو الفضيلة في فكرهم. وسوف تراه في ساعات صلاتهم، التي هي دائماً أربع مرات يومياً، عاكفين على عباداتهم بالوضوء الموقر والرّفع دائماً في الأماكن العامة جداً حيث يمرّ كثير من الناس؛ وبركوعهم وسجودهم الوديع والمتنظم وبصوت منخفض؛ وهي فيما بينهم عماد صلاتهم، رأيتهم في صدقة مصطنعة حيث يعطون المال لماسكي الطيور التي يتاجرون بها، ليعيدوا الطيور الأسرى المسكينة إلى حريتها الطبيعية، وبنفس الوقت يحتفظون بعبيدهم في أقصى حدود العبودية. وفي أوقات أخرى يشترون اللحم لإغاثة الكلاب والقطط البائسة؛ ومع ذلك يشتمونك بالمجاعة والوباء وجميع الشّنائم القبيحة جداً.

وعلى ذلك، فإن هذه الأمم المشرقية لديها بالتأكيد أروع فصاحة من أي شعب على وجه الأرض، وهم نادراً ما يعرفون أي سرور سوى ذلك العائد للحاسة السادسة. ومع ذلك كله فإنهم فخورون بصورة لا تصدّق بديانتهم الخاصة بهم. والشّيء الذي استطعت أن ألاحظه لصالحهم هو الحشمة الظاهرية لتصرفاتهم، والاحترام العميق الذي يولونه إلى الدّين وإلى كل شيء يتعلق به، وعفافهم وتوفيرهم الكبيرين. فإن غلاء أي شيء لا يجعله سبباً في تركية لأن يكون زيّاً رائجاً، بالرّغم من أن الأمر كذلك في إنكلترا.

أما بالنسبة لعيشنا بينهم فإنه كان بكل الهدوء الممكن والأمان، وهذا كله ما نرغبه، ولكن محادثتهم كانت غير مسلية مطلقاً. وابتهاجنا كان فيما بيننا؛ وكنا هنا أكثر من أربعين. وهنا لا تعوزنا أبداً محادثة أكثر ودية وسروراً. إن طريقة حياتنا هنا تشبه إلى حدّ ما الحياة الجامعيّة، فنحن نعيش في ساحات منفصلة تُغلق كل ليلة وفق طريقة

الكليات. نبدأ النهار دائماً، كما تفعلون أنتم، بالصَّلوات؛ ولدينا أوقاتنا المحددة للأعمال ووجبات الطَّعام والترفيه. وفي الشَّتاء نذهب للصَّيد مرتين في الأسبوع؛ بحملة بهيجة جداً. ونذهب في الصَّيف غالباً إلى خيامنا لنسلي أنفسنا بها، وذلك بلعب الكرات وتمارين أخرى؛ وهكذا كما ترى فإننا لا تنقصنا التسالي، وهي جميعها بريئة وجديرة بالزَّجال. وباختصار فإن رأيي الحقيقي بأنه لا يوجد مجتمع خارج إنكلترا بالنسبة لجميع الصِّفات الجيدة والمرغوب بها، يمكن مقارنته بهذا. ولكن كفى من هذا الارتباك الذي كان بإمكانني أن أقصده وأضعه بنظام أحسن فيما إذا كان لديّ الوقت.

سيدي

أما بالنسبة لأسئلتك حول ذُرِّيَّة «جيجزي» Gehazi، فإن لدي القليل للإجابة؛ ولكن مع ذلك آمل بشكل كاف بأن أرضيك أنت وصديقك. عندما كنت في الأرض المقدَّسة رأيت عدة أشخاص كانوا يشتغلون لدى سماحة أخلاف «جيجزي»، ولكن ولا واحد منهم استطاع أن يتظاهر باستنتاج نسبه من ذلك الشَّخص. وكان بعضهم فقيراً بشكل كافٍ لأن يكونوا أقباءه. خاصة في شكيم Sechem التي تسمَّى الآن نابلس Naplosu، وكان يوجد ما لا يقل عن عشرة (نفس الرِّقم الذي جرى تطهره من قبل مخلصنا غير بعيد من نفس المكان) أتوا يتسولون منا مرةً ما.

وكانت طريقتهم بأن يأتوا بسطول صغيرة في أيديهم ليتلقوا صدقات المحسنين؛ إن لمستهم لا تزال تعتبر معدية، أو على الأقل نظيفة. والجُذام كما رأيته فيهم مختلف جداً عن ما رأيته في إنكلترا. حيث أنه ليس فقط يدنِّس كامل سطح الجسم بقشرة قذرة ولكنه يشوّه أيضاً شكل مفاصل الجسم وخاصة المعاصم والكواحل؛ بحيث يجعلها منتفخة مع مادة نقرسية قبيحة المنظر جداً. وفكرت بأن سيقانهم كانت تشبه سيقان الخيول المضروبة العجوزة كما يُرى غالباً في العربات في إنكلترا. إن الجُذام كما ظهر حقاً هناك كربه جداً بحيث يمكن أن يؤدِّي تماماً للإفساد الكامل للجسم البشري

وعلى هذا الجانب من القبر. وبالتأكيد فإن الكتاب الملهمين لم يستطيعوا أن يكتشفوا رمزاً أنسب حيث يعتبرون عن عدم النظافة وشناعة القباحة.

ولكن لنعد إلى جيحزي Gehazi؛ فإنه لا عجب فيما إذا أضحت ذريته مع الزمن متلاشية، مع رؤية أحسن اليهود في هذا الوقت من النهار فإنهم عاجزون عن اكتشاف أنسابهم. ولكن فوق ذلك فإنني لا أرى ضرورة في الكتاب المقدس بالنسبة لسلالته بأن تكون أبدية. إن عبارة «الأبدى» تؤخذ كما تعلمون غالباً بمعنى محدود في الكتاب المقدس والتي منها ميثاق أسرة فنحاس Phineas بالكهنوت (سفر العدد، 25: 13) التي يمكن أن تفيد كمثال. وكانت ذريته كما تعلمون منقطعة كلياً عن الكهنوتية، وقد جرى تحويل ذلك إلى إيلي Eli، الذي كان من ذرية نسب آخر بعد حوالي ثلاثمئة سنة.

* * *

وصف
لرحلة المؤلف
من
حلب إلى نهر الفرات، ومدينة بيره جيک
وإلى بلاد الرافدين Mesopotamia

انطلقنا من حلب في 17 أبريل 1699، متجهين صوب الشمال الشرقي بشرق، نوعاً ما أقل، ووصلنا خلال ثلاث ساعات ونصف إلى سرباس⁽¹⁾ Surbass.

الثلاثاء 18 أبريل: وصلنا خلال ثلاث ساعات ونصف إلى بزاعة Bezay، مارّين بالباب Bab حيث توجد قناة وادي الذهب Dyn il Daab (منطقة ذهب) التي تنزل إليها بحوالي ثلاثين درجة، وتادف Lediff، وهي قرية نضرة. وهكذا كان طريقنا بعيداً نحو الشرق والشمال. وتقدمنا بعد الظهر ثلاث ساعات أبعد، وكان طريقنا صوب الشمال الشرقي، إلى مكان قديم خرب، كان سابقاً له بعض الشآن، يُدعى عجمي⁽²⁾ Acamy؛ وهو يقع في البادية على تلّ محاط بوادٍ؛ وكان كبيراً وعليه آثار فيها بعض التناسق، وجدران وأبنية الجيدة.

(1) كذا بالأصل، والواضح أنه يعني سرجة إلى الجنوب الغربي من تادف، شمال غربي حلب.

(2) يقع إلى الشمال الشرقي من بزاعة.

الأربعاء 19 أبريل: ذهبنا شرقاً وشمالاً، وخلال أربع ساعات وصلنا إلى منبج Bambych. إن هذا المكان ليس له بقايا من عظمته القديمة سوى جدرانه، التي يمكن تتبعها حول كل المكان، ولا يمكن أن يكون محيطها أقل من ثلاثة أميال. لا تزال بضع قطع منها باقية على الجانب الشرقي. وخاصة لدى البوابة الشرقية؛ وقطعة أخرى طولها ثمانون يارداً، مع أبراج ذات حجر كبير مربع وهي مبنية بصورة جيدة للغاية.

ويوجد على الجانب الغربي حفرة عميقة محيطها حوالي مئة يارد. كانت منخفضة ولم يكن فيها ماء، وبدت بأنها كانت في جميع أنحائها أبنية كبيرة، وأعمدتها وأطلالها مطمورة الآن جزئياً؛ ولكن ليس كثيراً حيث كان لا يزال فيها بعض الماء. وتوجد هنا كثرة من الأبنية تحت الأرضية التي جُلبت إلى هذه المدينة؛ وقد شهد الناس بأنها ليست بأقل من خمسين. ولا يمكنك التّركوب في مكان حول المدينة دون أن تراها. وجدنا واحدة على بُعد حوالي ربع ميل شرق المدينة، تعطي جدولاً ظريفاً؛ يتصوّع إلى وادٍ فيسقيه ويجعله مثمرًا للغاية. وربما كانت هنا مراعي الحيوانات المهيأة للأضاحي. ولا يوجد هنا الآن سوى بضعة سكان فقراء، بالرّغم من أن كامل الجانب الشمالي كان مسكوناً قديماً بشكل جيد من قبل الأعراب، كما يمكن رؤيته من آثار مسجد جليل وحمام خارج الأسوار بمسافة صغيرة. وجرت زيارتنا هنا من قبل مجموعة من البغدلي⁽¹⁾ Begdelies الذين كانوا يخيّمون أبعد ببضع ساعات نحو نهر الفرات، وكان لديهم هناك حوالي ألف حصان.

الخميس 20 أبريل: لتجنب البغدلي Bagdelies استأجرنا دليلاً قادنا إلى طريق فرعي. سافرنا شمالاً وشمالاً شرقياً على متن أرض صحراوية، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى ساقية تسمى السّاجور Sejour تصبّ في نهر الفرات، وذلك بعد حوالي ثلاث ساعات من جرابلس Jerablous. ووصلنا بعد حوالي ساعتين إلى سهل مثمر ظريف مغطى بحنطة رائعة. وهو يقع بين التلال ونهر الفرات. وبعد سفر حوالي ساعة ونصف عبر هذا السّهل على ضفاف النهر وصلنا إلى جرابلس Jerabolus. وهذا

(1) البغدلي قبيلة تركمانية أسكنها العثمانيون بعد عام 1690 في منطقة الرّقة ونواحي حلب وعتّاب.

المكان ذو شكل نصف دائري، ويقع جانبه المسطح على ضفاف نهر الفرات؛ وعلى ذلك الجانب له جبل عالٍ وطويل ومنحدر جداً وهو قريب من الماء. وكان قديماً يُبنى عليه، ورأيت لدى أحد جانبيه قطعاً كبيرة جداً محيطها يارد ونصف، وتيجان أعمدة وكورنيشات منقوشة جيداً. وعند أسفل الجبل نُقش على حجر كبير وحشٌ يشبه الأسد وفي فمه لحام، وأعتقد بأنه كان في القديم رجلٌ يمتطيه.

وحول هذا المكان توجد ضفاف عالية قائمة، وتوجد آثار جدران عليها، وتبدو البوابات بأنها كانت قد جرى بناؤها بصورة جيدة؛ وكان محيطها كلها 2250 خطوة أي يارداً. والنهر هنا كبير بقدر نهر التايمز Thames في لندن؛ ولا تستطيع بندقية طلقات طويلة أن تطلق طلقة فوقه حيث أنها تسقط في الماء. ويوجد هنا ثعبان كبير له قوائم ومخالب يسمّى الورل Woralla. ولقد أخبرني تركي بأنه تحت هذا المكان بقليل، عندما يكون النهر منخفضاً، يمكن رؤية آثار جسر حجري فوق النهر؛ ولكن بالنسبة لي فإنني لم أره، وأنا لا أعتمد كثيراً على صدق الأثر. وقد ظهر النهر بأنه قد نزل مؤخراً فجأة جداً، لأن الضفاف كانت مبللة من جديد، وذلك بارتفاع ياردين وأكثر فوق الماء. وكان هنا شمالاً وجنوباً.

الجمعة 21 أبريل: بقينا قريبين من ضفاف نهر الفرات، وخلال ساعتين ونصف قطعنا نهراً صغيراً ظريفاً يسمّى توزاد Towzad؛ ووصلنا بعد ساعتين آخرين إلى بيره جيك Beer، وضرينا خيامنا على أرض منبسطة قريبة من جانب النهر.

السبت 22 أبريل: تابعنا في محطتنا لا نجرؤ على أن نخترق النهر، لخوفنا من أن نقع بأيدي رجال باشا أورفة Urfa الذي كان آتئذ في بيره جيك Beer يأمر مراكب حنطة كثيرة بالنزول إلى بغداد. وبنفس الوقت كنا مزوّدين بإمدادات من قبل الشيخ حسين Scheck Assyne الذي عدنا إليه مراراً.

الأحد 23 أبريل: كان الشيعة قد غادروا الآن، ودعانا الشيخ حسين إلى بيره جيك Beer؛ حيث اخترقنا في مركب ريفي لديهم منه الكثير جداً، وكان هذا المرور الكبير إلى منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات. والمراكب ذات بناء تعيس، وهي منبسطة

ومفتوحة من القسم الأمامي لدخول الخيول؛ وكانت المراكب كبيرة بشكل كافٍ ليحمل كل منها حوالي أربعة خيول. وطريقتهم للعبور هي بسحب المركب إلى الأعلى بارتفاع بقدر ما يعرفونه ضرورياً، ثم يضربونه بمجاذيف زرية فيسقط إلى الأسفل بمجال جيد وذلك بقوة النهر قبل أن يصلوا إلى الجانب الأبعد.

وبعد أن حيينا حسيناً جرى توجيهنا لرؤية القلعة؛ التي هي عبارة عن بناء كبير وقديم على رأس صخرة كبيرة طويلة، وهو مفصول بخليج كبير أو قاع طبيعي عن الأرض. أتينا أولاً خلال البوابات التي هي من الحديد، ورأينا عدة كرات كبيرة من الحجر قطرها حوالي عشرين إنشاً؛ كما رأينا أعمدة كبيرة من الحديد مع عجلات (دواليب) كانت كتلاً كاملة من الخشب ثخنها قدمان في مركز العجلة. ومقطوعة نوعاً ما إلى الحافة نحو المحيط؛ ولوالب (براغي) لربط الأقواس والمحركات، وأيضاً عدة قطع حقلية نحاسية.

وبالصعود على جوانب الصخرة بواسطة طريق محفور بشكل مائل تصل إلى القلعة. وفي المدخل الأول تجد طريقاً محفوراً تحت الأرض نزولاً إلى النهر. وكانت الأشياء الرئيسية التي رأيناها في القلعة، أولاً غرفة كبيرة مملوءة بأسلحة قديمة؛ ورأيت هناك قوارير زجاجية لإطلاق الأسهم عليها؛ كانت واحدة منها مثبتة في نهاية سهم، وعلى جوانبها أربع قطع من التنك للحفاظ عليها ثابتة، وأقواس زنبك⁽¹⁾ كبيرة وواسعة، وألواح خشبية مصممة حسب الظاهر للمناجيق؛ وسروج رومانية وقطع للرأس ذات قياس كبير، وكان بعضها مدهوناً؛ وبعض القدد الجلدية الكبيرة لأوتار الأقواس، وأكياس لأحجار المقلاع. ولكن غير الأثرak لم تسمح لنا بأن نبقي وقتاً طويلاً كما كان مطلوباً لإجراء فحص متقن لهذه القطع الأثرية.

رجعنا من القلعة إلى حسين وعوملنا بلطف. وصعدنا في المساء إلى ريف ما بين النهرين⁽²⁾ Mesopotamia. والتلال منحدرية وحوارية؛ وتقرب من جانب الماء دون

(1) بالإنكليزية: crossbow أي القوس الصغير الذي يتم توتره بعتلة مثبتة به.

(2) يقصد هنا كيليكيا إلى الشمال من سوريا.

تداخل بسيط، حيث الأنهار على جانب سورية؛ وهكذا فإن بيره جيك Beer تقع على جانب تلة. على كل حال فإن فيها زوجاً من الجداول الظرفية التي تجري فوق أعلى التلة؛ ويشغل أحدها طاحونتين، وهكذا يجري نزولاً إلى المدينة التي هي مسورة بشكل حسن. ويوجد في جانب التلة خان تحت الأرض، محفور في الصخر مع خمسة عشر عموداً كبيراً قائماً لتدعيم سقفه.

الإثنين 24 أبريل: غادرنا بيره جيك Beer مسافرين غرباً، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى نزيب Nizib، وهي مكان يقع بموضع حسن على رأس نهر توزاد Towzad. وتوجد هنا كنيسة قديمة وصغيرة، قوية جداً وكاملة؛ والقبة فقط في وسط الصليب محطمة، وساحتها مغطاة بالأوراق لتناسب المكان لمسجد. وأعتقد بأن الأتراك قد جعلوا الأماكن التي يلجأون إليها للصلاة فجوات فارغة ليُبينوا بأنهم يعبدون إلهاً واحداً غير مرئي بحيث لا يُمثل بالصّور. ووصلنا خلال ساعتين من نزيب Nizib إلى قرية مسيحية جيدة تسمى يحمور Uwur، كما وصلنا بعد ساعة ونصف إلى بئر في الصحراء.

الثلاثاء 25 أبريل: سافرنا غرباً تقريباً لمدة ساعتين، ووصلنا خلال ريف لطيف متنوّع بتلال صغيرة ووديان إلى قرية تدعى أدجا⁽¹⁾ Adja، وذلك بعد مغادرتنا سلامة Silam وقرتين أخريين على الجانب الأيمن. وفي أدجا ينبع مباشرة نهر حلب من نهر كبير. وفوقه تماماً يجري نهر الساجور Sejour الذي يمكن أن يُسمح له إليه بفاصل قصير يبلغ عشر ياردات. ومن أدجا كان اتجاهنا غرباً شمالاً غرباً. وضاف نهر الساجور مزروعة بشكل حسن بالأشجار والقرى. وخلال ساعتين قصيرتين وصلنا إلى عنتاب Antab، وقطعنا نهر الساجور عند جسر قبل حوالي ثلاثة أرباع الساعة. غادرنا المدينة على الجانب الأيمن ومررنا تحت جدرانها، وضرَبنا خيامنا في حقل سهل على ضفاف نهر الساجور.

تقع معظم عنتاب على تلة، ولها قلعة على جبل مستدير على جانبها الشمالي يشبه

(1) أظنه يعني اليجي إلى الشمال من شران بمنطقة عفرين.

تماماً ذلك العائد لحلب، بالرغم من أنه أقل بكثير. ولها خندق عميق جداً حولها؛ وفي أسفل الجبل وضمن الخندق يوجد رواق محفور عبر الصخر حول القلعة كافة، مع فتحات إطلاق؛ وهو محاط بجدران حجرية حيث لم يكن الصخر قوياً بشكل كافٍ. والبيوت بصورة عامة ليس لها غرف علوية؛ والأسواق كبيرة. رأيت هنا حجراً ظريفاً يشبه كثيراً جداً الرخام السماقي لون أرضيته حمراء مع نقاط وعروق صفراء ولما ع جداً. وهو يُجلب بالقرب من عنتاب تماماً.

وعنتاب دون شك هي مدينة أنطاكية القديمة⁽¹⁾ Antioch تحت جبل طوروس Taurus حيث تقع في أنحائه، وليست بعيدة من أعلى مرتفع؛ ويبلغ حجمها حوالي ثلثي مدينة حلب.

الأربعاء 26 أبريل: مررنا عبر ريف مثمر جبلي، ووصلنا خلال سبع ساعات إلى قلعة راوند Rowant. وهي تقع على رأس تلة منحدرية ومستديرة، وكانت حصينة بالنسبة للأزمة التي بُنيت فيها. ومن المحتمل بأنها بناء إسلامي وهي الآن خربة. وفي أسفل التلة نحو الغرب يجري نهر عفرين Ephreen؛ ومجره نحو الجنوب والجنوب الغربي. وطريقنا من عنتاب إلى راوند Rowant كان شمالاً غرباً نحو الشمال.

الخميس 27 أبريل: تابعنا سفرنا عبر الجبال التي كانت الآن إلى حد ما أكثر انحداراً وغير مستوية، ولكنها تسقى في كل مكان بينابيع ظريفة وأنهار صغيرة. ووصلنا خلال ست ساعات إلى قورس⁽²⁾ Corus؛ وكان طريقنا جنوباً غرباً بعد أن قطعنا نهر عفرين قبل حوالي ثلثي الساعة. وتماماً عند قورس يوجد نهر سابون⁽³⁾ Sabon أي كور Chor أو كار Char الذي يحيط بالقسم الأكبر من المدينة.

(1) هذا غلط فادح، فلا علاقة بين عنتاب وأنطاكية، ومن الغريب أن موندلر على الرغم من إقامته بحلب لم يسمع في عصره بوجود هذه المدينة العريقة أنطاكية.

(2) مدينة كانت ذات أهمية كبيرة في عصور السّلوقيين والبيزنطيين والصليبيين، واسمها القديم: Cyrrhus وكان لها شأن بأول انتشار المسيحية. تقع إلى أقصى الشمال الشرقي من منطقة عفرين، وتسمى اليوم: النبي هوري.

(3) نهر سابون (أو صافون بالكنعانية ويعني: الشمال) رافد لنهر عفرين.

وتقع قورس على تلة تتألف من المدينة والقلعة⁽¹⁾. وتقع المدينة شمالاً؛ وترتفع من نهايتها الشمالية حتى تصل أخيراً إلى تلة أعلى نحو الجنوب وعليها تقع القلعة. وكلها الآن خربة حيث تبدو بأنها كانت كبيرة جداً، وهي محاطة بقوة كبرى بسور ذي أحجار ضخمة مربعة. ومن الملاحظ في الداخل الأطلال والأعمدة إلخ، لكثير من الأبنية الجليلة. وتوجد على الجانب الغربي مساحة مربعة ذات سعة كبيرة، محاطة بجدران جيدة، وخمس بوابات داخلية فيها؛ كما يمكن للمرء أن يرى بأطلالها. وقد خُمنَتْ بأنه من الممكن أن تكون الكاتدرائية. وفوق بوابة القلعة توجد بعض الكتابات القديمة.

ويقع تحت تلة القلعة نحو الجنوب بناء تذكاري قديم وجميل. مساحته ستة ياردات مربعة وتفتح فيه من الأعلى ست نوافذ؛ وهو مغطى بقبة هرمية. وفي كل زاوية من الداخل يوجد عمود من الطراز الكورنثي ذو حجر واحد؛ وتوجد ساكفة architrave رائعة على الطنف الدائر تحت القبة تماماً، وكان له رؤوس ثيران منحوتة عليه؛ وينتهي في الأعلى بتاج عمود كبير من الطراز الكورنثي؛ وقرب ذلك توجد عدة مذابح ضريحية، وواحد منها فقط له كتابة مقروءة.

الجمعة 28 أبريل: غادرنا قورس، وعلى بُعد حوالي نصف ميل خارج المدينة جنوباً شرقاً نزلنا عبر طريق محفورة بصورة مائلة على جانب أحدور يقود إلى جسر ذي سبعة أقواس من البناء القديم جداً، وذلك فوق نهر سابون. وبعد حوالي ربع ميل وصلنا إلى جسر آخر ذي ثلاثة أقواس كبيرة جداً فوق نهر عفرين. وهذه الجسور قديمة جداً وهي مبنية بشكل حسن من الحجر المربع. وثلاثة أعمدة لها زاوية حادة على الجانب مقابل الجدول، ودعامة مستديرة على الجانب الآخر، وعلى الجانبين كليهما توجد فجوات للتماثيل. وهي مبلطة بشكل حسن في الأعلى بأحجار كبيرة، وهي بدون شك، بالإضافة إلى تلك التي في الجانب الآخر من المدينة، من عمل ثيودوريت Theodoret الفاضل الجليل.

ومن هذا الجسر وفي خلال ثلاث ساعات وباتجاه جنوبي أو جنوبي شرقي، أو

(1) تعرف اليوم باسم: قلعة النبي هوري.

جنوبي شرقي نحو الجنوب؛ وصلنا إلى جان بولاد Jan-Bolads. ومن جان بولاد إلى كِلْس Chillis ساعة وثلثي الساعة باتجاه الشمال أو الشمال الشرقي. وكِلْس مدينة مسكونة كبيرة وفيها خمسة عشر مسجداً يمكن عدها من خارج المدينة، وفيها أسواق كبيرة. وتوجد هنا ميداليات كثيرة تبدو مجادلتها بأنها قديمة، ولكن تحت أي اسم لست أدري.

تقع حلب من جان بولاد جنوباً وشرقاً. وسوق الكبير Seck Berukel جنوباً غرباً. وعلى بُعد ساعة من جان بولاد تقع اعزاز Azass. وأقمنا في السهل على بعد ساعتين، وهو عريض جداً بين كِلْس واعزاز وهو مثمر أيضاً. وينسب هذا الرّيف دائماً لـ «الوالدة» Validea أو أم السلطان Grand-Signior.

السبت 29 أبريل: وصلنا ببركة الله سالمين إلى حلب بعد أن سافرنا حوالي خمس ساعات باتجاه جنوبي شرقي.

المجد لله

* * *

حول وادي الملح

الذي يبعد حوالي أربع ساعات عن حلب

امتداد هذا الوادي حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات؛ واستغرقنا حوالي ثلاثة أرباع الساعة لاجتياز زاوية واحدة منه. وهو ذو مستوى مضبوط، ويبدو عن بُعد كبحيرة ماء. ويوجد نوع من القشرة الجافة من الملح في جميع أنحاء وجهه؛ يعطي صوتاً عندما تمشي الخيول عليه كصوت الثلج المتجمد عندما يتم المشي عليه. وتوجد ثلاثة أو أربعة نهيرات صغيرة تصب في هذا المكان وتغسله في جميع أنحائه، وذلك حوالي الخريف، أو عندما تهطل الأمطار.

ويجف الماء بحرارة الصيف، وعندما تكون الشمس قد سفعت الأرض، فتبقى طبقة الملح السابق ذكرها؛ فيجمعونها ويفصلونها إلى عدة أكوام وذلك حسب درجات جودتها؛ بعضها أبيض بغاية النقاء، والبعض الآخر مخلوط بالأوساخ.

وهو ناعم في بعض الأماكن بحيث أن حوافر خيولنا تعلق بعمق؛ ووجدت هناك في قسم واحد غضاراً ناعماً بُنيّاً. وفي قسم آخر وجدت غضاراً أسود جداً حيث كان بالنسبة للذوق مالحاً جداً بالرغم من كونه عميقاً في الأرض. وعلى طول جانب الواديين أي نحو الجبُول Gibul، يوجد أحدور صغير حوالي طول رجلين، تسبب بالاستخراج المستمر للملح؛ وفي هذا الأحدور يمكنك رؤية كيف تمتد عروق الملح. كسرتُ قطعة منه، من ذلك الجزء الذي كان معرضاً للمطر والشمس والهواء، وبالرغم من أنه كان له لمعان الملح وذراته، فقد تلاشى مذاقه تماماً، كما هو مذكور في الأصحاح

الخامس من إنجيل القديس متى. واحتفظ القسم الداخلي الذي كان ملتصقاً بالصخر بمذاقه، كما وجدتُ بالبرهان.

ووجدنا في عدة أماكن من الوادي بأن طبقة الملح الرقيقة على السطح قد نتأت، كما لو أن حشرة ما تعمل تحتها قد رفعتها؛ وبإزالتها لذلك الجزء وجدنا تحته رسوبات من الملح الصافي قد ظهرت حسب مظهرها المناسب.

وفي القرية المجاورة الجبُول Gibul يُحتفظ بمخازن الملح حيث تجد جبلاً (كما يمكنني أن أقول) من هذا المعدن جاهزة للبيع. ويُؤجّر الوادي من قبل السنيور الكبير (السلطان) بمبلغ 1200 دولار في السنة.

* * *

المحتويات

| | |
|-----|--|
| 5 | سلسلة رواد المشرق العربي |
| 7 | هذا الكتاب |
| 11 | نقاط حول الترجمة |
| 23 | مقدمة المؤلف |
| 147 | ملحق |
| | وصف لرحلة المؤلف من حلب إلى نهر الفرات، |
| 151 | ومدينة بيرة جيك وإلى بلاد الرافدين |
| 159 | حول وادي الملح الذي يبعد حوالي أربع ساعات عن حلب |

* * *